الأستاذ الدكتور
شفيق عبد الرازق أبو سعده

حول الأدب الجاهلي وقضاياه

بسم الله الرحمن الرحيم

" رب أنعمت فزد "

وبعد ..

ففي ساحة الأدب الجاهلي وقضاياه تبارت الأقلام ، وتباينت الآراء ؛ وانطلاقا من أن الكلمة الأخيرة لم تقل بعد ، ورغبة في إماطة ما علق بالأدب في هذا العصر ، فقد اقتحمت الميدان ـ على الرغم من النقع المثار ـ وشرعت يراعي ، لأدرس هذا الأدب ، وأكشف دروبه ومناجمه ، وأذود عن تراثنا الخالد الذي نهشه كثيرون ، وتركوه يشغب دماءه وينعي حظه في هؤلاء الذين ينفخون في أبواق الآخرين ، ويشترون الشهرة بأدب الأولين .

فكل يدّعي وصلا لليلى وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

وحق على مرتادي الأدب أن يسعوا إلى هذه الغاية جادِّين ، ولو كلفهم ذلك عنتا ولأيا شديدين ، فمن يخطب الحسناء لم يغلها المهر .

وكيف لا نذود عن حياض هذا الأدب ، وهو الأساس الذي نهض عليه بناء الأدب ؟! ، وهو تراثنا الذي نعتز به ، وننهل من ورده ، وسجلنا الجامع لتاريخ أمتنا العربية ، فما من صورة في الحياة الجاهلية نبضت بها النفس الإنسانيّة ، واختجلت بها الطبيعة البشرية ، إلا كان الأدب لها سجلاً أمينا ومصوّراً دقيقاً !! .

إن يُكْد مُطَرَّفُ الإخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالد
أو يختلفْ ماءُ الوصال فماؤنا عذْب تحدّر من غمام واحد

أو يفترقْ نسبٌ يؤلفُ بيننا　　　أدبٌ أقمناه مقام الوالد[١]

وليس ذلك تعصباً أو حميّة أو جموحاً ، ولكن لأنه الأدب !! تبدّت بين أدواحه بزينتها هند ، ولم تتلفع بفضل مئزرها دعد ، له من البلاغة حلى يتقلّدها ، فيكاد السحر يحسدها ، فما أنفس فرائده ، وأثمن فوائده ، وما أفصح مقاله ، وأفسح مجاله !! فمن أتاه فقد أتى بيوت الكلام من أبوابها ، وميّز أبكارها من أترابها ، وأهدى إلى هؤلاء الشادين كلاما يلطف كالهواء رقة ، ويسيل كالماء عذوبة ، يمتزج بالنفوس لنفاسته ، ويشرب بالقلوب لسلاسته ، وهو كما قيل :

كما أزهرت روضاتُ حسن وأثمرت
فأضحت وعُجْمُ الطير فيها تغرّد

إي وربي إن الأدب الجاهلي لهو الأدب ، وإن دارسَهُ ينبغي أن يتدرّع بالكدّ والصبر والهمّة لاقتناص شوارده ، والوقوف على أوابده ، لينفذ إلى أغواره ، ويصل إلى دقائقه وأسراره ؛ ومثل هذا الأدب في ألوان أحاسيسه الناطقة ، وأفنان عواطفه الدافقة ، وتصويره الحياة الإنسانية بما يضطرم فيها من مشاعر وانفعالات ، مثل الآداب الإنسانية جميعاً ، لا يتخلف عنها ركبُه ، ولا يزْوَرُّ عنها موكبه ، وإن تَنَقَّصَتْه بعض العيون التي أعْشاها ضوؤه ، وغشّاها إشراقه .

ولا جرم !! أن دراسات في بستانه غامت ، فلم تظهر منه إلا ألواناً شاحبة ، وصورا ضاوية ، فغدا في عيون البعض جسما بلا روح ، ودمية بلا حياة ، فما ذاك لعيب في هذا الأدب ، ولكن في هذا النوع من الدراسة المنكفئة على القشور ، والمكتفية بالممجوج المكرور .

---

(١) الأبيات لأبي تمام من داليّته في مدح علي بن الجهم .

والحق أن الأدب الجاهلي بعامة ، والشعر منه بخاصة ، ما فتيء قيثارا يغرد ، يسكب في آذاننا أعذب الألحان وأشهاها ، يسكرنا جلال سحره ، وينعشنا سلطان خمره ، وما انفك منارة وضاءة ، تنثر الفكر ، وتجذب البصر ، فلقد حوى من لطائف الابتداع ، ودقائق الاختراع أبكاراً حسانا ، تصبو إليها القلوب ، وتهفو لها النفوس ، فمنها يقطر ماء الملاحة منسابا ، في روض أغن ، داني الثمر ، وافر العبر ، حسنه يرف ، ونَوْره يشف .

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ أنه نظام فريد
ولكَمْ دأبتُ على عَرْك مبانيه لدرْك معانيه

وجاهدت لاجتناء قطوفه ، وارتداء شفوفه ، ولطالما حرصت على التعطف مع ثماره ، والتلطف مع أكباد آثاره في حدائقه الغُنّ ، ورياضه الفِيح .

وهذه محاولة جادة لتاريخ أدب الذرا ـ العصر الجاهلي ـ ، والكشف عن جوانبه النابضة بالحياة ، والشّف عن قِيَمه ومُثُله ، ودمغ الممتارين ، في ضوء الأدلة المادية والحجج الاستنباطية .

والأمل معقود في أن أكون قد دنوت من مرافئ الصواب ، ورويت ظمأ الصادي ، وعُلالة المشوق .

وحسبي أني حاولت وأقدمت ، وبرب الملكوت استعنت

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

أ.د. شفيق عبد الرازق أبو سعدة

كلمة أدب
مصدرها وأطوارها

يجمل بنا قبل أن نخوض غمار دراسة الأدب في العصر الجاهلي أن نعقد مبحثاً ، حول كلمة أدب ، نتلمس من خلاله ميلادها ومصدرها ومعانيها ، والأحوال التي اعتورتها حتى أصبحت علماً على فن ينتظم ذلك الجمال المعنوي في نسقه الفني ، والذي يودعه الأديب ـ شاعراً كان أم كاتباً ـ فيما يؤثر من الشعر أو النثر ، قصداً إلى التأثير في العواطف والمشاعر والأفئدة والعقول .

فقد تعاقبت على كلمة أدب معان كثيرة ، ضاقت تارة ، واتسعت تارة أخرى ، إذ تطور معناها بتطور الأمة العربية .

والحقل اللغوي قد أضفى على الكلمة معاني جمة ، تقترب في مضمونها حينا ، وتبتعد أحياناً ، وبدهي أن الألفاظ مثل الكائن الحي في تجدده واستجابته لما يدور حوله من أحداث ، وما يعتري سماءه من ظواهر .

والمنقب عن أصل كلمة أدب ، يجد نفسه موزع الخواطر والنفس ، مشتت الذهن واللب ، لارتطامه بصخور الأقوال المتضاربة والآراء الغامضة .

يدعي بعض الباحثين أن هذه الكلمة لم ترد فيما وصلنا من ألفاظ عربية جاهلية ـ وخليق بنا أن ننبه إلى أن آثار الجاهليين موضع شك واتهام ومحط ريبة عندهم ـ ، وليس بين النصوص العربية الجاهلية الصحيحة ما يثبتها ، وليست في القرآن ولا في الحديث ولا فيما ورد عن الخلفاء

بطريقة قاطعة .

والكلمة ـ وهذا حق ـ لم ترد في القرآن الكريم بلفظها ، وإنما وردت بمعناها ـ على الرغم أنها أضحت علامة بارزة على فن غائر الجذور ، ثابت الأركان ، طائر الصيت ـ ، فمن أين جاءت ؟ وما مصدرها إذن ؟!! .

يرى ابن منظور صاحب « لسان العرب » ، والزبيدي صاحب « تاج العروس » ، أن كلمة أدَب ـ محركة الدال ـ مشتقة من كلمة أدْب ـ ساكنة الدال ـ ، وأصل الأدْب ـ بالسكون ـ الدعاء ، ومنه قيل للطعام الذي يُدْعى إليه الناس : مدعاة ومأدبة ، والأدْب : مصدر ، والآدِب : الداعي إلى الطعام ، يقال : أدُب الرجل القوم يأدُبُهم ، إذا دعاهم إلى طعامه ، أو صنع لهم مأدُبةً .

وسمي الأدَب ـ بالتحريك ـ الذي يتأدب به الأديب من الناس أدَباً ، لأنه يؤدب الناس إلى المحامد والمكارم ، وينهاهم عن المقابح والمثالب .

وهذا الرأي إنما يدل على أن كلمة الأدْب بمعنى الدعاء ، أسبق إلى الحياة من كلمة الأدَب الذي هو الظرف وما في معناه من سماحة الطبع وحلاوته ، ورقة الحاشية وصفائها ، ورهافة الذوق وسلامته ، وكأن الكلمة ـ على هذا ـ قد انتقلت من المعنى الحسي الحقيقي ، وهو الدعوة إلى الطعام والمأدبة إلى المعنى الذهني المجازي ، وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم .

بيد أن هذا الرأي تعوزه الحجة وينتقصه الدليل ، فضلا عن أن

الكلمة لم تنقل من معناها إلى هذا المعنى برمتها ، في شكلها وهيئتها كما هو معهود ، وإنما تغيرت هيئتها عند النقل ، ففتحت دالها ، فالتكلف فيه بعيد .

ويرى المستشرق الإيطالي « كارلونلينو » أنها مشتقة من الدأب بمعنى العادة ، وسيرة الآباء والجدود وطريقتهم ، وأن معنى الدأب هذا ليس بعيداً عن السنة والأدب ، وأن علم الأخلاق عند الجاهليين إنما كان مراعاة سيرة أسلافهم ، فبها كانوا يفتخرون ، كما في قول لبيد :

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها

وقول العجير السلولي :

كذلك هدى آبائي قديما توارثه النجار عن النجار

غير أنها ليست مشتقة من المفرد ، إنما هي مشتقة من الجمع ، فقد جمعت دأب على أدآب ، ثم قلبت فأصبحت آداب ، مثلما جمعت : بئر ورئم على : أبآر وأرآم ، ثم قلبت فقيل : آبار وآرام ، وكثر استعمال الآداب جمعا للدأب ، وبتمادي الزمان نسي العرب أصل هذا الجمع ، وما كان فيه من قلب ، وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه ، فأخذوا منه مفرده أدبا لا دأبا ، وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة ، ثم انتقل من هذا المعنى الطبيعي القديم إلى معانيه الأخرى المختلفة [1] .

ونراه يقرر أن كلمة أدب جرت على لسان العرب ، ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشيم ، كما جرت كلمة دأب بمعنى العادة والملازمة .

---

(١) انظر : تاريخ الآداب العربية لنلينو ص ٢١ وما بعدها .

ورأيه هذا مجرد فرض موغل في البعد ، ليس له ما يعضده من النصوص ، ولا ما يشد أزره من القرائن العلمية ، فلم يتعدّ لهذا طور الحدس والتخمين ، ومن ثم رده سائر الأدباء والمؤرخين للأدب .

من الذين ردوه وهدموه : الدكتور طه حسين [١] ، غير أنه أقام على أنقاضه رأيا له ، فقد أباح لنفسه أن يفترض كما افترض نلينو ـ ولكنه لا يعضد افتراضه ولا يرجحه ـ ، يقول بعد أن لف ونشر : ليس لدينا نص صحيح قاطع يثبت أن لفظ الأدب وما تصرف منه قد كان معروفاً أو مستعملاً قبل الإسلام أو أبان ظهوره ... ، ومن المحقق أن لغة قريش قد أثرت في لغات العرب الآخرين ، بعد أن جعلها الإسلام لغة رسمية : لغة سياسة وإدارة ودين ، وأن لغة قريش هذه قد تأثرت بلغات العرب المختلفة بعد الإسلام ، كما تأثرت بها قبل الإسلام ، فهي مؤثرة في هذه اللغات ، وهي متأثرة بها ، وعلماء اللغة لم يدونوا في كتبهم ومعاجمهم لغة قريش وحدها ، وإنما دونوا ألفاظاً كثيرة كانت شائعة في قبائل مختلفة ، ولم تكن تعرفها قريش ، ضاع كثير منها ، فإذا لم نجد مادة الأدب في لغة قريش ولا في العبرانية ولا في السريانية ، فليس ما يمنع أن تكون هذه الكلمة قد دخلت في لغة قريش أبان العصر الأموي ، انتقلت إليها من إحدى اللغات العربية التي ضاعت .

وهو على هذا لا ينفي عربيتها وأصالتها من حيث لا يحتسب ، فهذه اللغة التي أرجع إليها الكلمة ، والتي أخملتها سيادة لغة قريش ، كانت لغة قوم من العرب قديما ، فلم تخرج عن اللسان العربي .

---

(١) في كتابه : الأدب الجاهلي ص ١٩ وما بعدها .

وثمت افتراض آخر لا يعدو أن يكون خاطرة نفس لم تجد ما ينهض بها : يذهب بعض المحدثين إلى : أن الكلمة دخيلة على اللغة العربية وسائر اللغات السامية من لغة الشومريين [١] ـ الذين عمروا جنوبي العراق منذ أقدم العصور ـ ، وأخذها عنهم الساميون الطارئون عليهم ، وكانت تعني عند الشومريين « إنسانا » ، ولعلها استحالت بعد في اللغات السامية من أدب إلى أدم إلى آدم ، واحتفظت العربية بالأصل الشومري للكلمة لعزلتها في الصحراء ، واستعملته فيما يؤدي معنى الإنسانية أو الآدمية من كرم الخلال ، وحسن الخلق ، ورقة الطبع .

ويذهب الأب أنستاس الكرملي إلى يونانية الكلمة ، إذ من معاني الأديب عند الإغريق « المنادم » المثير لهوى جلسائه بحديثه الريق ، وأنغامه الشجية [٢] .

والذي أراه : أن هذه الآراء جميعا لا تنهض على قدمين ، ولا تقوم على ساقين ، وما هي عندي إلا بمثابة فقعات في خضم زاخر لا تلبث أن تزول ، وما فيها من اعتساف وتكلف واضح للعيان .

هذه الكلمة عربية أصيلة ، عرفت عند الجاهليين ، وحملها إلينا شعرهم ونثرهم ، وليست دخيلة على لغة الضاد من لغة أخرى ، أو مشتقة من كلمة أخرى ، لأنه ليس هناك ما يحتم أن تكون دخيلة أو مشتقة .

لقد كانت كلمة أدب تعني عند الجاهليين : السلوك الخلقي ـ وعليه

---

(١) انظر : أصول الأدب للأستاذ أحمد حسن الزيات ص ٩ ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان جـ ١ ص ١٢ .
(٢) راجع : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ص ١١ وما بعدها .

يتفق الجميع - ، والمطلع على ديوان الشعر الجاهلي يجده في معظمه لا يخرج عن دائرة السلوك الخلقي الرفيع ، فهو - في الغالب - إما داع إليه محبذ عليه ، أو واصف له مشيد به ، ألست ترى معي أن معظم هذا الشعر يشيد بالفضائل ويزهو بالمناقب ، فيشيد بالكرم والنجدة والإباء والشجاعة ، وحق الجار ورعايته ، وما إلى هذه من الفضائل ؟! على منوال نسج زهير في حصن :

وأبيض فياض يداه غمامة ... على معتفيه ما تغب فواضله

وقول عنترة :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

وقول العجير السلولي :

يبين الجارحين يبين عني ... ولم تأنس إلى كلاب جاري
وتظعن جارتي من جنب بيتي ... ولم تستر بستر من جداري
وتأمن أن أطالع حين آتي ... عليها وهي واضعة الخمار

وهذا الذي جاء في الشعر من القيم الخلقية والفضائل إنما يتفق مع ما كانت تعنيه كلمة أدب في المجتمع الجاهلي ، وهذا يؤكد وجود الكلمة بلفظها إلى جانب معناها ، ويدعو إلى القول بأصالتها .

وكيف لا ! وهذا بلعاء بن قيس [١] الشاعر الجاهلي يقول :

---

(١) هو : بلعاء بن قيس الكناني ، المعروف بالشداخ الليثي ، شاعر جاهلي محسن ، رأس قومه في أكثر حروبهم ، مات في حرب الفجار بين قريش وكنانة .
راجع : كتاب الأصنام لابن السائب الكلبي ٤٧ ، ٤٨ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ١٠٦ ، والعقد الفاريد لابن عبد ربه ٥/٢٥٨ .

وإن أمت والفتـى رهـن بمصرعـه فقد قضيت مـن الآداب آرابا ؟!

وإذا جاز لهؤلاء الذين يشككون في لغتنا وتراثنا أن يشككوا في نثرنا ، لأنه من الممكن أن يحوّر وأن يروي بالمعنى ، فلا يجوز لهم أن يشككوا في شعرنا ، لأنه لا يحوّر ولا يروى بالمعنى ، لخضوعه لأنظمة وأقيسة الأوزان والقوافي ، ولأنه أشد وأسرع علوقا بالذاكرة من النثر .

إن آدابنا قد تعرض كثير منها للضياع ، فمعظمها ـ كما يجمع الأثبات ـ قـد ضاع وواراتـه عنا رمـال الصحـراء ، نتيجـة عـدم تدوينهـا ـ فالعرب لم يعتمدوا على الكتابة والتدوين ـ وموت الرواة والحفظة ، يؤيد هذا قول أبي عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » ، فلمَ لا يكون للكلمة وجود في الجاهلية ، وقد ضاع الكم الأكبر من النصوص التي كانت تحملها في جملة ما ضاع ؟ .

ثم إننا لو سلمنا جدلاً بأن الكلمة في النصوص الجاهلية من وضع الوضاعين ، لوقفنا من خلال هذا على دليل آخر لنا لا علينا ، ذلكم لأن الوضاعين كانوا من أعلم الناس باللغة ، وأفرسهم بمفرداتها وألفاظها ، والوضع يقتضي الجري على النسق الذي كان مألوفاً عند العرب ومعروفا في لغتهم ، لئلا يحمل بين جوانبه دليل البطلان وسمة الوضع وأمارة التزييف ، وهذا ما يؤكد جاهلية الكلمة وأصالتها .

ونقول للذين يؤكدون وجود كلمة أدب في عصر بني أمية ، ويتابعون مدلولها منذ هذا العصر ـ من أمثال الدكتور طه حسين ـ : هل كان وجودها في هذا العصر وجودا طفريا دون أن يكون له أساس ينهض عليه ؟! .

إن شيوعها وذيوعها في العصر الأموي يؤكد وجودها في الجاهلية وصدر الإسلام ـ وإن لم تكن بهذا الحجم من الذيوع والانتشار ـ ، تمشيا مع نظرية النشوء والارتقاء .

إن ما أثر من نصوص جاهلية وإسلامية فيها ذكر هذه الكلمة بمعانيها التي شاعت بينهم صحيحة ومقبولة ، وإن من العبث أن نصمها بالاتهام أو نرتاب فيها ، وإلا عدنا إلى تساؤلنا : كيف برزت بهذا السفور عند الأمويين ؟! وإنهم ليبهتون إن ادّعَوْا أن الكلمة وُلدت على أيدي الأمويين .

لم ترتجل الكلمة إذن في العصر الأموي ، بدليل ذيوعها وانتشارها فيه ، وبدليل وجود أخواتها المشتركات معها في المادة والقريبات منها في المعنى ، مثل : بدأ وأبد ودأب ، وهي تشترك جميعا في معنى التعلّق بالشيء ومباشرته ، ويندر جداً أن ترد هذه الكلمات دون كلمة أدَب ، لخفتها ودوران معناها في الحياة العربية الجاهلية ، مع تشابهها في المعنى وهذه الأخوات (١) .

ومن ثم فليس هناك ما يمنع عربية هذه الكلمة وأصالتها ، أو ما يمنع وجودها في الجاهلية ، وإن تداولها في أيام الرسول ﷺ وصحابته ، وذيوعها في العصر الأموي ، ليؤكد وجودها في الجاهلية ، ويدمغ المتارين الذين يشككون في تراثنا الأدبي الخالد .

* * *

---

(١) انظر : أصول النقد الأدبي ، أحمد الشايب ص ٢ وما بعدها .

الأطوار التاريخية
لكلمة الأدب

دلت النصوص التي ورثناها عن الجاهليين ، على ورود كلمة « الأدْب » الساكنة الدال ، بمعنى الدعوة إلى الطعام ، وكلمة « الآدِب » بمعنى الداعي إلى الطعام أو صانعه ، كما في قول طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى   لا ترى الآدب فينا ينتقر [1]

واشتقوا من هذا المعنى : أدُب يأدُب » ، بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها [2] .

وليس وراء قول طرفة بن العبد أقوال أخرى تشد أزر هذا المعنى الحسّي ، كذلك دلت نصوص الجاهليين على وجود كلمة « الأدب » المفتوحة الدال ، وكلمة « الأديب » - المؤدِّب - ، ودورانهما في فلك التهذيب ورياضة النفس - أي في المعنى الخلقي النفسي - ، كما في قول بلعاء بن قيس المذكور آنفا : « ... قضيت من الآداب آرابا » ، وفي القول المنسوب إلى الأعشى :

جروا على أدب مني بلا نزق   ولا إذا شمرت حرب بأغمار

وقول عتبة بن ربيعة لابنته هند عن أبي سفيان بن حرب حين

---

(١) الجفلى : الدعوة العامة . الآدب : الداعي إلى الطعام . ينتقر : يختص بدعوته قوما دون قوم .
والبيت من قصيدة طرفة التي مطلعها :
أصحوت اليوم أم شاقتك هرّ   ومن الحب جنون مستعر
لا يكن حبّك داء قاتلاً   ليس ذا منك ماويّ بحرّ

(٢) العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ص ٧ .

خطبها بعد الفاكه بن المغيرة ، زوجها الأول ، وكانت قد شرَطت على أبيها ألا يزوجها من أحد حتى يعرضه عليها ، ويصفه من غير أن يسميه لها . فجاء فيما حدثها به عن أبي سفيان : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » ، وكان مما ردّت به على أبيها قولها : « وسآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي » [١] .

ووردت في كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد العرب : « وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم » [٢] .

يعضد هذا التوجه الخلقي للكلمتين في الموروث الجاهلي جريانهما بهذا المدلول التهذيبي على ألسنة الشعراء المخضرمين ، فهذا سهم بن حنظلة الغنوي يقول [٣] :

لا يمنـع الناسُ منـي مـا أردتُ ولا أعطيهمُـو ما أرادوا حسْنَ ذا أدبـا

فتراه ينكر على نفسه أن يعطيه الناس ولا يعطيهم [٤] .

وذكر صاحب الحماسة فيما رواه لسالم بن وابصة الأسدي من قصيدته التي أول المختار منها :

أُحِبّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعُهُ كأن بـه عـن كل فاحشة وقْـرا

---

(١) الأمالي لأبي علي القالي ٢/ ١٠٤ .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ١/ ٩٩ .

(٣) الأصمعيات رقم ١٢ ، وخزانة الأدب للبغدادي ٤/ ١٢٤ .

(٤) وهذا هو الصواب ؛ لأن ما قبله بدل ، وذا فاعل حسن ، وأدبا تمييز ، وأراد حسَّن فخفف ونقل ؛ لأن هذا مذهب التعجب .

قوله :

إذا شئت أن تدعـي كريمـاً مكرّمـا   أديبا ظريفا عاقـلا ماجـدا حـرّا
إذا ما أتت مـن صاحـب لك زلّـةٌ   فكـن أنت محتـالا لزلّتـه عـذرا

وروى صاحب لسان العرب في مادة « أدب » لمزاحم العُقَيْليّ قوله من صفة الإبل :

وهـن يصرّفـن النـوى بين عالـج   ونجـرانَ تصريـف الأديب المـذلّل

وهي وإن كانت في قول ابن وابصة صفة للإنسان ، وفي قول العقيلي صفة للبعير ، فمعناها في كليهما لا يخرج عن التهذيب والرياضة [١] .

هذه النصوص وغيرها ، تدلنا على أن الكلمة استعملت وقتذاك في : تهذيب النفس ورياضتها على ما يستحسن من السيرة والخلق من جهة ، والتأثر بهذه الرياضة والانتفاع بها واكتساب الأخلاق الكريمة واصطناع السيرة الحميدة من جهة أخرى .

وما فتيء هذا المعنى التهذيبي الخلقي مقروناً بكلمة « الأدب » في صدر الإسلام ، ففي الحديث : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » [٢] ، وإن كان ورود الحديث في أصله يدل على معنى تعليمي ، فقد قال علي بن أبي طالب حين سمع النبي ﷺ يخاطب وفد بني نهد : « يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره » فقال :

---

(١) راجع : الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، د. محمد هاشم عطية ، الطبعة الثالثة ص ٥ .

(٢) الحديث مرويّ عن ابن مسعود ﷺ ، راجع : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١/ ٣ .

« أدبني ربي فأحسن تأديبي ، ورُبِّيت في بني سعد » ، وهذا المعنى التعليمي التربوي يبدو في قول الرسول ﷺ : « إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض ، فتعلموا من مأدبته » ، فقد شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليه ليحظوا بخيره ومنافعه ، وفيما يروى عن عمر بن الخطاب : « طفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار » .

ثم شاعت هذه الكلمة في عصر بني أمية ، واتجه مدلولها إلى الاتساع ، فقد دارت الكلمة في فلك المعنى الخلقي التهذيبي ، إلى جانب المعنى التعليمي الذي أفصح عنه العصر ، ينتظم المعنى الأول :

١ - تهذيب النفس وتربيتها وحملها على مكارم الأخلاق وبث الفضائل في أعماقها ، ولين الجانب ، ورقة الشمائل ، والحياة الملائمة لما تواضع الناس على أنه خير بوجه عام ، ومنه قول بعض الفزاريِّين من شعراء الحماسة :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقبه والسوأة اللقبا
كذاك أدبت حتى صار من خلقي ... أني وجدت ملاك الشيمة الأدبا[1]

وقول نابغة بني شيبان :

إن الغلام مطيع من يؤدِّبه ... ولا يطيعك ذو سن لتأديب

وقول أم ثواب من بني هزان في ابن لها عقّها :

أنشا يمزق أثوابي يؤدبني ... أبعد شيبي عندي يبتغي الأدبا ؟!

---

(١) الحماسة لأبي تمام ص ٥١٠ ، وكأن المراد على هذه الرواية : ولا ألقبه اللقب والسوأة بالتقديم والتأخير ، وملاك الأمر : قوامه الذي يقوم به أي نظامه وعماده .

وقول زياد في خطبته : « فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم ، وكهفكم الذي إليه تأوون » ، وما جاء في خطبة الحجاج : « سلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردّوا عليه شيئا ، هذا أدب ابن نهية [1] ، أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن » ، إلى غير هذه من النصوص ، التي هي من الكثرة والوفرة بحيث تؤكد استعمالها في هذا المعنى الخلقي في ظل الأمويين من جهة ، وتؤكد على أن هذا اللفظ كان مستعملاً قبل هذا العصر في هـذا المعنى وما يتصل به من جهة أخرى .

٢ ـ المعنى التعليمي : وهو محصور في لون تعليمي خاص ، هو التعليم بطريق الرواية ـ كما كان مألوفا أيام بني أمية ـ ، رواية الشعر والأخبار والأنساب وأحاديث الأولين ، وكل ما يتصل بهم ، وكل ما كان من شأنه تكوين الثقافة العربية ، وقد وجدت طائفة من المعلمين ، أطلق عليهم « المؤدبون » كانوا يعلمون أولاد الخلفـاء والأمـراء الأمويين ، أمثال : الجهني ، والشعبي ، وكانا يعلمان أولاد عبد الملك بن مروان ، وصالح بن كيسان مؤدب عمر بن عبد العزيز ، والجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد بن مروان ، فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العـرب وأنسابهم وأيامهم ، قـال عبـد الملك بن مـروان لمـؤدب ولـده : « أدبهم برواية شعر الأعشى » ، وكان مما ينصح بـه بنيه : « عليكم بالأدب ، فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا » ، وقال عبد الحميد الكاتب : « فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب » .

---

(١) ابن نهيه : رجل كان على الشرطة قبل الحجاج .

وأتاح هذا الاستعمال الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم التي كانت تطلق حينئذ على علوم الشريعة الإسلامية ، من فقه ، وتفسير ، وحديث ، وكان الناس آنذاك إذا قيل : « أدب فلان فلانا » يفهمون من العبارة هذين المعنيين : علمه الأدب ، أي هذا النوع من العلم القائم على رواية الشعر والنثر ، وما يتصل بهما من نسب وخبر وأمثال ومعارف تزيد العقل نورا ، والذوق صفاء ، والنفس ثقة وإشراقا ، وأخذه بالأدب ، أي هذا النوع من الحياة التهذيبية والتربية النفسية الخلقية .

وظل لفظ الأدب يطلق فيدل على هذين المعنيين طوال العصر الأموي .

ثم انتقلت الكلمة بمعنييها : التهذيبي والتعليمي إلى دولة بني العباس ، فقد سمي عبد الله بن المقفع رسالتيه باسم « الأدب الصغير » و« الأدب الكبير » ، لما يحملان من فضائل وحكم ونصائح ، تجعل من يروض نفسه عليها ، ويتخلق بها أديباً ، دمث الخلق ، حسن السيرة ، وأطلق أبو تمام على الباب الثالث من ديوان الحماسة ـ وقد جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ـ باب الأدب ، وهذا المعنى ينطبق على كثير من المؤلفات في هذا العصر ، ككتاب « الأدب » للبخاري في مؤلفه المعروف بـ « الجامع الصحيح » ، وكتاب « الأدب » لابن المعتز .

بيد أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن كلمة أدب استعملت بهذا المعنى التعليمي آنئذ فيما أنتجته قرائح المتكلمين بهذه اللغة من مأثور الشعر والنثر والحكمة والمثل ، ووضعت ـ في ذلك الوقت ـ كتب استطاع الناس أن يسموها كتب أدب ـ كما رأينا .

ثم نشأت العلوم اللسانية : من نحو وصرف وعروض وأصول وبلاغة وعلم لغة ، وهي علوم تتصل اتصالا وثيقا بحصائد الألسنة وثمار الأفكار ونتاج القرائح من شعر ونثر ، واستحدث هذا النوع من النثر الفني منذ انتشرت الكتابة ، وارتقى العقل العربي ، وعرف هذا النمط من النقد الفني ، فدخل كل هذا في معنى الأدب ، واندرج في مدلوله ، وأصبح الأدب يدل على ما يؤثر من الشعر والنثر ، وما يتصل بهما لتفسيرهما ، والدلالة على مواضع الجمال الفني فيهما .

وألفت كتب بهذا المعنى سموها كتب أدب ، مثل : « البيان والتبيين » للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، و« الشعر والشعراء » ، و« عيون الأخبار » لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، و« الكامل في اللغة والأدب » للمبرد (ت ٢٨٥هـ) ، و« طبقات الشعراء » لابن سلام الجمحي (ت ٣١٠هـ) ، و« العقد الفريد » لابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) ، وهي في جملتها عرض رائع لمأثور الشعر والنثر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية واهتمامات لغوية .

بيد أن الكلمة لم تقف في هذا الطور عند هذا الحد ، فقد اتسعت لتشمل كل المعارف غير الدينية ، التي أوجدها ما ترجم من العلوم ، وما نقل من المعارف ، والتي من شأنها أن ترقى بالإنسان من جانبيه : الاجتماعي والثقافي ، ولعل هذا التوسع في المدلول هو الذي حدا بابن منظور - فيما بعد - أن يعرف الأدب بأنه : « الظرف وحسن التناول » .

جاء على لسان الحسن بن سهل - الوزير العباسي - : « الآداب عشرة : فثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية [1] ، وثلاثة عربية ، وواحدة

---

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشهارجة ، وهم أشراف الفرس ، والأنوشرانية : نسبة =

أربت عليهن ، فأما الشهرجانية : فضرب العود ، ولعب الشطرنج ، ولعب الصوالج ، وأما الأنوشروانية : فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية : فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أربت عليهن : فمقطعات الحديث والسمر ، وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس » .

ومن ثم أصبح هـذا المعنى الواسع للأدب يشير إلى أنـه ـ أي الأدب ـ : الأخذ من كل فن بطرف .

بقي هذا المعنى العام للأدب وزاد اتساعا ، إذ لا نكاد نصل إلى ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) ، حتى وجدنا الكلمة تطلق على جميع المعارف : دينية وغير دينية ، فشملت جميع ألوان المعرفة وأفنان العلوم .

وغاية ذلك ألا يخفى على الناظر شيء من كلام العرب ، وأساليبهم ، ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه ، لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه واستيعابه ، فيحتاج إلى جميع ما يتوقف عليه فهمه واستيعابه .

ومنذ القرن الثالث للهجرة اتسعت كلمة الأدب ، وأضافت إلى رصيد مدلولها رصيدا جديدا ، فدلت ـ إلى جانب ما تدل عليه ـ على الطريقة أو النهج أو السنن التي ينبغي مراعاتها عند طبقة خاصة مـن الناس ، بمعنى أنها تتناول الأسلوب المستحسن في علم أو عمل ، من أخلاق قويمة ، وسيرة مرضية ، وقوانين يتبعها ويسير على نهجها كل صاحب مكان أو منصب أو حرفة ، وألفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل : « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، و« أدب النديم » لكشاجم ، و« أدب

== إلى كسرى أنو شروان ملك الفرس .
انظر : زهر الآداب للحصري جـ١ ص ١٤٠ .

القاضي » لأبي يوسف ، و« أدب القراء » لابن قتيبة ، و« آداب الصوفية » للنيسابوري ، وأخرى في أدب الوزير وأدب الحديث والطعام والمعاشرة والسفر إلى غير ذلك ، على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار ، وجاء القرن الرابع للهجرة ، وفيه كانت العلوم اللغوية قد استقلت تماماً عن الأدب ، بعد أن أخذت حظها من القوة ، وتأثر روادها بقانون العمل أو التخصص ، غير أن النقد ظل متصلاً بالأدب تابعاً له ، يشكل جزءا منه ، ثم نشط النقد نشاطا ملحوظاً ، ولكنه مع ذلك لم ينفصل ولم يصبح فنا قائما بذاته ، وأوضح الأمثلة لهذا النوع من الأدب الذي يغلب فيه النقد على الرواية : كتب أبي هلال العسكري كالصناعتين » ، وديوان المعاني ، فقد عرض أبو هلال للشعر والنثر محاولا أن يضع أيدينا على مواطن الجمال الفني فيهما ، وأن يضع لذلك شيئا يشبه الأصول والقواعد ، وعلى هذا النحو كان كتاب الآمدي « الموازنة بين الطائيين » - البحتري وأبي تمام - ، وكتاب الجرجاني « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وظهرت كتب كثيرة من هذا النحو ، وهمّ النقد أن يستقل بنفسه ويتميز عن غيره ، ولكن هذا الاستقلال لم يتم له إلا بعد مشقة ، وذلك في القرن الخامس للهجرة ، وبرز أثر هذا الاستقلال في كتابي : « دلائل الإعجاز » ، و« أسرار البلاغة » لعبد القاهر الجرجاني .

وعلى هذا أصبح الأدب يدل على الجيد من مأثور الكلام شعراً ونثراً ، وما يحتاج إليه من التفسير ، وتبيين ما فيه من مظاهر الحسن والرداءة ، وهذا المعنى هو الذي لا يزال يفهم من كلمة الأدب إذا استعملت في هذا العصر الحديث ، ومع ذلك فقد استعملت هذه الكلمة في معانٍ أوسع من هذا المعنى وأشمل ، حتى فهم منها أحياناً كل

ما من شأنه التثقيف والتهذيب ، وتكوين الرجل المستنير الممتاز ، وهو ما نفهمه الآن من لفظ المثقف .

وهذا الاختلاف في دلالة الكلمة في معانيها في العربية ، يلاحظ مثله في بعض اللغات الأوربية على وجهة ما ، فالكلمة عند الفرنسيين والإنجليز والألمان يفهم منها : الجيد من مأثور الكلام وما يتصل به ، ويفسره من الشرح والنقد والتأريخ ، كما يفهم منها في بعض الاستعمالات كل ما ينتجه العقل الإنساني من الآثار التي يصورها الكلام ، سواء أكانت أدباً أو علماً أم فلسفةً ، ومن هنا نستطيع أن نقول : إن لكلمة أدب معنيين مختلفين :

أحدهما : الأدب بمعناه الخاص وهو : الكلام الجيد الذي يحدث في نفس متلقيه لذةً فنيةً سواء أكان هذا الكلام شعراً أم نثراً .

والآخر : الأدب بمعناه العام ، وهو النتاج العقلي الذي يصورُ في الكلام ، ويكتب في الكتب .

وإذن فالقصيدة الرائعة والمقالة البارعة والخطبة المؤثرة والقصة الممتازة ، كل هذا أدب بمعناه الخاص ، لأنك تقرؤه أو تسمعه فتحس في نفسك لذةً فنيةً ، فهو يتصل بذوقك وحسك وشعورك ، ويمس ملكة تقدير الجمال في نفسك .

أما الكتاب في النحو أو في الجغرافيا أو في الطبيعة أو في الرياضيات فهو أدب بالمعنى العام ، لأنه كلام يصور ما أنتجه العقل الإنساني من أنواع المعرفة ، سواءٌ أحدث في نفسك لذةً فنية أم لم يحدثها .

الأدب
مفهومه وفائدته وأقسامه

إن كل ما أثار عاطفة ، أو أذكى شعورا ، أو ألهب حماسا ، وأريد به الجمال الفني في ذاته ، وانبعث عن مبدعه انبعاث الضوء عن الشمس والشذا عن الزهر ، وشفّ عن منحى من مناحي الحياة الإنسانية ، فهذا هو الأدب .

فقول متمّم بن نويرة في رثاء أخيه « مالك » :

لقد لامني عند القبور على البكا   رفيقي لتذراف الدموع السّوافك
أمن أجل قبر بالملا أنت نائح   على كل قبر أو على كل هالك ؟!
فقلت له : إن الأسى يبعث الأسى   فدعني فهذا كله قبر مالك !!

فعاطفته المتأججة جعلته يبكي أخاه عند كل قبر ، ويعلن عظم مُصابه الذي ملأ أطباق الأرض ، فكأن أخاه مدفون بكل مكان ، ولهذا قالوا : « وهذا أبلغ ما قيل في تعظيم الميت » [1] .

وقول المتنبي :

فما أمرّ برسم لا أسائله   ولا بذات خمار لا تريق دمي
تنفّست من وفاء غير منصدع   يوم الرحيل وشعب غير ملتئم
قبّلتها ودموعي مزج أدمعها   وقبّلتني على خوف فماً لفم
فذقتُ ماء حياة من مقبّلها   لو صاب تربا لأحيا سالف الأمم!!

فعاطفته الصادقة ، ورغبته المنهومة المستعرة ، في أمانيه الغالية

---

(١) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢/ ١٧٤ .

وأحلامه اللامعة ، التي تتراءى له من بعيد ، جعلته يصرخ بها تارة ، ويكني عنها بالغيد الحسان والخرد الغواني تارة أخرى .

وقول حافظ إبراهيم - شاعر النيل - :

وراع صاحب كسرى أن رأى عُمَرا
بين الرعية عُطْلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أنَّ لها
سورا من الجند والأحراس يحميها
رآه مستغرقاً في نومه فرأى
فيه الجلالةَ في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظلٍّ الدَّوح مشتملا
ببُرْدَة كادَ طول العهد يُبْليها[1]
فهان في عينه ما كان يُكْبِره
من الأكاسر والدنيا بأيديها
وقال قولة حق أصبحت مثلا
وأصبح الجيلُ بعد الجيل يرويها
أمِنْتَ لَمَّا أقمتَ العدلَ بينهمُ
فنِمْتَ نومَ قرير العين هانيها

هذه قصة تاريخية تتلخص في أن رسول كسرى جاء إلى المدينة يريد مقابلة عمر الخليفة ، فجعل يستهدى إلى قصره ، فقالوا له إنه لا يسكن قصر ، ودلوه على بيت حقير من بيوت العرب ، فرأى عمر

---

(١) الدوح : جمع دوحة - بفتح الدال - : الشجرة العظيمة . والبردة : كساء من الصوف الأسود . واشتمل بها : تلفف .

الخليفة راقدا على الرمل أمام البيت متخذا منه وسادة أسند إليها رأسه ، ولم يكن حوله من مظاهر الحياة ما يميزه من أصغر فرد في رعيته ، فلما رأى الرسول ذلك دهش ، ووقف أمامه خاشعا ، وقال عبارتـه المشهورة : « عدلت يا عمر ، وأمنت فنمت » .

فنظمها الشاعر ، وصبغها صبغة أدبية تثير الإعجاب ، وتبعث في النفس الإكبار ، وصوّر عمر في قوله : « رآه مستغرقاً » ، صورة تدل على مبلغ زهده وورعه ، وهو في هذا الزهد والورع جليل المنظر ، وافـر المهابة ، قد ملأت هيبته رسول كسرى أكثر مما كانت تتعاظمه الأكاسرة بفخامة مظهرها ، وعظم أبهتها ، وكثرة حراسها .

فالنماذج الشعرية الثـلاث أدب ، سـواء أكان رثـاء أم غـزا أم وصفا .

ورسالة عمر بن الخطاب ﷺ في القضاء التي يقول فيها :

« إن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس [١] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك [٢] ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ؛ إياك والغلق [٣] والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلّق للناس بما لا يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله » .

---

(١) آس : سوِّ .
(٢) الحيف : الظلم .
(٣) الغلق : سوء الخلق عند عدم الفهم ووضوح الأمر .

هذه الرسالة الناهضة على العقل المجرب والفهم الواعي ، والحكمة البليغة ، والمثل السائر ، والأسلوب المشرق المونق ، أدب موجه مؤثر يحرص النابهون على روايته ، والاستمتاع بروعته وأناقته .

وقول ابن المقفع :

« كان لي أخ أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظَّمه في عيني صغر الدنيا في عينه ، وكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد ، ... وكان لا يأشَرُ [١] عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجا من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم ، وكان خارجاً من سُلطان الجهالة ، فلا يتقدَّم أبداً إلاَّ على ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا قال بزَّ [٢] القائلين ، وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجدُّ فهو الليثُ عادياً [٣] .

وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يُدلي بحجة حتى يرى قاضيا فهماً ، وشهوداً عُدولاً ، وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عُذْرُه ، وكان لا يشكو وجَعَه إلا عند من يرجو منه البُرْءَ [٤] ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة ، ولا يتسخَّطُ ولا يتشكَّى ولا يتشَهَّى ، ولا ينتقم من العدو ، ولا يغفل عن الوَلَيّ ، ولا يخُصُّ نفسَه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيلته وقوَّته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطَقْتَها ، ولن تُطيق ، ولكنَّ أخذ القليل

---

(١) يأشر : يبطر ، والأشر ـ بفتح الهمزة والشين ـ : البطر .

(٢) بزه : غلبه .

(٣) عاديا : واثبا صائلا .

(٤) البرء : ـ بضم الباء وسكون الراء ـ : الشفاء .

خير من ترك الجميع » .

ترى في هذه القطعة لوناً آخر من ألوان الأدب ، وصف دقيق لصاحبه حتى كأنه يحلِّله في معمل ، مع إيجاز العبارة ، وجزالة اللفظ ، وإحكام النظم ، ثم انظر جمال المقابلة في قوله : « رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينه » ، وقوله : « كان أكثر دهره صامتاً فإذا قال بزَّ القائلين » ، ثم إنك لا ترى فيها لفظا نابيا مثلاً ، ولا كلمة زائدة عن المعنى ، فهو يزن كل لفظة ويؤلِّف بين المعاني في دقة وإحسان .

وهو بعد ذلك منظِّم التفكير ، يبْدأ بما يجب أن يُبْدأ به ، ثم يُثَنِّي بالمعني الذي يليه ، وهكذا ، وهو دقيق محترس ، لا يعمِّم في موضع التخصيص ، ولا يخصِّص في موضع التعميم ، انظر في ذلك إلى قوله : « وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ما عُذْرُه » .

فردِّد قراءتها تَرَ مصداق ما نقول .

فالأدب هو : مأثور الكلام الرائع ـ شعراً كان أم نثراً ـ ، المعبِّر عن معاني الحياة ، والكاشف عن صورها ، بأسلوب محكم رشيق ، فيثير في المتلقي الشعور ، ويوقظ العاطفة ، ويوحي إلى النفس المتعة الفنية ، وينفعل به الإنسان ويتجاوب معه ، ويعيش تجربة مبدعة بكل أبعادها .

وبالقدر الذي يسيطر به هذا الأدب على الناس ، ويؤثر في مشاعرهم وخواطرهم وأفكارهم ، تكون قوة الأدب أو ضعفه ، ويكون تقدمه أو تخلفه .

ومن ثم ندرك أن الأدب كغيره من العلوم لا يمكن أن يثمر إلا إذا اعتمد على غيره من علوم تعينه ، وثقافة عامة متينة تشد أزره ، فالنحو

ومعرفة القواعد ، والإلمام بأخبار العرب ، وأصول البلاغة ، وأوزان العروض ليست أدبا ، ولا يستطيع أصحابها أن يطلقوا على أنفسهم أدباء ، وإن كان لا بد للأديب في ثقافته العامة من معرفة هذه العلوم وغيرها من علوم النفس والجمال والتاريخ وما إليها ، ليكون آخذاً من كل فن بطرف ، وليتوفر على عدة البيان ، ويسلس له قياد الإفصاح ، ويتأتى له استلهام الحوادث ، واستيحاء العبر والمواقف ، وما علوم البيان والبلاغة والنحو والصرف واللغة والعروض إلا علوم تحوط الأدب بسياج فني متين .

والأدب على هذا ينهض على عدة عناصر ، هي له بمثابة الأركان ، وتتمثل في : العاطفة ، والفكرة ، والخيال ، والصورة أو الأسلوب ، وخذ مثالا قول المتنبي :

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسّرت النصال على النصال
وهان ، فما أبالي بالرزايا لأني ما انتفعت بأن أبالي

فالعاطفة هنا هي عاطفة السخط والتبرم بهذه الأرزاء التي ألحت عليه ، والخطوب التي اصطلحت عليه ، فلم تترك في نفسه موضعاً لنازلة جديدة ، انتهت به إلى الاستهانة بالأحداث .. ولعل هذه العاطفة الساخطة قد أثارت في نفوس المتلقين عاطفة مثلها ، أو أنها فجرت في نفوسهم عاطفة الإشفاق على الشاعر والرثاء له ؛ والشاعر حاول اصطناع لغة تسمو إلى مستوى نفسه الثائرة ، غير اللغة القاموسية المعروفة ، فلجأ إلى التصوير الذي يجسّم المعاني ، وينقلها إلى درجة أرقى لتزداد قوة وجمالا ، وهذه الوسيلة البيانية هي « الخيال » ، وباعث العاطفة وداعيها

هو العنصر العقلي البادي في إطار « الفكرة » ، لقد فاضت حياة الشاعر بالمصائب ، حتى صار الشقاء قانون حياته ، أما « الأسلوب » الذي سجل هذه المعاني وأداها ، فهو الأسلوب الموسيقي القائم على الوزن والقافية ، واختيار الكلمات الشاعرة والعبارات الجزلة ، والصياغة الجميلة ، فكان من ذلك كله هذه الصور اللفظية التي عادت كفاء ما تدل عليه من عاطفة وفكرة وخيال ، وتلازم حميم بين هذه العناصر مجتمعة [١] .

وكذلك يكون الأدب ، وتلك صفة أصحاب البيان ، وما أدق قول الصابي في الدلالة على ما نسعى إليه من تقرير للأدب الرفيع :

لك في المحافل منطق يشفي الجوى　　ويسوغ في أذن الأديب سُلافُه
فكأن لفظك لؤلؤ متنخّل　　وكأنما آذاننا أصدافُه !! [٢]

فالأدب يثير العاطفة من حزن وسرور ، وإعجاب وكُره ، وازدراء وشفقة ، ونحو ذلك .

والحقائق العلمية إذا ألم بها الأديب كان الغرض منها بَعْث الشعور لا سرد الحقائق ، فعالم النبات إذا تكلم عن شجرة الورد ، بيّن فصيلتها ، ووصف جذرها وأوراقها وأنواعها ، وتَتَبَّع حياتها من يوم أن كانت بذرة إلى يوم ذَوَائها وفنائها ، أما الأديب فيعني من شجرة الورد بجمال زهرتها ، وطيب أرجها ، وبهاء لونها ، وأثر ذلك في نفسه ، ويفرج من كل ذلك أدباً يثير عاطفة السامع ، ويبعثه على الإعجاب بها ، وبقدرة الأديب معاً .

---

(١) راجع للأستاذ أحمد الشايب : أصور النقد الأدبي ص٣٣ ، والأسلوب ص ٤٠ ، ٥٦ ، ٧٣ .

(٢) راجع جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمي ١/ ٢٠ .

والمؤرّخ إذا كان مؤرخا بحتا اكتفى بسرد الحقائق ، مستعينا بالوثائق ونحوها ، محققاً للوقائع وتاريخها ، ولكنه إذا كان أديباً أيضا التمس من التاريخ مجال العواطف منها ، وصاغها صياغة تبعث على الكره أو الإعجاب أو نحو ذلك من الانفعالات النفسية ، وبهذا ينقلها من التاريخ المَحْض إلى نوع من الأدب ، وهكذا .

والواقع أن المفهوم التقليدي للأدب عند العرب لم يتبلور قط في تحديد فلسفي لهذا اللفظ ، حتى إذا ابتدأت نهضتنا المعاصرة ، وأخذنا نحدد معنى الأدب وفنونه في مناهجنا الدراسية والثقافية ، استقر الرأي على تعريف سطحي ضيق يقول : « إن الأدب هو الشعر والنثر الفني - أي نثر الخطب والرسائل والمقامات والأمثال السائرة والمقالات والقصص - ثم الأخذ من كل شيء بطرف » .

وهذا تعريف لا يحدد للأدب أصولاً ولا أهدافاً ، اللهم إلاّ أن تكون الصنعة الإبداعية التي تظهر في الشعر ، ثم في النثر الفني ، بينما نرى الغربيين يعرفون الأدب في نفس المجالات بتعريف أوسع وأعمق ، فيقولون : « إن الأدب يشمل كافة الاثار اللغوية التي تثير فينا - بفضل خصائص صياغتها - انفعالات عاطفية أو إحساسات جمالية » .

وهم بذلك لا يميزون الأدب بالصناعة فحسب ، بل يميزونه بأثره النفسي في المتلقي أيضا ، وبهذا التمييز قد يخرج من الأدب التفكير العلمي الجاف ، والتفكير الفلسفي المجرد ، ولكنه لا يخرج الكثير من الكتابات الفلسفية والاجتماعية ، أو التاريخية المصوغة صياغة أدبية كمحاورات أفلاطون ، أو تاريخ مشليه التي تحمل من الإشارات والخصائص الجمالية ما يفرضها على كتب تاريخ الأدب ومناهجه ، ثم إن

الغربيين لم يكتفوا بمثل هذا التعريف ، بل راحوا يعرفون الأدب تعريفات فلسفية تحدد مصادره وأهدافه وأصوله ، وهي كثيراً ما تختلف باختلاف مذاهب الأدب المتباينة ، ووجهات النظر الفلسفية التي تصدر عنها ، ومن ذلك قولهم : « إن الأدب صياغة فنية لتجربة بشرية » .

فقد انتشر هذا التعريف بمدلوله العام عند دعاة التجديد وبخاصة في شعر العالم العربي الحديث ، فعنه يصدر المازني والعقاد عند نقدهما لشوقي وحافظ في كتاب « الديوان » ، كما نجد مدلوله الواضح في كتاب « الغُربال » لميخائيل نعيمة ، إلى جانب مقدمات الدواوين العديدة التي نشرها أحمد زكي أبو شادي ، والعقاد ، والمازني ، وعبد الرحمن شكري ، ومطران ، وغيرهم من شعرائنا المعاصرين .

والذي نلاحظه بوجه عام هو أن أدباءنا قد فسروا عبارة التجربة البشرية بأنها التجربة الشخصية التي يجب أن يصدر عنها الشاعر ، وإلاّ كان شعره كاذباً ، وبذلك أدخلوا على الأدب وبخاصة على الشعر مقاييس الصدق والكذب ، وفسروا الصدق بأنه ما كان صادراً عن تجربة شخصية ومعاناة حقيقية للأديب أو الشاعر ، وفسروا الكذب بالتصنيع المفتعل الذي لا يستند إلى تجربة .

والذي لا شك فيه أن معايير الصدق والكذب لا يمكن أن تصبح مرادفةً للتجربة الشخصية أو انعدامها ، ذلك أن الأدب لا يمكن أن يقتصر على التجارب الشخصية ، لأن الأديب ذا الخيال الخصب ، أو الملاحظة الدقيقة النافذة ، يستطيع أن يوجد بخياله تجارب بشرية قد تكون أعمق صدقاً وأكثر غنىً من واقع الحياة ، كما يستطيع من خلال ملاحظته أن يصوغ تجارب الغير يستمدها من محيطه الإنساني ، فمفهوم التجربة

البشرية عند الغربيين أبعد ما يكون عن أن يقتصر على التجربة الشخصية وإلاّ لوجب أن نجاري ذلك الوهم الخاطئ الذي يسيطر أحياناً على بعض الأدباء الناشئين ، فيدفعهم إلى الانحلال والعربدة والتسكع في الحياة بحجة اكتساب التجارب الشخصية ، وليس من المعقول أن نطالب الأدباء والشعراء بأن يعيشوا كل التجارب التي يصوغونها في قصصهم وأشعارهم ، وإلا لوجب أن نفترض أن أديبا كالجاحظ قد عاش حياة كل من كتب عنهم من وعاظ ونساك وبخلاء وغيرهم ، وأن أديبا كشكسبير أو بلزاك قد عاش كل منهما حياة كل أولئكم المجرمين الأفاقين والبخلاء المستهترين الذين صورا حياتهم في مسرحياتهما وقصصهما .

والواقع أن التجربة البشرية التي يتطلبها الأدب الإنساني الرفيع ، لا تقتصر على التجربة الشخصية للأديب ، وإنما تشمل :

١ ـ التجربة الشخصية وهي تلك التي تسوقها للأديب أو الشاعر أحداث الحياة ، على نحو ما نرى ابن زيدون في حنيه ، وعذابه بحبه المحروم ، و« موسيه » في محنته وآلامه في حبه العاثر ، فهذه ومثيلاتها تجارب بشرية شخصية صالحة لتغذية كل ملكة أدبية صادقة .

٢ ـ التجارب التاريخية ، وذلك لما هو معلوم من أن التاريخ معين لا ينضب من تجارب البشر أفراداً وأمما ، وباستطاعة الأديب أو الشاعر أن يتخير من التاريخ ما شاء من تجارب يحيلها أدبا ، بأن يخرجها من الخصوص إلى العموم ، على نحو ما فعل شوقي في عنترة ، ومجنون ليلى وكليوباترا وقمبيز وغيرها ، وشكسبير في هملت ومكبث ويوليوس قيصر ، فكلاهما أخرج هذه التجارب من الإطار التاريخي الخاص إلى المجال الإنساني العام ، ومثلهما كثيرون .

٣ ـ التجارب الأسطورية أي « الشعبية » لما هو معروف من أن الأساطير الشعبية تتركز فيها غالباً تجارب الإنسانية البدائية ، فتوفيق الحكيم مثلا اتخذ من أسطورة « بجماليون » رمزا لتجربة بشرية عاتية تقص مأساة الفنان المتأرجح بين جاذبية الحياة وطغيان النزعة الفنية .

٤ ـ التجربة الاجتماعية ، وهي تلك التي يستلهمها الأديبَ أو الشاعر من محيطه الاجتماعي أو الإنساني .

٥ ـ التجارب الخيالية ، وهذه التجارب التي تتصل اتصالاً وثيقاً بوظيفة الأدب ، وذلك أنه إذا كان الأديب يتخذ من تجاربه الفعلية في الحياة مادة لأدبه ، فهو كثيراً ما يتخذ الأدب مادة لتجارب خيالية ، فالتجارب التي لا تمكنه ظروف الحياة من أن يعيشها نراه يتخذ الأدب وسيلة لكي يعيشها بالخيال .

والأدب بعد هذا كله لا يمكن أن يخلو من شخصية الأديب ، ومن طابعه الخاص ، الذي تتميز به عبقريته .

وفائدة الأدب : أنه محك العقول ، يزيل صدأها ، وينفي خبثها ، وأنه المورد العذب للألسنة ، يبعد عنها الآسن والكدر ، وأنه حلية الطباع ، يليّن جوانبها ويرقق حواشيها ، فتصبح نقية شفافة .

كما أن القارئ للأدب ـ في تأمل وتذوق ـ ليتسرب إلى خاطره من المعاني ، وإلى خياله من التصوير ، ما يكون له عميق الأثر في نفسه ، وقد يكون ذلك شرارة يندلع بعدها أوار الأدب في صدره ، هذا إلى جانب ما يفيد من لفظة رفيعة أو عبارة أخاذة ، أو بيت نادر وحكمة قويمة ، فيكون ما أفاده وسيلة في تربية ذوقه ، وحفزا لموهبته وإعدادها لتنتج مثل النتاج الجيد الذي قرأ وتذوق ، واتخذه قدوة حسنة ومثلا يحتذى ، ثم لا يلبث

بعد المران وطول النظر أن يستقيم له الأدب بكل أبعاده ، فالدراسة تعدى على العلم ـ كما يقولون ـ .

والأدب كان ـ وما يزال ـ وسيلة الإفصاح والبلاغ ، وهو زاد المصلحين وعدتهم ، فما حمل الناس على أن يهدموا أركان البغي وبنيان الظلم ، ويصرعوا طبائع الاستبداد ، ويدحروا الشر وأصحابه أبلغ وأقوى من نفثات الألسنة وأسلات الأقلام .

ثم إن كمال اللسان واستقامته ، والقدرة على الحجة والبرهان ، وإصابة مواقع الإقناع ومواطن التأثير ، شيء لا بد منه للدعاة والمصلحين ، وهو ما يمثله الأدب .

والأدب إما إنشائي وإما وصفي ، فأنت تقول : أنشأتُ أدبا ، أي أحدثتُ أثراً فنياً جديداً لم يكن قبل أن تحدثه [1] ، وأخص ما يمتاز به هذا الأدب أنه يصوّر تصويراً مباشراً ، تأثُر نفسك بما يروعها أو يعجبها أو ما يؤثر فيها من أحداث ، فموضوع الأدب الإنشائي ـ إذن ـ هو الطبيعة ، سواء أكانت داخلية تجدها في نفسك ، كما يكون من تصوير العواطف والأهواء ، أم خارجية ، كما يكون من تصوير الظواهر الطبيعة من بحار وجبال ونجوم وغيرها ، وهذا الأدب الإنشائي ـ شعره ونثره ـ هو موضوع الأدب الوصفي ، لأنه لما كان الأدب في إنشائه [2] متفاوتا في الحظ من

---

(١) فالإنشاء في اللغة هو الشروع والإيجاد والوضع .

(٢) الأدب الإنشائي : هو هذه الآثار الفنية التي تصدر عن منتجيها ـ شعراء كانوا أم كتابا ـ نتيجة شعور وجداني ، والتي تمثل منحى من مناحي الحياة الإنسانية ، ولا يريد بها منتجوها إلا الجمال الفني لذاته ، فهو القصيدة التي يبدعها الشاعر ، والرسالة التي ينشئها الأديب ، بحكم الموهبة وسلطان التجربة ، والأديب في كلتا حالتيه : الحب أو البغض ، الفرح أو الحزن ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويستولي =

الجودة والرداءة وحرارة العاطفة وبرودتها ... إلخ ، فقد ظهرت مرحلة أخرى ، هي مرحلة التحليل والنقد والشرح والتعليل والتأريخ ، والتي تتمثل في الأدب الوصفي [1] ، وهو يتناول الأدب الإنشائي ـ القسم الأول ـ محللا تارة ، ومفسرا تارة ، ومؤرخا تارة أخرى .

وعلى هذا فالأدب قسمان : إنشائي ووصفي ، فالأدب الإنشائي ذوق وفن كله ، والأدب الوصفي مزاج من العلم والفن ، أو من البحث والذوق .

وجدير بالذكر أن أشير هنا إلى أن الأدب الإنشائي يتوزع بين الذاتية والموضوعية ، لأنه قد يكون أدبا يتغنى فيه الأديب بآماله وآلامه وأفراحه وأتراحه ، ويصور مشاعره وانفعالاته ، وقد يكون أدبا تمثيليا وآخر قصصيا ، يستعير فيهما الأديب ألسنة الآخرين ، ينطق بها ، ويعبر عن آرائهم ، وعما يجول في خواطرهم من ميول ، وما يكتنف نفوسهم من مشارب ونوازع ، وقد يختلف معهم في الرأي والمنزع .

ومن ثم نجد أن الأول ـ الغنائي ـ أدب ذاتي ، وأن الثاني والثالث ـ القصصي والتمثيلي ـ أدب موضوعي .

== على الأفئدة ، بلحنه الأخاذ ، ونغمه الشجي ، فهو ـ ولا شك ـ قطعة من نفس صاحبه .

(١) هذا الإطلاق أشمل وأجدى ، إذ أن الأدب الوصفي قد يكون نقدا ، وقد يكون تحليلاً وتفسيراً ، وقد يكون تاريخاً للأدب ، وتاريخ الأدب فن من فنون العلم ـ وإن تشبث بقدر من الذاتية الأدبية ـ يتعلق بعصور الأدب وخصائصه ، ويعني إلى جانب هذا بحياة الأدباء وتاريخهم وسيرهم ونتاجهم الفني ، والسمات المميزة بين خصائصهم الفنية ، فيبرز الصورة الصادقة للحياة الأدبية في أمة من الأمم ، ومدى ما وصلت إليه في حياتها العقلية ونهضاتها المختلفة ، ومن ثم تلوح الصلة بين الأدب وتاريخ الأدب .

المؤثرات العامة في حياة الأديب

الأدب على اختلاف فنونه مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية ، يخضع لما تخضع له هذه الحياة من المؤثرات المختلفة ، والتي نعرف بعضها ونجهل بعضها الآخر ، على أن منها طائفةً يحسُن أن نلم بها ، لأنها تعيننا على فهم الأدب وتذوقه ، وأهمها :

١ ـ الاستعداد الفطري الذي تصاغ عليه هذه الأمة أو تلك ، فهناك أمة قد جبلت على رقة القلب وصفاء الطبع وحضور البديهة ، فهي تتأثر بما يحيط بها من مظاهر الطبيعة ، وما يلمُّ بها من الأحداث ، وهي تصور تأثرها هذا في الشعر ، ثم في النثر ، وقد يكون حظها من الشعر أعظم ، وقد يكون حظها من النثر أعظم ، وقد يتاح لها التبريز في الفنين ، وهناك أمةٌ لم يتح لها من ذلك كله إلاّ أقله ، فهي قليلة الحظ من النتاج الأدبي ، بل ربما لم يكن لها منه حظ يذكر .

فالأمة العربية قد منحت من هذه المواهب حظاً عظيماً ، فكانت أمة شاعرة ، ثم أتيح لها الرقي ، وأخذت بحظها من الحضارة ، فظهر فيها النثر الفني .

٢ ـ الإقليم الذي يعيش فيه الشعب ، فصفات الإقليم تؤثر في الحياة ، وتؤثر بالتالي فيما تنتجه هذه الشعوب من الآثار الأدبية .

٣ ـ الحضارة التي تنقل الشعوب من طور إلى طور ، وتتيح لها من الترف والسهولة ، فتترك في حياتها أثراً ، وآثارها في الشعر والنثر والإنتاج العقلي بوجه عام واضحة بينة ، فالمعاني التي تخطر للمتحضرين غيرها عند غيرهم ، ومن ثم كانت الفروق بين شعر العرب عظيمة حين

كانت حضارتهم مزدهرة راقية ، وشعرهم بعد أن تغلب عليهم الترك والتتار .

٤ ـ انتشار العلم ، فإن له في حياة الأدب تأثيراً ظاهراً ، لأنه يبسط عليه سلطان العقل ، ويجعل مادته غزيرة ، وتفكيره عميقاً دقيقاً ، فيتغير تصور الأشياء والحكم عليها ، والتأثر بها ، ويتغير تبعاً لذلك تصويرها ، وينشأ عن هذا تفاوت في تفسير الأدب .

٥ ـ الدين الذي هو قوام حياة الشعوب ، وهو يؤثر في كل ما يصدر عنها من آثار .

٦ ـ الحياة السياسية التي تنتج تبعاً لأنظمتها ألواناً من الأدب .

٧ ـ الاتصال بين الشعوب المختلفة ، إذ يحمل ذلك الشعوبَ على أن يأخذ بعضها عن بعض ، فتنشأ فيها فنون من الأدب لم تكن معروفة ، وتتطور الفنون التي كانت معروفة من قبل ، وقد تضعف فنون كانت من قبل قوية ، فقد اتصلت الأمة اليونانية بمصر والشرق في العهود القديمة ، فنشأت فيها فنون وعلوم لم تكن معروفة .

* * *

العصور الأدبية

فراراً من اللغو في القول ، والعبث في الحكم ، وزع أكثر من أرخوا الآداب العربية تاريخها على عصور ، بغية الحكم والحكم الصادق عليها ، بما تحلت به من سمات وما عرفت به من خصائص ، وما تهيأ لها من مؤثرات ، إذ لا يصدق الحكم ولا يعدل حين يأخذ أدب أمة من الأمم تعاقبت عليه حقب وأزمنة دفعة واحدة .

كذلك لا يصدق الحكم ولا يعدل إذا ما أخذنا الأدب العربي في ضوء هذا التقسيم الذي يتجه إلى تقسيم تاريخ الأدب العربي إلى ثلاث حقب تدور في فلك .

الأدب القديم : ويمتد نحو ثلثمائة سنة ، من أقدم العصور الجاهلية إلى آخر العصر الأموي .

الأدب المحدث : وينتظم الحقبة الزمنية منذ قيام الدولة العباسية حتى مطلع القرن التاسع عشر للميلاد .

الأدب الحديث : منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى اليوم .

إذ أن هذا التقسيم غير مجد أو مفيد فائدة كاملة ، نظراً لطول الحقب الزمنية طولاً مفرطاً ، فلا يصل الناظر في الأدب من خلال هذا التقسيم إلى الثمرة المرجوة والحكم الصادق ، لتباين سماته وخصائصه الفنية والعوامل المؤثرة فيه .

ولهذا ضرب عنه أكثر المؤرخين صفحاً ، وعدلوا عنه إلى تقسيم يُعَدّ الأكثر إعتدالاً ، والأحظى بالتوفيق ، فقد قسموا هذا التاريخ إلى خمسة عصور أساسية توافق الأعصر السياسية وهي :

١ ـ العصر الجاهلي : أو عصر ما قبل الإسلام ، ويعد عصرا عربيا صريحاً لغة وأدبا وبلادا .

٢ ـ العصر الإسلامي : منذ ذلك الحدث التاريخي الخالد بخلود الدراري والباقي حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، الحدث الذي أزّ أعماق الإنسانية ، وهَزّ وجدان الحياة ، بمشرق النور الإسلامي ، منذ ظهور الإسلام إلى سقو الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م وهو عصر تكوين الدولة العربية والفتوح الإسلامية والغزو الأدبي .

ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر قسمين :

عصر صدر الإسلام : وينتهي بنهاية عصر الخلفاء الراشدين ﷺ ، والعصر الأموي : وينتظم أيام الدولة الأموية .

٣ ـ العصر العباسي : ويبدأ بقيام الدولة العباسية في سنة ١٣٢هـ ، ويستمر حتى سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م .

وبعض المؤرخين يقسم هذا العصر قسمين ، العصر العباسي الأول : وينتهي بمقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ ، والعصر العباسي الثاني : ويستقل ببقية العصر ، لتشابهها من جميع الوجوه [١] .

ومنهم من يقسمه ثلاثة أقسام : ينتهي الأول بمقتل المتوكل ، وينتهي الثاني سنة ٣٣٤هـ - ٩٤٥م وهي السنة التي استولى فيها بنو بويه على بغداد ، وأصبحت الخلافة العباسية منذ ذلك التاريخ اسمية أو شكلية

---

(١) وأنا أرجح هذا التقسيم لأنه راعى قوة الخلفاء الذين كانوا مصدر السياسة والسيادة ، ومصدر العلم والأدب في تلك الفترة التي انتهت بمقتل المتوكل ، وضعف الخلفاء بعد اغتياله ، منذ اعتلى عرش الحكم الأعاجم . ومن هنا أغفل رأي الذين يقفون بالعصر العباسي الأول عند سنة ٢٣٢هـ ولا ألتفت إليه .

فقط ، ويمتد العصر العباسي الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد سنة ٦٥٦هـ .

وقد يعمد بعض المؤرخين فيقسم هذا العصر الثالث قسمين : يمتد القسم الأول حتى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ - ١٠٥٥م ، ويمتد القسم الثاني أو العصر العباسي الرابع ـ حسب تقسيمهم هذا ـ إلى آخر العصر .

٤ ـ يبدأ العصر الرابع ـ عصر الدول المتتابعة ـ باستيلاء التتار على بغداد سنة ٦٥٦هـ ويمتد إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م .

٥ ـ العصر الحديث ـ أو عصر النهضة الحديثة ، ويمتد إلى أيامنا الحاضرة .

والذي لا شك فيه أن العصور التاريخية للأدب يتدخل بعضها في بعض ، فتظل طوابع عصر بادية على أعراض اللغة في أوائل العصر الذي يليه ، فليس في مقدور العصر السياسي والاجتماعي الجديد أن يقضي القضاء المبرم على سمات الأدب وخصائص اللغة في العصر الذي سبقه دفعة واحدة ، لأن الأدب ليس عرضا من عروض التجارة ، وليست اللغة كائنا من الجمادات يمكن أن يأتي الفناء عليها جملة .

والواقع أن تأثر الأدب واللغة بحوادث التاريخ والانقلابات السياسية يكون مرتهناً ومرتبطا بالزمن ، فالزمن وحده هو الكفيل بذلك التحول والانتقال ، فلا بد إذن من زمن تُراضُ فيه الآداب على الوضع الجديد والسمت المستحدث ، وتخلع عنها ثوبا رضيته وحلة ألفتها

وصيغة اعتادتها ووضعا عاشته ، وهكذا الإنسان حين ينتقل من بيئة درج فيها إلى بيئة أخرى .

وقد يقوى الأدب وينتعش وتزدهر اللغة وترقى في عصر تنحدر فيه الأحوال السياسية والاجتماعية وتتأخر ، لأن الأدب ما زال يعيش بما ادخره من القوة والرقي نتيجة لعصر سياسي قوي سبق ذلك الانحطاط ، والعكس صحيح ، فالحياة قد تأخذ حظها من القوة والتقدم والازدهار ، والأدب لا يزال يرسف في أغلاله وكبوله ، ويقعس في أثقاله وقيوده ، إلى أن تدركه وثبة الحياة ، فتمحو عنه غياهبه وتحطم قيوده ، وتزول سدوده وتبدد أغلاله .

وهذه النظرية الزمنية ليست الوحيدة في ميدان دراسة الأدب والتأريخ له ، فهناك نظريات كثيرة ، أهمها « النظرية الإقليمية » التي تراعي البيئات الجغرافية ، وكان الشيخ « أمين الخولي » هو المنظِّر لها في كتابه « في الأدب المصري » ، وواضح تأثر هذه النظرية بنظرية العالم الفرنسي « تين » ، وقد وجدنا أصولاً لهذه النظرية عند الأقدمين ، فقد كان منهم من وزّع الشعراء على أقاليمهم ، كالثعالبي في « يتيمة الدهر » والعماد الأصفهاني في « الخريدة » وابن بسام في « الذخيرة » ومن قبلهم ابن سلام في « طبقات فحول الشعراء » حيث قسم الشعراء إلى شعراء القرى ثم شعراء الحواضر ، وهناك نظريات جمالية « فنية » لن نتوقف عندها ، فيكفينا من القلادة ما أحاط بالعنق .

* * *

اللغة العربية

امتاز العرب بحضور البديهة ودقة الحس وسرعة الخاطر وسعة الخيال وصفاء الذهن وبعد النظر ، ولغتهم مرآة حية مجلوة تلألأت صفحتها بكل هذه السمات البارزة ، ولغتهم هي العربية ، وقد انحدرت من أصل سامي نسبة إلى سام بن نوح ، واتحدت لهجاتها في لهجة قريش ، ونزل بها القرآن الكريم ، وعرفت عند المستشرقين بإحدى اللغات السامية ، غير أنها أرقى هذه اللغات لكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها وغنى معجمها ، وقد رقّاها القرآن الكريم بما أضاف إليها من معانٍ وألفاظ ، ثم بسطت نفوذها على كل البلاد التي فتحها المسلمون في آسيا وإفريقيا وأوربا فأثرت في هذه البلاد وتأثرت بها .

ويقسم علماء الساميات اللغات السامية قسمين :

١ ـ لغات سامية شمالية .

٢ ـ لغات سامية جنوبية .

وتنقسم المجموعة الشمالية إلى قسمين :

أ ـ مجموعة شرقية تتركز في العراق ، وتتألف من اللغات البابلية والأشورية والكلدانية .

ب ـ مجموعة غربية تتركز في الشام وتتألف من اللغات الكنعانية والفينيقية والآرامية والعبرية والأوجاريتية والنبطية ولغات أخرى .

وأما المجموعة السامية الجنوبية : فتتألف من اللهجات العربية المختلفة ، ويراد بها عربية القرآن الكريم واللهجات الصفوية والثمودية واللحيانية ، وهي لهجات عربية شمالية وردت بها نصوص جاهلية ،

ومن اللهجات العربية الجنوبية التي عثر على نصوص مدونة بها يرجع تاريخها غالبا إلى ما قبل الميلاد ، وهي المعينية والسبئية والقتبانية والأوسانية والحضرمية والحميرية .

ويتضح أن لغة اليمنيين في الجنوب تغاير لغة العدنانيين في الشمال ، فلها حروف مختلفة ، ولها صيغ في التنوين وجمع المذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة الحجاز ، وكذلك في حروف الكلمات ، فهمزة أفعل في بعض الكلمات الحميرية هاء ؛ ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا .

ويرجع هذا الاختلاف بينهما إلى عوامل البيئات ، على أنهما وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى ، وقد أمكنت الفرصة للعدنانيين في القرن السادس الميلادي ، فأخذت لغة الجنوب تضعف أمام لغة الشمال حتى أضحت الشمالية هي العربية الباقية ، ولعل ما ورثناه من شعر جاهلي هو بهذه اللغة العدنانية ، لأن الشعراء الذين قالوه إما من ربيعة أو مضر ، وهما فرعان عدنانيان ، وإما من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطيئ وكِندة وتنوخ .

وقد ورث عدنان الذي ينتهي إليه عمود النسب العربي الصحيح لغته عن آبائه الذين كانوا قد أخذوها عن إسماعيل أبي العرب المستعربة ، وكان إسماعيل قد أخذ اللسان العربي من العرب العاربة ـ القحطانيين ـ حين هاجرت قبيلة جرهم الثانية إلى بلاد العرب ، ونزلت بمكة حيث كان مقر إسماعيل ، فأصهر إليهم وامتزج بهم ، ونشأ منهم ومنه جيل جديد هم العرب المستعربة ، وبهذا يفتخر حسان بن ثابت في قوله :

تعلمتم من منطق الشيخ يعـرب[١]
أبينـا فصرتـم معربـين ذوي نفـر
وكنتم قديما ما لكم غيـر عجمـة
كلام وكنتم كالبهائم في القفر[٢]

ثم كانت قريش في مكة ، وكانت مكة حاضرة العرب ، وبدهي أن يكون سكان الأمصار أقرب إلى منازع المدنية من غيرهم ، وألطف أذهانا وأرق حاشية ، ولهذا ولما جبلوا عليه من مواهب ، فقد أصلحوا لسانهم وهذبوا لغتهم بأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم في مواسم الحج ، والأسواق الأدبية ، حتى عذب اللسان القرشي ، ورقت وراقت حواشي لغة القريشيين ، وفوق هذا وقبله كانوا أهل بيت تعظمه العرب ، وتحج إليه ، وكانوا هم وحدهم أصحاب الولاية على هذا البيت ، والحكومة بين العرب ، إلى جانب غناهم وثروتهم التجارية ، كل هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى سيادة قريش على العرب قبل الإسلام ، وتبع هذه السيادة سيادة لغتهم في أسلوبها المهذب ، والتي تسربت إلى تلك القبائل اليمنية بعد أن ثار ملكهم ، ثم جاء الإسلام فقوى من هذه السيادة ، ودعم هذه الوحدة اللسانية ، حيث نزل بها القرآن الكريم .

وقد دخل اللغة العربية منذ الجاهلية كلمات أعجمية ، صقلها اللسان العربي فأصبح بعضها وكأنه عربي خالص ، ومن هذه الألفاظ : قرطاس - درهم - دينار - سجل - دمقس - استبرق - قصر .

ومن ثم ومما سبق نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية أخذت من

---

(١) هو يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان .
(٢) انظر : تاريخ الأدب العربي ، أحمد حسن الزيات ص ٥ وما بعدها .

لغات متعددة ، بيد أنها توحدت في الجاهلية .

مما يدل على وحدة لغة العرب منذ الجاهلية ، أننا رأينا شعراءهم ـ من أي المواطن ـ ينظمون قصائدهم بلغة واحدة في كل شيء ، ثم يحملونها لينشدوها في الأسواق الأدبية ، وفي جميع أقسام بلاد العرب وفي العراق والشام ، وفي اليمن نفسها .

وهذه الوحدة لم تمنع أن تكون هناك لهجات محلية مألوفة في قبيلة عن قبيلة .

واللغة الفنية التي اصطلح عليها الأدباء كانت فوق اللهجات ، وكانت في الوقع قريشية ، لسيادة لغة قريش ولفصاحتها الممتازة .

ولم تكن هذه اللغة حكراً على الأدباء ، وإنما كان العرب يتخاطبون بها فيما بينهم ، ذلك لأن العرب لم يكونوا جميعا أدباء ، وإنما كان منهم إلى جانب الأدباء والشعراء من يتذوق ويستمع ، فكيف يتأتى لهؤلاء المتذوقين الذين ينشد الشعر على مسامعهم أن يفهموا الشعر إلا إذا كانوا على دراية وعلم بلغته ؟

واللغة العربية اكتسبت اسمها من الإعراب أو العروبة أو العروبية ، أي الفصاحة والوضوح والبيان ، ومن هنا سَمَّى العرب أنفسَهم عربا ، وسموا سائر الأمم عجما .

ولغتنا العربية سمحة ندية يستريح إليها السامع استراحته إلى المنظوم والكلام الموزون ، وتتلاقى فيها التعبيرات حقيقها ومجازها ، وتشيع بين حروفها موسيقى غنية ذات إيحاء ووقْع ، وما أجمل قول

الأستاذ عباس العقاد عنها [1] : إنها لغة شاعرة ، ولا يكفي أن يقال عنها إنها لغة شعر أو لغة شعرية ، وجملة الفرق بين الوصفين : أن اللغة الشاعرة تصنع مادة الشعر وتماثله في قوامه وبنيانه ، إذ كان قوامها الوزن والقافية .

وليس في اللغة التي نعرفها أو نعرف شيئا كافيا عن أدبها لغة واحدة توصف بأنها لغة شاعرة غير لغة الضاد أو لغة الأعراب أو اللغة العربية ، فهي لغة بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية ، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه .

واللغة العربية أسبق وأقدم اللغات الحية ، فليس ثمت في العالم لغة محكية أقدم منها .

ولقد شرفت أيما شرف بنزول القرآن الكريم بها .

وإن اللغة العربية لم تدع معنى من المعاني التي تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينهما إلا استوعبت أسماءه ورتبت أجزاءه ، وهذا ـ لعمري ـ يدل دلالة قاطعة على التمدن اللغوي .

* * *

---

(١) انظر : اللغة الشاعرة ص ٨ وما بعدها .

موطن العرب وأشهر قبائلهم

يُطلق العربُ على بلادهم « جزيرة العـرب » [1] ، وهي واقعـة إلى طرف الجنوب الغربي من آسيا ، يقسمها جبلُ السَّراة الممتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام قسمين : غربيا وشرقيا ، فالغربي يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطئ البحـر الأحمـر ، فيُسمى « الغور » لانخفاضـه ، أو « تهامة » لحرّه ، والشرقي يصعد إلى أطراف العراق وبادية السماوة فيسمى « نجدا » لارتفاعه ، وما فصل بين الغور ونجد يسمّى « الحجاز » لحجزه بينهما ، أما ما ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي من بلاد اليمامة : البحرين وعُمان وغيرهما فيسمى بالعَرُوض ، لاعتراضه بين اليمن ونجد ؛ وما يمتـد وراء الحجـاز إلـى الجنوب يسمـى « اليمن » لوقوعه على يمين الكعبة المشرّفة ، أو ليُمنه [2] .

وهذه الأقسام الخمسة يختلف بعضها عن بعض في طبيعة الأرض والمناخ وحالة السكان ، ففي الحجاز مثلا يغلب الجدب والإمحال وقلة المطر ، بينما تطيب أرض نجْد ، ويجود هواؤها ، ويجمل منظرها ؛ وتخصب أراضي اليمن لكثرة الأمطار والوديان وجودة الأرض ، حتى سميت بحق « بلاد العرب السعيدة » ، وجاء وصفها في القرآن الكريم : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربّ غفور ﴾ [3] ، وقد أكثر الشعراء

---

(١) وهي في الواقع شبه جزيرة ، إذ يحدّها من الشرق الخليج العربي وبحر عُمان ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الغرب بحر « القُلزُم » البحر الأحمر ، أما من الشمال فالشام والعراق .. فتسميتهم أيّاها جزيرة من باب التجوّز ، وهي أكبر شبه جزيرة في العالم ، تقدّر مساحتها بثلاثة ملايين كيلو متر مربع .

(٢) راجع : تاريخ الأدب العربي للأستاذ الزيات ص ٦ .

(٣) سورة سبأ : الآية ١٥ .

القول في نوعين متباينين من الرياح : ريح الصَّبا وريح السَّموم ، فالصّبا : ريح شرقية معتدلة طيبة ، تغنّى الشعراء باعتدالها ورقة نسيمها ، واشتقوا منها فقالوا : صبَت الريح تصبو صُبُوّ ، وقال ابن الدمينة العامري التميمي في الحنين إلى نجد :

ألا يا صبا نجـد متى هجت مـن نجد
لقد زادني مسراك وجدا على وجد

والسّموم : ريح حارة ، واشتقوا منها كذلك فقالوا : يوم سامٌّ ومسموم .

وقد توزّع الشّعبان العربيان : قحطان وعدنان في شبه جزيرة العرب ، فأما القحطانيون ـ كهلان وحمير ـ فسكنوا اليمن ، وكانت لهم عمارة وحضارة ، حتى دبّ إليهم داء الأمم ، ونبتْ بهم المرابع اليمنية ، مُزّقوا في الأرض كل ممزق [1] ، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز ، فغلب اليهود على يثرب ، وكان من أعقابه الأوس والخزرج ، ودخل حارثة بن عمرو ـ وهو خزاعة ـ مكة ، ومال عمران بن عمرو نحو عُمان ، فبنوه أزد عمان ، واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة ، وهم أزد شنوءة ، ووقف زواد جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه ، فكان منهم الغساسنة ، ونزل اللخميون بالحيرة ، ومنهم نصر بن ربيعة أبو المناذرة ؛ وأما العدنانيون ـ ربيعة ومُضَر ـ فسكنوا الحجاز وتهامة ونجدا إلى ريف العراق ، فأقامت بطون قريش في مكة وضواحيها ، وهوازن شرقي مكة ، وسكنت ثقيف الطائف ، وبطون كنانة في تهامة ، واحتلت ذبيان ما بين تيماء وحوران ، ونزل بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ،

---

(١) ضرب المثل بتفرقهم فقيل : تفرقوا أيدي سبأ .

وبنو تميم بادية البصرة ، واستوطنت قبائل تغلب جزيرة الفرات ، وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من اليمامة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق فالأُبلّة ، فهيت ... .

على أن أشهر بطون كهلان : هَمْدان وطيئ ومذحج وكندة ولخم وجذام والأزد ، وأشهر بطون حمير : زيد الجمهور وقُضاعة وجهينة وعذرة ؛ وأشهر القبائل العدنانية : ربيعة ومضر وأنمار وإياد ، فمن ربيعة عبد القيس ، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل ، ومن مضر قيس عيلان ، وأشهر بطونها هوازن وغطفان ، ومن غطفان عبْس وذبيان ابنا بغيض ، ومن بطون إلياس بن مضر تميم بن مر ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة ، وبطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة قريش ، ومن قريش جُمَح وسهم ومخزوم وعبد الدار وعبد مناف ، ومن عبد مناف عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم ، ومن هاشم عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وإلى هذه الطبقة من العرب الأقحاح يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة ، وما نتجمل به من بيان ، وما ندرسه من أدب .

على أنه مما ينبغي التذكير به أن ثمت فرقا بين العرب والأعراب ، وأن من يخلط بينهما مخطئ ، إذ لا ترادف بينهما ، يقول الجوهري : « العرب جيل من الناس ، وهم أهل الأمصار ، والنسبة إلى العرب عربي ، وإلى الأعراب أعرابي » [1] ، فالإجماع يكاد ينعقد على أن العرب هم سكان الحاضرة والأعراب هم سكان البادية ، يذكر

---

(١) الصحاح مادة « عرب » ، وكذلك القاموس المحيط للفيروزابادي .

الآلوسي [١] أن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في كتاب « الاقتضاء » يقول : « إن لفظ الأعراب هو في الأصل اسم لبادية العرب ، فإن كل أمة لها حاضرة وبادية ، فبادية العرب الأعراب ، وقد يقال : إن بادية الروم الأرمن ، وبادية الفرس الأكراد ، وبادية الترك التتر ونحوه » ، ويذكر أيضا قول أهل التفسير بأن العرب سكان المدن والقرى ، والأعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم ، ويوضح هذا أو يحدده ما جاء في التنزيل قوله تعالى : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ﴾ [٢] وفي قوله تعالى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ [٣] ، فبدوية الأعراب واضحة بأنهم « حولكم » ومقابلتها بـ « أهل المدينة » تعين ذلك .

إن العقلية البدوية لا يمكن أن تستوعب الدين الجديد بسهولة ، لطبيعة الحياة القاسية التي يحياها الأعراب ، ولذلك وقفوا منه موقف المستخفّ ، فكثر المرتدون بينهم والناكثون بالعهود ، والقرآن يحكم فيهم بقوله : ﴿ الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧) ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السَّوْء والله سميع عليم ﴾ [٤] ، لقد وقف هؤلاء الأعراب من الدين الإسلامي بالذهنية المتعصبة المغلقة ، وكانوا - إلا قليلا منهم - يعدّون الرسول رجلا أوتي السلطان على

---

(١) بلوغ الأرب ١/ ١٢ .
(٢) سورة التوبة : الآية ٩٠ .
(٣) سورة التوبة : الآية ١٠١ .
(٤) سورة التوبة : الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

العرب ، فيطيعونه على أنه زعيم مقتدر لا نبي مرسل .. ولعله من هنا كان تقوّل المتعصبين ـ من مستشرقين وغيرهم ـ حتى ينسحب مفهوم الأعراب على كل العرب ، دونما التفات إلى سكان الأمصار والقرى ، وأهل الدعوة والحضارة ، وحملة العلم والعمران من العرب .

وقد كان العرب المسلمون ينظرون إلى الأعراب المتبدّين نظرة حذر وارتياب ، وكانوا لا يرتضون لأعرابي تحضّر أن يتبدّى .

وليس كل الذين سكنوا البادية أعرابا ، قست قلوبهم وغلظت أكبادهم ، ولا ريب فالتمازج حاصل بين سكان الحواضر وسكان البوادي ، وكثيرا ما تحيا القبيلة الواحدة حياتين : يستقر بعضها المقرر فيتحضّر ، ويسكن بعضها ظواهر القرى فيكون في أهل الوبر متبديًا [1] .

ولقد كان العرب في جزيرتهم محكومين بالنظام القبليّ ، ولم يكن لقبائلهم نظام موحّد يسودهم ، فكل قبيلة وحدة اجتماعية وسياسية مستقلة ، ورابطة القبيلة هي رابطة النسب والدم ، فأبناء القبيلة يشتركون في الأصل الواحد والموطن الواحد ، ورباط القبيلة الأقوى هو العصبية والحمية ، ومن هذه الفكرة التضامنيّة يقولون : « في الجريرة تشترك العشيرة » ، ويقول شاعرهم دريد بن الصّمة :

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويْت ، وإن ترشد غزية أرشُد

وللقبيلة شيخ يتزعمها هو سيدها ، ولهذا يقولون : « رأس العشيرة يحمل أثقالها » ، ولا بد أن تتوافر فيه الصفات التي تؤهله للقيادة والزعامة ، وفي ذلك يقول عامر بن الطفيل :

---

(١) راجع : الشعر الجاهلي ، د. يحيى الجبوري ص ٣٠ وما بعدها .

فما سوّدتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها، وأرمي من رماها بمنكب[1]

وللقبيلة شعراؤها الذين يتغنّون بمحامدها ، ويشيدون بمناقبها ، ويردون عنها غارات شعراء القبائل الأخرى ، ولها فرسانها الذين يذودون عن حياضها وحماها ، ويغيرون على غيرها ، حيث كانت القبيلة مغيرة أو مغارا عليها ، ولهذا كانت هناك أحلاف بين بعض القبائل ، وكانت للعرب ثلاث إمارات منظمة عليها ملوك متوّجون : إمارة المناذرة في الحيرة ، والغساسنة في الشام ، وكندة في شمالي نجد عند دومة الجندل ، والتي كان امرؤ القيس الشاعر آخر ملوكها ، وقد كان حظ الإمارتين الأُوليَيْن عظيما ، من الترف والرخاء ، والحضارة وقوة السلطان .

* * *

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٩٢ .

الجاهلية وأولية الشعر

إن كلمة الجاهلية لا تضع أيدينا على الجهل الذي هو نقيض العلم وضد المعرفة ، فالجاهليون كانت لهم معارفهم ، وإنما يتجه مدلولها إلى الجهل بمعنى الطيش والسفه والنزق المؤدي إلى الهمجية والضلالة ، والثورة لأتفه الأسباب وتأريث العداوات والتمدح بالظلم ، فكلمة الجاهلية بهذا المعنى الصحيح لها تقابل كلمة الإسلام ، التي تدل على الخضوع والطاعة لله عز وجل ، وما يطوي فيها من سلوك خلقي كريم ، يؤكد هذا قول الشنفرَى في لامية العرب :

ولا تزدهي الأجهالُ حلمي ولا أرى
سؤولا بأعقاب الأقاويل أنملُ

وقول عمرو بن كلثوم في معلقته :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنَجهلَ فوق جهل الجاهلينا
بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا

ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث الشريف بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب ، ففي سورة البقرة : ﴿ قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ ، وفي سورة الأعراف : ﴿ خذ العفو وأمُرْ بالعُرف وأعرضْ عن الجاهلين ﴾ ، وفي سورة الفرقان - في وصف عباد الرحمن - : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ ، وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال لأبي ذَرّ وقد عيَّر رجلا بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهليه » [1] .

---

(١) راجع : العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ص ٣٩ .

وإذا أطلقت كلمة الجاهلية في الحقل الأدبي كان المقصود بها الجاهلية الثانية ، تلك التي وصلنا عنها هذا التراث الخالد ما بقي الدهر ، والتي سبقت الإسلام بنحو قرنين من الزمان على الأكثر ، وقد لاحظ الجاحظ ذلك وبينه بوضوح قائلا : « أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه المهلهل بن ربيعة ، وامرؤ القيس بن حُجْر ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام »[1] .

وملاحظة الجاحظ هذه جديرة بالقبول ، فهي جد دقيقة ، إذ أن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول مطمور ، وما وراء ذلك ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف في كتابه : العصر الجاهلي ـ يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذي ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية .

ولا شك أننا لكي نحدد عصرا أدبيا يجب أن نقف على الخصائص الفنية السائدة بصفة عامة في زمن معين ، وبيئة يساعد مناخها على أن تسود هذه الخصائص وتحيا بين ربوعها ، فالجاحظ يحدد الفترة الزمنية بأنها تبدأ مع ظهور المهلهل وامرئ القيس ، وتنتهي بظهور الإسلام ، وكأنه لا يستطيع أن يمد بداية العصر قبل ذلك ، لأن الشعر وهو الفن الباقي حديث الميلاد صغير السن ، أو بلغة أخرى : لا يجد قبل هذين الشاعرين من المادة الفنية ما يساعده على تحديد البداية ، فالجاحظ يُعيّن عمْرا للشعر الذي عُرف وهو ناضج مكتمل ، أما ما قبل ذلك ، فهناك

---

(١) الحيوان ١/ ٧٤ .

مئات من السنين مرّ بها الشعر حتى وصل مكتملا إلى المهلهل وامرئ القيس ، إذ لا يتصور أن هذا الفن الكلامي الرائع من عمل فرد أو بضعة أفراد ، بل كان عمل الموهوبين في أجيال متعاقبة ، فالعرب أمة شاعرة تهدر بالشعر طبائعهم .

وابن سلام يؤكد على : أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته ، وإنما قصدت القصائد وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وكان أول من قصد القصائد وذكر الوقائع : المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل ، حين قتلته بنو شيبان [١] - أي في حرب البسوس [٢] - .

ولا عجب أن تنطوي البدايات الأولى للشعر الجاهلي في تضاعيف ذاكرة الجاهلية الأولى .

وواضح أنه لم يكن لدى العلماء والنقاد ما يساعد على الوصول إلى الصورة التي كانت عليها أشعار العرب في جاهليتهم الأولى لا الثانية .

ومحاولات الباحثين لتحديد أولية الشعر إنما تقوم على الحدس والتخمين ، ولم تعضدها الصبغة العلمية الحقة ، فالشعر قديم في حياة المجتمع البشري ، نطق به الإنسان وهو لا يزال في عهد الفطرة ، والحياة

---

(١) طبقات فحول الشعراء ، ليدن ص ١٢ .

(٢) ضرب العرب المثل بكليب في المنعة والعزة فقالوا : أعز من كليب وائل ، وضربوا المثل بشؤم المرأة التي أثارت ثائرة هذه الحرب ، فقالوا : أشأم من البسوس ، ومن شعر مهلهل في كليب :

نبئت أن النار بعدك أوقدت ... واستبّ بعدك يا كليب المجلس

وتناولوا من أمر كل عظيمة ... لو كنت حاضراً أمرهم لم ينبُوا

بعدُ لم تتعقد مظاهرها ، ولم يأخذ المنطق سبيله إلى العقول والأفهام ، تغنى به في حضن الطبيعة التي كانت منه بمثابة الأستاذ التاريخي ، وقد اهتدى إليه بفضل حيلته وقوة حاجته في وهج الفطرة الشاعرة التي كانت تختمر في صدره ، ولا ريب .. فمسحة من الشذاجة بادية في الأشعار التي ولدت في صدر هذه الجاهلية التي أفادت علينا بتراثها الخالد ، كالاضطراب في أوزان بعض القصائد ، مثلما عليه ميميّة المرقّش الأكبر ، التي مطلعها :

هل بالديار أن تجيب صمم　　لو كان رسما ناطقا كلم

فهي من بحر السريع ، وقد خرجت بعض شطورها على هذا الوزن ، كالشطر الثاني من هذا البيت :

ما ذنبنا في أن غزا ملك　　من آل حفنة حازم مرغم ؟

فقد خرج إلى وزن بحر الكامل .. وكذلك « الإقواء » الذي نبّه إليه النقاد في قوافي بعض قصائد الفحول ، كلاميّة امرئ القيس المكسورة الروي ، إلا قوله فيها :

كأن أبانا في أفانين ودقة　　كبير أناس في بجاد مزملُ

فإن رويّه مرفوع .. ومثله ما أخذه أهل المدينة على النابغة في داليّته .

إن النصوص الجاهلية التي بين أيدينا تثبت أن عهد نمو وتطور قد سبقها ، وذلك لأن هذه الأشعار تحمل بين ثناياها أسباب النضج والكمال ، وهذا مخالف لطبيعة الأشياء ، إذ أن أي شيء لم يوجد كاملاً ناضجا ، فلا بد أن يكون الشعر قد خطا خطوات تلو خطوات ، حتى

لبس ثوبه الفضفاض ، وعرف صورته الكاملة الناضجة في جاهليته الثانية ، فهو - كما يقولون - « قد تدرج من السجع إلى الرجز ، ثم إلى المقطعات والقصيد ، ثم إلى هذه الضروب من الأوزان والقوافي قبل هذا العهد بزمن طويل » [1] .

والمطلع على أشعار المجودين في الجاهلية ، كامرئ القيس وزهير وأضرابهما تتقرر لديه هذه الحقيقة ، فهم يشكون ويتبرمون من أن أسلافهم الذين عالجوا الشعر قد أتوا على أكثر المعاني وألموا بكثير من نواحي القريض ، كقول امرئ القيس :

عوجا على الطلل المُحيل لعلنا نبكي الديار كما بكي ابن خزام[2]

وكقول عنترة العبسي :

هل غادر الشعراء من متردَّم[3] أم هل عرفت الدار بعد توهم

وقول زهير بن أبي سُلمى :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

فكأن الشعر قد وصلهم فنا مستوفيا كاملا ناضجا ، بعد أن عالجه أسلافهم زمنا طويلاً طُوِيَت أخباره .

---

(١) انظر : الأدب العربي وتاريخه ، د. محمد هاشم عطية ص ٩٤ ط. الثالثة .

(٢) ابن خزام : طائي قديم لا يعرف عنه شيء في غير هذا البيت ، ولم نسمع شعره الذي بكى فيه الديار بل ولا غيره .

(٣) المتردم : الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهى ، والاستفهام يتضمن معنى الإنكار ، أي : لن يترك الشعراء شيئا يصاغ فيه شعر إلا وقد صاغوه فيه ، بمعنى : أن الأول لم يترك للآخر شيئا .

ويؤيدنا في هذا أيضا رواية ابن رشيق مرفوعة إلى الحطيئة ـ الشاعر المخضرم ـ : أنه سئل عن أشعر الناس ؟ فقال : أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعد الإقتار عدما ولكن   فقد من قد رزئته الإعدام

يعلق ابن رشيق على هذا الخبر بقوله : « وهو ـ أبو دؤاد ـ وإن كان فحلا قديما ، وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ، ويروي شعره ، لم يقل فيه أحد من النقاد مقالة الحطيئة » .

وإنه لمن غير المعقول أن تظل الطبائع كليلة غافية حتى زمن هاشم أو عبد المطلب ، ثم تتفتح تفتحا فجائيا عن هذه الشاعرية البارعة والأخيلة الرائعة والأشعار الذائعة !! .

إن الذي يطمئن إليه ضمير الباحث هو أن الشعر الذي انتهى إلينا كان قد صار فنا رفيعا قبل زمن هؤلاء المجوّدين ، بدليل إطلاقهم على عديد من شعراء البراعة والتفوق ألقابا تؤكد خاصية التفوق عند كل منهم ، ومنها : المهلهل والمحبِّر والمرقش والنابغة والفحل والكيِّس ، وكذلك على العديد من القصائد كاليتيمات والسموط والمجمهرات والمقلدات والحوليات والمحكمات .

كل هذا يثبت أن مرحلة جادة وهامة سبقت مرحلة النضج الشعري ، وأن شعراء فحولا قد سبقوا امرأ القيس والمهلهل إلى ميدان الشعر ، وأنهم قد مهدوا لهما الطريق ، وأنهم قد عانوا كثيرا من الصعاب والعثار .

فالقصيدة العربية ـ ومثلها قصائد الأمم الأخرى ـ لم تظهر على صفحة التاريخ بسماتها ومميزاتها دفعة واحدة ، وإنما كانت كذلك نتيجة

تجارب مريرة وتهد طويل وتطور هائل ، حتى ارتقت إلى صورتها الثابتة التي اتخذتها في النهاية ، وهذه الأطوار الأولى في تاريخ الشعر ترجع - بلا ريب - إلى عهد جدّ قديم ، يصعب أن نتبين دقائقها ومسارها ؛ وإذا كان الشعر الجاهلي نفسه قد ضاع معظمه ، فكيف يكون الأمر في الأشعار التي سبقته ؟ .

إن التدرج بالأشياء يثبت أن مرحلة كانت بين المحو والإثبات والاعوجاج والاستقامة سبقت هذه المرحلة المتميزة بذلك الشعر الراقي ، الحسن السمت ، والهيئة ، الكامل النضج ، إلا أنها غابت عنا ، ووارتها عن عيوننا رمال الصحراء ، وستظل هكذا حتى يقيض الله لها علماء يسألون هذه الرمال اليقين ، فإذا ما أنبأتهم الخبر انقشعت عن الأفق غياهبه وانحسرت عنه ظلمته ، ومحا نورُ اليقين وَهْمَ القرض والتخمين .

وقد راحت القبائل العربية تتنازع أولة الشعر ، فادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، ادعت اليمانية أن امرأ القيس أول من أطال القصائد ، وقال بنو أسد : بل عبيد بن الأبدص ، ونسب التغلبيون الأولية إلى مهلهل ، وعزاها البكريون لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ، وادعاها الإياديون لأبي دؤاد ، وزعم آخرون أن لواء الأولية معقود للأفوه الأودي (1) .

وخلاصة القول : أن الشعر الذي هو علم على فن مستقل قائم بذاته قد تطورت بنيته ، أوزانا وقوافي وتصويرا وصيغا شعرية خاصة ، ومحسنات لفظية ، وتطورت موضوعاته وتنوعت ، فتناولت يد الشعر فيها كل ما اتسع له الأفق الشعري ، وألم به الخيال اللماح .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ص ١٧٤ وما بعدها .

ديوان العرب مرآة الحياة الجاهلية

مفترياتٌ على ديوان العرب :

قصدت إظهار هذا التحضر المبكر عند العرب الأقدمين ، الذين عكف على دراسة أدبهم ولغتهم مستشرقو العالم الغربي من أمثال : بروكلمن ونللينو وهيوار وجردنباوم ومرجليوث وغيرهم ، وسواء عليهم أنصفوه أم حنقوا عليه !! فالشيء من معدنه لا يستغرب ، فلهؤلاء أن يقولوا ما يروقهم ويحلو لهم ، لكن الطعنة إذا سددت إلى أدبنا من بني جلدتنا فإنها تكون أنكى وأشد ، وما أصدق طرفة في قوله :

وظلم ذي القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند[1]

وما كان للناس عجبا أن يتفوق العرب على سائر الأمم في الشعر ، لما اشتملت عليه نفوسهم من صفاء ، وعواطفهم من قوة ، ولما تأثروا به من طول تأمل ، وما كان يدفعهم إلى الذود عن النفس والعرض والديار ، ولولا عوادي الضياع التي عدت على كثير من هذا التراث الأدبي ، لوصلنا منه الفيض المدرار .

لكن إن تعجب فعجب قول أحد الباحثين : إن الحياة العربية الجاهلية لا يجدي التماسها في هذا الأدب العقيم ، الذي يسمونه الأدب الجاهلي ، وإن الشعر الجاهلي لا يمثل حياة العرب الجاهليين ولا عقليتهم ولا دياناتهم ولا حضاراتهم ، لأنه وضع وضعا وحمل على أصحابه حملا بعد الإسلام ، ويمكن أن تلتمس في مصادر أخرى كالشعر

---

(١) ديوان طرفة بن العبد ، تعليق : كرم البستاني ص ٢٦ .

الأموي [١] .

وإن تعجب فعجب قول الباحث نفسه مرددا ما كتبه المستشرق « بروكلمن » عن الأدب العربي في دائرة المعارف الإسلامية : إن ما كان عند العرب من أدب قبل ظهور الإسلام بزمن بعيد أشبه ما يكون بآداب الزنوج أو سكان جزر المحيط الهادي ، فلم تزد عن أن تكون تعبيرا بسيطا عن حياة ساذجة توشك أن تكون منحطة لا قيمة لها ، وهي حياة أهل البادية الذين لاحظ لهم من ثروة أو ترف أو رقي عقلي ... ولم يخرج الأدب العربي من دائرة الشبه بأدب الزنوج عند هذا المستشرق إلا بعد اتصاله بالحضارات [٢] .

وللألم الذي يعتصرني من جراء هذه الأقاويل كان بحثي محاولة جادة لإعطاء القوس باريها ، ووضع الأمور في نصابها ، والإفصاح عما استعجم على البعض ، والذود عن حياض هذا الأدب الرفيع ، عملا بقول زهير :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم[٣]

على أني أسعى ـ في هذا البحث ـ إلى تقرير الدليل ، واستخلاص الحجة من هذا الشعر المفترى عليه ، فلست ممن يرجمون بالغيب ، أو يتعصبون لبني جلدتهم لمجرد التعصب الممقوت .

---

(١) الدكتور طه حسين في أكثر من موضع من كتابه « الأدب الجاهلي » ص ٨١ ، ٨٢ ، ١١٦ وغيرها .

(٢) من حديث الشعر والنثر ، د. طه حسين ص ١٠ .

(٣) ديوان زهير ، شرح الأعلم الشنتمري ص ١٣ .

الحقائق في مواجهة الأباطيل :

إن المنقبين عن آثار حضارات الأمم القديمة كالأمة المصرية أو اليونانية قد يهتدون إلى غايتهم عن طريق ما نقشه أصحاب تلك الحضارات على صفائح قصورهم وقبورهم ، وما زينوا به معابدهم ، بينما يعتدي المنقب الأريب إلى مثل هذه الصورة ، بل إنه ليراها ماثلة أمامه في ذلك السجل العربي الخالد ، المتمثل في الشعر الجاهلي ، « فهو القائم عند المنقبين مقام الآثار المنقوشة والرقوق المكتوبة عند غيرهم من أهل الحضارة القديمة من أمم التاريخ »[1] .

فلقد جعل العرب الشعر ديوانهم ومستودع أيامهم ، والناطق بمفاخرهم ومآثرهم ، والمعجم عن أخلاقهم وعاداتهم وديانتهم ، والمفصح عن عقليتهم ، والدليل إلى جغرافية جزيرتهم ببلادها وجبالها وسهولها ونجادها ونباتاتها وحيواناتها ، بل وما يشيع فيها من معتقدات وخرافات ، حتى ليمكن القول بأنهم سجلوا فيه أنفسهم ، ومن ثم جاء القول المأثور : « الشعر ديوان العرب » .

لقد نهض الشعر الجاهلي في أحضان النفوس التي تعشقته ، والأفئدة التي أحبته ، نهضة قوية رائعة ، ففاض بالأحاسيس الجياشة ، والمشاعر الدفاقة ، والوجدانات المرهفة ، والميول المشبوبة ، وصور الطبيعة ـ واضحة حينا وساذجة حينا آخر ـ والتعبير الصادق عن الحياة الإنسانية ، بما تضطرم به من أفانين الحب وألوان البغض ، لا يتخلف في هذا كله عن ركب الآداب الإنسانية ، وإن أعشى ضوؤه والتماعه بعض العيون ، « إن في الشعر الجاهلي وفرة من القيم الفنية الأصيلة لم يحظ بها كثير من

---

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، د. محمد هاشم عطية ص ١١٢ .

الشعر العربي بعده ، ففيه من خصب الشعور ودقة الحس وصدق الفن وصفاء التعبير وأصالة الطبع وقوة الحياة ما يجعله أصفى تعبيرا عن نفس العربي ، وأصدق مصدر لدراسة حياته وحياة قومه من حوله » (١) .

ولعل البيئة وصفائها ووفرة الحرية واعتزاز العربي بشخصيته وقبيلته ، والحروب الطاحنة التي كانت كثيراً ما تنشب بين القبائل ، وما يترتب عليها من إثارة المشاعر ، وما تتطلبه الصلات الاجتماعية والمجتمعات ، والتنافس الشديد في ميدان الفصاحة والبيان ، والذي كانوا من أجله يتعوذون من العي والحصر ، فهذا « النمر بن تولب يقول :

أعذني رب من حصر وعي　　ومن نفس أعالجها علاجا »(٢)

لعله كان لهذه العوامل مجتمعة الأثر لا يخفى في نهضة هذا الشعر .. وهلم إلى الشعر الجاهلي نقتبس منه ما يصور بيئة العربي وحيواته ، وما يدعم رأينا ويعضد موقفنا .

١ ـ الشعر الجاهلي والبيئة العربية :

إن الذين يمعنون النظر في صفحة الشعر الجاهلي تنعكس على أخيلتهم من مرآته صورة واضحة لتلك البيئة العربية ، تترسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم ، وملاعب ولدانهم ، وأسماء منازلهم ، وموارد مياههم ، وعتاق خيولهم ، وأنواع حيواناتهم ، وشم جبالهم ، ووهادهم وسهولهم ، أو بالأحرى : تلوح من هذا الشعر صورة الطبيعة إن ساكنة أو متحركة .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ، د. ناصر الدين الأسد ص ٢٦٥ .
(٢) البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٣ .

فقد كانت عادة الشعراء أن يبدءوا قصائدهم بالوقوف على الديار ومساءلة الأطلال ، ثم يصفون هذه الأماكن ويذكرون مواقعها ويعرفونها كما يفعل المعنيون بعلم تقويم البلدان ، على غرار ما صنع امرؤ القيس في معلقته ، فإنه بعد قوله : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... يقول :

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

وما صنع زهير بعد قوله : أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ...

فإنه يقول : ... بحومائة الدراج فالمتثلم

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم[1]

وهذه صورة وصفية للصحراء وما بها في نظر شاعرها ، سويد بن أبي كاهل اليشكري ، الذي حالت بينه وبين محبوبته القفار المترامية الأطراف ، التي يلمع فيها السراب حين يشتد الحر ، وتهب الريح منها ساخنة ، حتى ليكاد اللحم أن ينضج ، وأن يقضي على من يسير فيها ، لشدة الحرارة ، ولا بد للسائر في هذه المهامه أن يكون مستعد لملاقاة الخطر لكثرة الأعداء فيها من جانب ، والتخبط على غير هدى بسبب مرتفعاتها ومنخفضاتها ومتعرجاتها ومعالمها البالية من جانب آخر ؛ وهذه القفار يغطي هضابها ووديانها السراب حين ترتفع الشمس ، ويزداد التعطش إلى الماء ، مما يجعل قطعها قطعة من العذاب ، ولكن لا بد للمضطر من ركوب الصعاب ، وتعسف السير في مسالكها وأعلامها .

---

(١) المعلقات السبع للزوزني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ص ٤ ، ٥ ، ص ١٣٨ ، وانظر : الأدب العربي وتاريخه ، د. محمد هاشم ص ١١٢ .

في قول سويد :

كم قطعنا دون سلمى مهمهاً نازح الغور إذا الآل لمع
في حرور ينضج اللحم بها يأخذ السائر فيها كالصقع
وتخطيت إليها من عدى بزماع الأمر والهم والكنع
وفلاة واضح أفرابها باليات مثل مرفت القزع
يسبح الآل على أعلامها وعلى البيد إذا اليوم متسع
فركبناها على مجهولها بصلاب الأرض فيهن شجع[1]

ومن ذلك قول عَميرة بن جعيل في وصف ديار محبوبته التي خلت من أهلها ، وصارت قطعة من الصحراء المقفرة الموحشة ، إذ لم يبق منها إلا آثار دمن وبقايا أطلال عفت وطمرت ، أو فرقتها الريح والأمطار ؛ فجاس خلال المكان الفزع والوحشة ، فقد غابت عنه آثار الحياة ، فأضحى متاهة يضل فيها الخريت ، وصار مأوى للسباع المفترسة ، التي اتخذته لها دارا ، والتي يفترس قويها ضعيفها ، لأنها لا تجد ما تقتات به :

---

(١) المفضليات للضبي ط. دار المعارف ص ١٩٣ ب : ٢٠ - ٢٥ .
(المهمه : القفر . النازح : النور . الآل : السراب . الحرور : الريح الحارة التي تهب نهارا . الصقع : حرارة تصيب الرأس (ضربة شمس) . عدى : الأعداء . زماع الأمر : الجد فيه . الكنع : الذي يلازم ولا يفارق . الأفراب : الخواصر - على التشبيه - أراد جوانبها وأطرافها التي هي بمنزلة الخواصر من الناس . المرفت : المتكسر المتحطم . القزع : جمع قزعة ، وهي بقايا تبقى من الشعر في الرأس ، شبه بها علامات الفلاة . الأعلام : الجبال . البيد : جمع بيداء وهي القفر . متع اليوم : ارتفعت شمسه . ركبناها على مجهولها : سرنا فيها على جهل بمسالكها وأعلامها . بصلاب الأرض : بخيل صلاب الحوافر ، وأرض الفرس : حوافرها . الشجع : جنون من النشاط) .

أﻻ يا ديار الحي بالبردان خلت حجج لهن ثمان
فلم يبق منها غير نؤى مهدم وغير أوار بالركي دفان
وغير حطوبات الولائد ذعذعت بها الريح والأمطار كل مكان
قفار مروراة يضل بها القطا يظل بها السبعان يعتركان
يثيران من نسج التراب عليهما قميصين أسماطا ويرتديان
وبالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان[1]

ولا غرو !! فهذا إنما يذكرنا بقول زهير مشيرا إلى ما حل بدار « أم أوفى » :

بها العين والآرام يمشين خلفه وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيا عرفت الدار بعد توهم
أثافي سفعا في معرس مرجل ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم[2]

---

(١) المفضليات ص ٢٥٨ ب : ١ - ٦ .
الحجج : السنين . النؤى : الحاجز الذي يكون حول الخباء لمنع الماء . الأواري : جمع آري ، وهو ما حبس الدابة من وتد ونحوه . الركى : جمع ركية ، وهي البئر . دفان : مندفنة ، جمع دفين . الحطوبات : جمع حطوبة ، ما يحتطبه الإماء ويجمعنه . الولائد : الإماء . ذعذعت : فرقت . مروراة : لا ماء فيها ولا نبات . يحار : يضل (حتى أن القطا الذي هو أهدى للطيور لا يهتدي فيها) . السبع : المفترس من الحيوان . يعتركان : يلتمس كل منهما أكل صاحبه . أسماطا : يريد أسمالا أي بالية . الشرف : المرتفع من الأرض . الأرجاء : جمع رجا ، وهي النواحي . العوذ : الإبل التي معها أولادها . هجان : كرام .

(٢) العين : الأبقار الواسعات العيون . الآرام : جمع رئم ، وهي الظبي الخالص البياض . الأطلاء : جمع الطلاء ، وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية . المجثم - بكسر الثاء - : موضع الجثوم (المربض) . اللائي : الجهد والمشقة . الأثافي : جمع أثفية وإثفية ، وهي حجارة توضع القدر عليها . السفع : السود . المعرس : أصله المنزل ثم استعير للمكان الذي تنصب فيه القدر . الرجل : القدر . والجذم أو الجد : البئر القريبة من الكلأ أو القديمة . معلقات الزوزني ص ١٤٠ .

ويلتفت الشاعر الجاهلي إلى الظواهر الطبيعية التي تتعاور صحراءه النائية الجهات على مدار العام ، حيث يقرر أن قيظ الصيف الشديد لم يحل دون هطول الأمطار المصحوبة بالبرق والرعد في أعالي الجبال ، وأن هطولها يكون سيلا هدارا يجتاح كل ما أمامه ، على نحو ما جاء في قول امرئ القيس :

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلسع اليدين في حلي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب ... أمال السليط بالذبال المفتل
على قطن بالشيم أيمن صوبه ... وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء حول كتيفة ... يكب على الأذقان دوح الكنهبل
ومر على القنان من نفيانه ... فأنزل منه العصم من كل منزل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا أطما إلا مشيدا بجندل
كأن بثيرا في عرانين وبله ... كبير أناس في بجاد مزمل
كأن ذرا رأس المجيمر غدوة ... من السيل والغثاء فلكة مغزل
كأن السباع فيه غرقى عشية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل[1]

---

(١) أصلح : منادى مرخم . الوميض والإيماض : اللمعان . اللمع : التحريك والتحرك . الحبى : السحاب المتراكم ، سمي بذلك لأنه حبا بعضه إلى بعض فتراكم ، وجعله مكللا لأنه صار أعلاه كالإكليل لأسفله . السنا : الضوء ، والسناء : الرفعة . السليط : الزيت ، ومنه السلطان لوضوح أمره . الذبال : جمع ذبالة وهي الفتيلة . وقطن : جبل . والستار ويذبل : جبلان ، بينهما وبين قطن مسافة بعيدة . الشيم : النظر إلى البرق مع ترقب المطر . كتيفة : موضع . يكب : يلقي الشيء على وجهه . الأذقان : الأشجار (أي يقلعها) . والدوح : العظام من الشجر . الكنهبل : من شجر العضاة في البوادي . القنان : جبل بني أسد . النفيان : ما تطاير عن معظمه . العصم : تيوس الجبال وأوعالها . الأطم : القصر أو الحصن . الجندل : الحجارة والجص . ثبير : جبل بمكة . عرانين : أوائل . الوبل : المطر الشديد . ==

فامرؤ القيس يصور السرعة الخاطفة للمعان البرق وسط السحاب بحركة اليدين ، وضوءه المنتشر في كل الجهات بالمصباح القوي ، ويتأمل السحاب ، فإذا المطر ينزل منه مدرارا ، وإذا هو سيل جارف يقتلع الأشجار والديار ، ويحول بين الوحوش وأوكارها ، لتلقى حتفها في تياره الجارف ، لتصبح بين الغثاء ومخلفات السيل ، وإذا الطيور تغرد ، وإذا هذا الوادي يزدهر بالخصب والنماء ، وإذا الفرحة تغمر ساكنيه .

ألا تراه قد صور فأبدع ؟ ووصف فأمتع ؟! ووقف على كثير من الظواهر الطبيعية في الصحراء ؟ وسجل بعض قراها وجبالها ووحوشها ونباتها ؟! .

والشاعر الجاهلي لم يغفل حيوانات صحرائه ، وخاصة ما كان شديد الصلة بحياته منها كالإبل والخيل ، فقد أكثر فيها القول ، ووصف أجزاءهما وأحوالهما في دقة وعناية على نحو ما صنع طرفة مع ناقته في قوله [1] :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الإران نسأتها   على لاحب كأنه ظهر برجد

== البجاد : كساء للأعراب مخطط مصنوع من وبر الإبل وصوف الغنم . مزمل : ملتف . المجيمر : أكمة في أرض بني فزارة . الغثاء : ما جاء به السيل . فلكة مغزل : ما استدار فوق رأسه . الأرجاء : النواحي . القصوى : تأنيث الأقصى وهو الأبعد . والأنابيش : أصول النبت ، سميت بذلك لأنها تنبش أي تخرج من الأرض . المنصل : البصل البري .
انظر : المعلقات للزوزني ص ٦٧ - ٧٦ .

(١) الاحتضار هنا بمعنى الحضور . العوجاء : الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها . المرقال : ما بين السير والعَدْو . الأمون : التي يؤمن عثارها . الإران : التابوت العظيم . نسأتها : زجرتها . ونسأتها : ضربتها بالمنسأة (العصاة) . ==

فقد وصف كل جزء من جسمها في براعة فائقة ، كما في قوله :

لهما فخذان أكمل النحض فيهما	كأنهما بابا منيف ممرد ...
لها مرفقان أفتلان كأنها	تمُرّ بسَلْمَىْ دالج متشدد
كقنطرة الرومي أقسم ربها	لتكتنفن حتى تشاد بقرمد ...
وجمجمة مثل العلاة كأنما	وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد
وخد كقرطاس الشآمي ومشفر	كسبت اليماني قده لم يحرد
وعينان كالما ويتين استكنتا	بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد
طحوران عوار القذى فتراهما	كمكحولتي مذعورة أم فرقد

وهذه الصورة الأخيرة تدل على قوة ملاحظة طرفة ، ودقة خبرته بأحوال حيوانات الصحراء ، إذ من المعروف أن حدة النظر والرشاقة لا تظهران في الظبية أو البقرة الوحشية إلا إذا كانت مذعورة وهي ذات ولد .

وبمثل هذا التفصيل المستقصي والروعة الفائقة في الوصف والملاحظة تفيض معلقة لبيد العامري عند حديثه عن ناقته [1] ، ومع كل

== الاحب : الطريق الواضح . البرجد : كساء مخطط . النحض : اللحم . المنيف : العالي . الممرد : المملس . الأفتل : القوي الشديد . بسلْمَىْ : أي بدلوين لكل منهما عروة واحدة . الدالج : الذي يأخذ الدلو من البئر فيفرغها في الحوض . متشدد : قوي . الاكتناف : السكون في نواحي الشيء . القرمد : الآجر . الجمجمة : الرأس . العلاة : السندان . الوعى : هنا بمعنى الاجتماع . الملتقى : طرف الجمجمة . السبت : جلود البقر المذبوحة . التحريد : اضطراب القطع وتفاوته . الماوية : المرآة . الحجاج : منبت شعر الحاجب . القلت : النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء . المطحور : التي ترمي عوار القذى الرمد والوسخ . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

انظر : معلقات الزوزني ص ٨٧ - ١٠٠ .

(١) انظر : معلقات الزوزني ص ١٩٣ .

هذا فإن اهتمام الشاعر الجاهلي بالإبل لا يعدو على اهتمامه بالخيل ، التي صرف فيها القول ، ونوع فيها الشعر ، وملكت عليه قلبه وحواسه إلى حد لا تبارى فيه ، « فلم تكن العرب في الجاهلية تصون شيئا من أموالها ولا تكرمه صيانتها للخيل وإكرامها لها ، لما كان لهم فيها من العز والجمال والمتعة والقوة على عدوهم ، حتى أن كان الرجل من العرب ليبيت طاويا ويشبع فرسه ، ويؤثره على نفسه وأهله وولده [١] ، (يدعم ذلك ويفسره قول سلمة بن هبيرة الضبي في فرسه) :

نوليها الضريح إذا شتوفا ... على علاتنا وتلى السمارا
رجاء أن تؤديه إلينا ... من الأعداء غصبا وافتسارا »[٢]

ولقد بلغ بالعرب اهتمامهم بالخيل إلى حد العناية بأنسابها وأسمائها ، ففرس الحارث بن عباد البكري كانت تسمعى النعامة ، يقول الحارث :

قربا مربط النعامة مني ... لقحت حرب وائل عن حيال[٣]

وفرس خالد بن جعفر بن كلاب كانت تسمى حذفة ، وفيها يقول :

---

(١) ولم تزل العرب على الرغبة في اتخاذ الخيل وصيانتها ... حتى جاء الله بالإسلام فأمر نبيه ﷺ باتخاذها وارتباطها لجهاد عدوه ، في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ الأنفال : آية ٦٠ ، فاتخذها رسول الله عليه الصلاة والسلام وحض المسلمين على ارتباطها .. (كتاب الخيل لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، ط. حيدر أباد : الثانية ص ٢ ، ٢٣ .

(٢) كتاب الخيل ص ١ ، ٢ .

(٣) أيام العرب في الجاهلية لجاد المولى والبجاوي وأبي الفضل ، ط. الحلبي ص ١٦١ .

أريغوني إراغتكم فإني وحذفة كالشجى تحت الوريد
أسويها بنفسي أو بجزء وألحفها ردائي في الجليد[١]

ويقول أبو داود الإيادي - وهو ممن اشتهروا بنعت الخيل - في فرسه الضافي السبيب [٢] :

أرعى أجمته وحدي ويؤنسني ضافي السبيب أسيل الخد منسوب
ماء جواد عتيق غير مؤتشب تضمنته له جرداء سرحوب[٣]

ولم تند عن دائرة الشعر الجاهلي شاردة أو واردة في الخيل ، فقد أحاط خبرا بكل أجزائها وأحوالها ، ولا ينبئك عن هذا مثل خبير كامرئ القيس في قوله :

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل[٤]

وعروة بن سنان العبدي في قوله :

أما إذا ما أقبلت فمطارة كالجذع شذ به نقى المنجل
أما إذا أدبرت فنبيلة ضخم مكان حزامها والمركل
أما إذا ما أعرضت فنعامة تذرى سنابكها صلاب الجندل[٥]

---

(١) كتاب الخيل ص ٩ .
(٢) الطويل الشعر في أعلى العنق (العرف) .
(٣) كتاب الخيل ص ٦٢ .
(٤) معلقات الزوزني ص ٥٢ وما بعدها .
(٥) كتاب الخيل ص ٣٩ .

وعلقمة بن عبدة في قوله :

وجـوف هـواء تحـت مـتن كأنـه
من الهضبة الخلفاء زحلوق ملعب[١]

وعوف بن الخرع التيمي في قوله :

لها حافر مثل قعب الوليـ ـد يتخذ الفار فيه مغـارا [٢]

ثم إن الأمر لم يقف بالشاعر الجاهلي من الخيل عند هذا الحد ، ولكنه تخطى الإيثار والوصف إلى التجاوب الوجداني ، الذي رأينا نموذجه عند الفارس الشاعر عنترة العبسي ، فقد فاضت رقته على فرسه ، حتى كان يتألم لألمه ، ويشقى لشقائه ، ويرى بكاءه ، ويسمع توجعه حين تعبث به رماح الأعداء ، ويترجم عنه أحاسيسه ، قائلا :

فازور من وقـع القنا بلبانـه وشكا إلـى بعبـرة وتحمحـم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكـى ولكان لو علـم الكلام مكلمي[٣]

ومثل هذا الحس الوجداني يتراءى لنا عند المنخل اليشكري مع بعيره ، حيث جعل له قلبا يحب ويعشق مثله ، في قوله :

وأحبهـا وتحبنـي ويحب ناقتها بعيري [٤]

ولعل حب العرب الجاهليين للخيل والإبل كان دافعهم إلى التفوق في علم بيطرة الدواب ، بيد أن الخيل والإبل لم ينسيا الشاعر

---

(١) كتاب الخيل ص ٨٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٣) المعلقات ص ٣٠١ .
(٤) الأصمعيات ق ٦٠ .

الجاهلي بقية حيوانات صحرائه وطيورها ونباتها ، من ذلك قول عنترة يهجو قوما لعدم اهتمامهم بالخيل ، لأنهم أصحاب حمير :

أبني زبيبة ما لمهركم متخددا وبطونكم عجر ؟!
ولكم بإيشاء الوليد على إثر الحمير بشدة خبر(١)

وقول المنخل اليشكري :

فإذا انتشيت فإنني رب الخورنق والسرير
وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير(٢)

وقول عنترة :

يا دار عبلة من مشارق مأسل
درس الشؤون وعهدها لم ينجل
فاستبدلت عفر الظباء كأنما
أبعارها في الصيف حب الفلفل
تمشي النعام به خلاء حوله
مشى النصارى حول بيت الهيكل(٣)

وقوله :

وكأنما نظرت بعيني شادن رشأ من الغزلان ليس بتوأم
وكأن فأرة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم

---

(١) كتاب الخيل ص ١ .
(٢) الأصمعيات ق ٦٠ .
(٣) الأغاني ، الطبعة السادسة ٨/ ١٤٠ .

جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدرهم
فترى الذباب بها يغني وحده غردا كفعل الشارب المترنم[١]

وحفل ديوان العرب بذكر المياه والشوق إلى ورودها وتعريف مواقعها ، إذ كانت عزيزة نادرة في الصحراء ، ولم يكن لسكانها غنى عن هذه الموارد ، يؤيد ذلك قول عمرو بن كلثوم التغلبي (وإن كان الزهو آخذا بعنانه) :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كـدرا وطينـا [٢]

وأكثر منه دلالة قول جابر بن الأزرق :

فيا لهف نفسي كلما التحت لوحة على شربة من ماء أحواض مأرب
بقايا نطاف أودع الغيم صفوها مصقلة الأرجاء زرق المشارب
ترقرق دمع المزن فيهن والتوت عليهن أنفاس الرياح الغرائب

لقد بسطت هذه البيئة العربية سلطانها على مشاعر شعرائها ، فوقفوا قبالتها يصورون مشاهدها وانفعالاتهم تجاهها في دقة وبراعة ، إذ كان سكونها لمسة سحرية وصداها مثار شعر ، ولم لا ؟ « وهي التي تحرك العربي ، وتغذي خياله ، وتنطق لسانه ، يشعر فيها باستقلاله وعظمته ، لا ترهقه سلطة ، تنبسط أمامه رقعة الأرض فينعم بمنظرها ، فيجيش صدره وينطق بالشعر لسانه » [٣] .

---

(١) ديوان عنترة ، تحقيق : محمد سعيد مولوي ، طبعة المكتب الإسلامي ، ط. ٢ ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٢) معلقات الزوزني ص ٢٦٥ .

(٣) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ، ط. العاشرة ص ٢٢ .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العربي كان - في بعض الأحيان - يخرج بدافع الحاجة من دائرة صحرائه إلى البحر ، الذي كان العربي يركبه أحيانا ، وقد وجدنا حيثيات هذا الحكم في الشعر الجاهلي ، فهذا طرفة ابن العبد يقول في البحر والسفن التي تمخر عبابه :

كأن حدوج المالكية غدوة   خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفايل باليد[١]

وهذا عمرو بن كلثوم التغلبي يفتخر قائلا :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   وماء البحر نملؤه سفينا [٢]

وبشر بن أبي خازم يصف السفينة ، وقطعها الخلجان ، وينفذ إلى نفوس راكبيها ، فيصور حالتهم النفسية ، واستحضارهم ما قدموا من ذنوب ، لهول ما يلاقون ، وما يتعمل في نفوسهم من خوف ، في قوله :

معبدة السقائف ذات دسر   مضبرة جوانبها رداح
إذا ركبت بصاحبها خليجا   تذكر ما لديه من جناح
يمر الموج تحت شجيرات   يلين الماء بالخشب الصحاح
ونحن على جوانبها قعود   نغض الطرف كالإبل القماح[٣]

---

(١) المعلقات السبع ص ٨٢ - ٨٤ .
حدوج وأحداج : جمع حدج ، وهو مركب النساء ، ومثله الهودج . المالكية : نسبة إلى بني مالك قبيلة من كلب . الخلايا : جمع خلية ، وهي السفينة العظيمة. النواصف : جمع الناصفة ، وهي أماكن تتسع من نواحي الأودية . دد : اسم واد . عدولية : نسبة إلى عدولي ، قبيلة بحرانية . وابن يامن : رجل من أهلها . حباب : أمواج . الحيزوم : الصدر .
(٢) معلقات الزوزني ص ٢٦٦ .
(٣) ديوان بشر بن أبي خازم .

بمثل هذا الإتقان صور الشاعر الجاهلي بيئته العربية وظواهرها الطبيعية الساكنة والمتحركة ، وسجل مشاعره على صفحة البحر حين اضطرته الحاجة إلى ركوبه .

والشاعر الجاهلي لم يقصر في تصويره الفذ على البيئة وملابساتها ، وإنما وسع دائرته ليشمل حياة العرب بكل أبعادها من عقلية واجتماعية ودينية وأخلاقية وعادات وأوهام وما إلى ذلك .

٢ ـ الشعر الجاهلي وحياة العرب العقلية :

من المحقق أنه كان للغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة والتبابعة في اليمن حضارات ومعارف ، وأنه لم يكن لسكان الجزيرة العربية من آثار المدنية العقلية أفضل من الشعر ، وأن ما وصلوا إليه من أسباب العلوم إنما كان مبنيا على قوة النظر وصدق الحس ، مستمدا من التجربة والمشاهدة حينا ، ومن مخالطة الأمم المجاورة حينا آخر ، إذ كانت تشق الجزيرة العربية طرق تجارية منظمة ، تجوب صحراواتها فتلقى بين ربوعها ثمار الثقافة الوافدة ، وهذه الأسواق والمواسم العربية التي كان العرب يقيمونها في أطراف الجزيرة حينا وفي قلبها حينا آخر ، وكان يؤمها العرب من مختلف بقاعهم وعلى تباين حظوظهم من الحضارة والمدنية ، وكان يؤمها كذلك بعض التجار الفرس والهنود والمصريين والرومان ، يلتقون في صعيد واحد ، يتبادلون ما عندهم من متاع وعروض وآراء وأفكار من مظاهر الحضارات المختلفة ، ثم هذه الجاليات الأجنبية الكبيرة التي كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيم فيها ، بل تتخذ منها موطناً آخر تقضي فيها حياتها [١] .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ص ١٧ .

ولا غـرو !! « فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعـة فـي الجاهلية »[1] .

« أما وجود المعلمين في الجاهلية فأمر ثابت منصوص عليه في وضوح لا يصل الشك إليه ، من هؤلاء المعلمين : عمرو بن زرارة ، وكان يسمى الكاتب ، وغيلان بن سلمة بن معتب »[2] ، وقد أطلق على هؤلاء المعلمين فيما بعد : « المؤدبون » .

يدل على ظهور الكتابة عند الجاهليين[3] قول المرقِّش الأكبر :

الدار وحش والرسوم كما   رقّش في ظهـر الأديم قلم

وقول لبيد بن ربيعة العامري :

وجـلا السيولُ عن الطلـول كأنهـا   زُبُـرٌ تُجِـدُّ متونَهـا أقلامهـا

وقول عدي بن زيد العبادي :

تعرف أمس مـن لميس الطلل   مثل الكتاب الدارس الأحول

وقول حاتم الطائي :

أتعـرف أطلالا ونؤيا مهدمـا   كخطك في رق كتابا منمنما

وقول طرفة بن العبد :

وخد كفرطاس الشآمـي ومشفـر   كسِبت اليماني قَـدُّه لم يُجَـرّد[4]

---

(١) العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص ١٣٩ .

(٢) مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٠ .

(٣) انظر : الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ص ١١٦ .

(٤) معلقات الزوزني ص ٩٩ .

كذلك كان لاتصال العرب الجاهليين بالأمم الأخرى أثره في اتصالهم المباشر بمعالم المدنية والحضارة في هذه الأمم ، وما « شاع بين الناس أن العرب في جاهليتها أمة منعزلة عن العالم لا تتصل بغيرها أي اتصال ، وأن الصحراء من جانب والبحر من جانب حصراها وجعلاها منقطعة عمن حولها لا تتصل بهم في مادة ، ولا نقتبس منهم أدبا أو تهذيبا ، فالحق أن هذه الفكرة خاطئة ، لأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديا وأدبيا » ، ولا ريب أن « الرحلات إلى الأمم المتمدنة تجعل دائما تحت عيون الراحلين مدنية جديدة يقتبسون منها على قدر استعدادهم ، وليس أدل على ذلك مما أخذه العرب في جاهليتهم من كلمات فارسية ورومانية ومصرية وحبشية ، أدخلوها في لغتهم ، وأخضعوها لقوانينها ونطق بها القرآن الكريم » [(١)] .

وقد كانت إمارتا المناذرة والغساسنة بمثابة صلة الوصل بين العرب من جانب ، والفرس والروم من جانب آخر ، كما كانتا بما أفادتا من حضارة هاتين الدولتين بمثابة جدولين كبيرين تسرب منهما ماء هاتين الحضارتين إلى الجزيرة العربية ، والتاريخ شاهد صدق على أن عدي بن زيد التميمي كان كاتبا بالعربية ، ومترجما في بلاط كسرى ، وأن ابنه زيدا قد قام بهذه المهمة بعده ، وأن لقيط بن الإيادي كان كذلك في بلاد فارس وأن المرقشي وأخاه حرملة كانا ممن تعلموا في مدارس الحيرة ، وأن امرأ القيس قد اتصل بقيصر ملك الروم بعد أن طوف في العرب كثيراً ، طلبا للثأر من قتلة أبيه ، وقد أكرمه ملك الروم ونادمه ، وفي ذلك يقول :

ونادمت قيصر في ملكه   فأوجهني وركبت البريدا

---

(١) فجر الإسلام ص ١٢ - ١٦ .

إذا ما ازدحمنا على سكـة   سبقت الفرائق سبقاً بعيداً [١]

ومعرفة العرب بهذه الأمم جعل طرفة يشبه ناقته بقنطرة الرومي ، في قوله :

كقنطرة الرومي أقسم ربها   لتكتنفن حتى تشاد بقرمـد

ولم تقف أسفار الأعشى عند الحدود العربية ، بل وجه رواحله نحو الملوك المجاورين في الحبشة والشام وفارس ، فها هو يقول :

قـد جبت ما بـين بانقيا إلـى عـدن   وطال في العجم ترددادي وتسياري

وما جاء على لسانه :

وقـد طفـت للمـال آفـاقـه   عمـان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشي فـي أرضـه   وأرض النبيط وأرض العجم [٢]

وسواء أكان الأعشى هو قائل هذين البيتين أم أجريا على لسانه ، فإنهما يثبتان أنه كان كثير التنقل والترحال جائلا في مختلف الأنحاء القريبة منها والبعيدة ، وأن رحلاته المتعددة اكتسبت شهرة بين الرواة ، ونونية عمرو بن كلثوم تنبئ عن معرفته بالحيرة والأندرين الشامية وبعلبك ودمشق وقاصرين ، من ذلك قوله :

وكأس قـد شربت ببعلبك   وأخرى في دمشق وقاصرينا [٣]

ولقد كان هؤلاء الشعراء وغيرهم بمثابة السفراء ، فلا جرم بعد أن

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ١٢٠ .
(٢) انظر : مختارات من روائع الأدب ، د. عبد السلام سرحان ص ٧١ .
(٣) معلقات الزوزني ص ٢٣٦ .

يكون للعرب في الجاهلية معارفهم وعلومهم ، كعلم النجوم والكواكب التي كانوا يهتدون بها في ظلمات البر والبحر ، والأنساب والأخبار ليحافظوا على عصبيتهم ، وليخلدوا مآثرهم والفراسة والقيافة ليحفظوا أعراقهم ، وليطلبوا الهارب منهم ، والكهانة والعرافة والزجر ، ثم الطب وبيطرة الدواب لاتصال ذلك بحياتهم وحربهم اتصالا وثيقا ، ولا عجب !! ففي كلام العرب وأشعارهم ما يؤكد هذه الحقيقة العقلية ، ففيه الكثير من أسماء الكواكب ، كالفرقدين والسماكين والشعرى والجوزاء والعيوق والثريا ، مما يدل على قدم معرفتهم بذلك ، انظر كيف كان المهل - عدي بن ربيعة - يرقب مصابيح السماء ويصف نجومها بقوله :

كأن كواكب الجوزاء عوذ ... معطفة على ربع كسير
كان الجدي في مثناة ربق ... أسير أو بمنزلة الأسير
كأن النجم إذا ولى سحيرا ... فصال جان في يوم مطير
كواكبها زواحف لاغبات ... كأن سماءها بيدي مدير
كواكب ليلة طالت وغمت ... فهذا الصبح راغمة فغوري[1]

وروعة امرئ القيس وبراعته في قوله :

فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل[2]

---

(١) شعراء النصرانية للأب لويس شيخو . ط. بيروت ١ / ٢٧٣ .
(٢) المعلقات السبع ٤٨ .

وتصوير الشماخ بن ضرار في قوله :

للیلي بالعنيزة ضوء نار نلوح كأنها الشعرى والعبور
إذا ما قلت أخمدها زهاها سواد الليل والريح الدبور[١]

ناهيك بقول عروة بن حزام في عراف نجد الأبلق السعدي ، وعراف اليمامة رباح بن عجلة :

جعلت لعـراف اليمامـة حكمـه وعـراف نجـد إن همـا شفيـان

وقول أوس بن حجر يمدح نفسه بالتفوق على ابن حذيم الطبيب العربي المشهور :

فهل لكم فيما إلـي فإننـي طبيب بما أعيا النطاسي حذيما[٢]

وقول الشاعر في بني لهب المشهورين بالقيافة والزجر :

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقالة لهبي إذا الطيـر مـرت

والشعر الجاهلي بعد هذا كله يحمل في تضاعيفه دلائل صفاء أذهان الجاهليين وصدق نظرهم في الطبيعة وأحوال الإنسان ، وملامح خطرات فلسفية وفكرية رائعة ، يقف أمامها مثقفو اليوم مشدوهين كما في قول زهير :

وأعلم ما فـي اليوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم ما في غدهم ...
ومهما تكن عند امرئ من خليقـة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا ، تحقيق : عباس عبد الستار ، ط. لبنان ، ص ٢٤ .
(٢) المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ، ط. الثانية . جـ ١ ص ٢٢٠ .

وقوله :

وفي الحلم إذعـان وفـي العفـو دريـة
وفي الصدق منجاة من الشر فاصدق[1]

وقول النمر بن تولب :

يـود الفتى طـول السلامـة جاهـدا فكيف ترى طول السلامة يفعل[2]

وقول المرقش الأصغر :

ومـن يلـق خيـرا يحمد الناس أمـره
ومن يغو لا يعدم على الغي لائما[3]

وقول عمرو بن الأهتم :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخـلاق الرجال تضيق

وقول ذي الأصبع العدواني :

كل امرئ راجع يوما لشيمته وإن تخلق أخلاقا إلـى حـين [4]

إن سريان النزعة العقلية التأملية في هذه النماذج يؤكد كثرتها في ديوان العرب ، ويثبت التحضر العقلي المبكر عند العرب الأقدمين ، وليست النزعة البيانية التي حفلت بها صفحة الشعر الجاهلي بأقل هذه الخطوات التأملية الفاحصة دلالة على ما كان يتمتع به العربي من عقل

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/ ٢٨٣ .
(٢) عيار الشعر ص ٥٢ .
(٣) الشعر والشعراء ١/ ٢١٥ .
(٤) المفضليات جـ ١ ص ٢٥ ، ٦٥٨ .

ملهم وإحساس عميق وفكر ثاقب .

ولقد كان الشاعر الجاهلي بنجوى من المبالغة الممقوتة والإغراق المذري ، وما مبالغة المهلهل وعنترة وابن كلثوم إلا من قبيل مبالغة الفرسان الذين يتقدون حماسة وشجاعة وقوة وفتوة ، ولكنهم لا يخرجون عن المعقول في الغالب الأعم .

وهذا زهير يبالغ في مدح هرم بن سنان ، ولكنه لا يخرج عن المعقول ، في قوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
محسدون على ما كان من نعم لا ينزع الله عنهم ما له حسدو[1]

ثم يلوح لي في فحمة ليل ذؤبان العرب ـ الصعاليك ـ شهاب ، يقود خطا فكري إلى زاوية في شعر هؤلاء الذؤبان ، تفيض بفكرة عقلية إنسانية نبيلة ، تتمثل في دعوة عروة بن الورد زعيم الصعاليك إلى العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي ، كما في قوله :

إني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنانك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى على شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقوله :

ومن بك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح

---

(١) انظر : تاريخ أدب اللغة العربية لجورجي زيدان ، تعليق : د. شوقي ضيف ٩٣/١ .

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح[1]

فالجوع أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان ، ولهذا كانت نفوس الفقراء تموج بالحقد والثورة العارمتين على الأغنياء الأشحاء إن دعوة عروة الصعاليك هذه في جوف الجاهلية لتؤكد رجاحة فكره وثقوب عقله ، فقد كان هدفه نبيلا ومغزاه كريما ، بيد أن الزكاة التي جعلها الإسلام ركنا من أركانه لأهدى وأقوم قيلا ، لما فيها من تنظيم ورضا وتسليم وتكافل اجتماعي ، ولما تحققه من إقامة مجتمع الكفاية والعدل والفرص المتكافئة والتآخي والحب في ظل اشتراكية إسلامية ، انطلاقا من قول المولى عز وجل : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم ۝ للسائل والمحروم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ ، وقوله جل علاه : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [2] .

بمثل هذه الصورة الملمة الصادقة نطق الشعر الجاهلي بنبض العقلية العربية وأفكارها ، وأفصح عن علوم العرب الأقدمين ، وكشف في دقة وبراعة عن موارد ثقافتهم ومدى معارفهم ، دونما تحيف أو تزيد .

٣ ــ الشعر الجاهلي وحياة العرب الروحية :

تنوعت العبادات في الجزيرة العربية ، فقد كان العربي قليل الاحتفال بها عند إحساسه بالأمان ، ويبدو أن عبادة الكواكب كانت من أقدم العبادات العربية ، وأن عبادة الأصنام كانت طارئة على جزيرة العرب ، وأن النصرانية واليهودية قد تسربتا إلى هذه الجزيرة وعرفتا فيها.

---

(١) ديوان عروة ، شرح ابن السكيت ، طبعة الجزائر ١٩٢٦ ، ص ١٣٨ ، ٩٩ .

(٢) سورة المعارج : الآيتان ٢٤ ، ٢٥ ، سورة الأنعام : الآية ١٤١ ، سورة التوبة : الآية ١٠٣.

وفي هذه اللجة الغاتمة رأى جماعة ضرورة الخروج بعقليتهم عن هذا الدرك من الانحطاط بخلع الأوثان ، واهتدوا إلى أن لهذا الكون خالقا ، وأن للناس معادا ، وقد عرفوا بالحنفاء من أمثال ورقة بن نوفل ، وقس بن ساعدة ، وأمية بن أبي الصلت ، الذي يقول :

أنا ميت إذ ذاك ثمت حي   ثم بعد الحياة للبعث ميت [١]

بيد أن عباد الأوثان كانوا يقولون بالخالق ، يقول المولى عز وجل في حقهم : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ [٢] .

وجاء في القرآن الكريم على لسانهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [٣] .

ورأينا جماعة من الوثنيين سئموا وثنيتهم وأحسوا قصورها عن حاجتهم الروحية ، فمالوا إلى الشك والإباحة ، ونظروا إلى الحياة على أنها مهزلة غير مفهومة ، ينبغي أن تقضي في لهو ولذة واستهتار ، يرود هذه الجماعة طرفة بن العبد حيث يقول :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي ؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

---

(١) انظر : تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص ١٥٤ .
(٢) سورة الزخرف : الآية ٨٧ .
(٣) سورة الزمر : الآية ٣ .

وحيث يقول :

متى تأتني أصبحك كأسا روية
وإن كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد
كريم يروي نفسه في حياته
ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى ! ![1]

وإذا كان يأس طرفة من حياته وشكه في الآخرة قد دفعاه إلى إطراح الجبن والتعلق باللهو واللذة ، فإن زهيرا ـ وهو وثني ـ لا يحس إحساسه ، ولا يطمئن إلى أن الحياة عبث ولهو ، أو أن العالم خلق سدى ، ولكنه يحس قصور الديانات ، ولهذا أخذ يفكر في نهاية الحياة ، ويتشبث بفكرة الآخرة :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

وإن لم تقم هذه الفكرة عنده على برهان عقلي أو بحث قوي أو رأى ديني ، بدليل اضطرابه بعد حين جعل الموت مصادفة في قوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

والروح الدينية تشيع في شعر كثير من شعراء الجاهلية ، ومنهم أوس بن حجر الذي يقول :

وتعوذوا بالله من أقلامه إن السيوف لها من الحساد

---

(١) المعلقات السبع ص ١١١ - ١١٦ .

ويقول :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر
عددت رجالا من قعين تفجسا فما ابن لبيني والتفجس والفخر

ونعرض هنا لرأي واحد من الباحثين المحدثين [1] الذي ذهب يعلل ورود لفظ الله في الشعر الجاهلي بقوله : « إن لفظ " الله " في الشعر الجاهلي محرف عن لفظ " اللات " وهو معبود وثني ، وقد حرفه الرواة المسلمون » ، ولكن يبطل هذا الرأي قول أوس :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

وليس معقولا أن يكون لفظ الجلالة هنا محرفا عن اللات ، إذ أنه أقسم في الشطر الأول من البيت باللات ، ثم قال : إن الله أكبر من اللات .

إن الروح الدينية واضحة في بيتي أوس ، فالتعوذ بالله والقسم باللات والعزى ثم الإضراب عن هذا القسم الوثني ليقسم بالله ، لأن الله أكبر منها ، يؤكد هذا الوضوح الديني [2] .

ولقد تردد ذكر لفظ « الجلالة » في الشعر الجاهلي عند غير أوس كثيرا ، فليس بدعا أن يرد في شعره ، تأمله في هذا الإطار الديني عند زهير في قوله :

---

(١) الدكتور محمد جواد علي في كتابه « العرب قبل الإسلام » عند حديثه في الجزء الخامس عن الحياة الدينية .

(٢) انظر : الشعر الجاهلي ، مراحله واتجاهاته الفنية ص ١٤٤ - ١٤٥ .

رأى الله بالإحسان ما فعــلا بكــم فأبلاهما خير البـلاء الذي يبلو[1]

أو قول النابغة الذبياني :

حلفت فلـم أتـرك لنفسك ريبــة وليس وراء الله للمـرء مذهب ..
ألـم تـر أن الله أعطاك سـورة ترى كل ملك دونهـا يتذبذب[2]

وفي قول عروة للصعاليك :

لحى الله صعلوكا إذا جـن ليله مضى في المشاش آلفا كل مجـزر
يعد الغنى من دهره كـل ليلـة أصاب قراها من صديق ميسر[3]

إن شعرنا الجاهلي ينضح بالروح الدينية عند عرب الجاهلية ، ويكشف عن أبعاد ومناحي الحياة الروحية التي عاشتها الجزيرة العربية .

٤ ــ الشعر الجاهلي وحياة العرب الاجتماعية :

بقي العرب الجاهليون الذي كانوا يحيون حياة شبه منعزلة محافظين على موروثهم وميزاتهم القديمة ، يعيشون من عقولهم في وحدات فكرية هي خطرات طارئة ، فتلمس لذلك في شعرهم اضطراب حياتهم ، وتبصر حياتهم ونفوسهم مصورة في آثارهم الشعرية تصويراً دقيقا رائعا ، ولا عجب !! فالأدب بعامة صورة الحياة الفردية والاجتماعية ، وإنك لتنظر في صفحة الشعر الجاهلي فتنعكس على خيالك من مرآته صورة واضحة لحياة العرب الاجتماعية في سلمهم أو حربهم ، التي كان لبيئتهم الأثر الفعال في سنها وتكوينها ، سواء في ذلك

(١) ديوان زهير ص ٣٧ .
(٢) انظر : العمدة لابن رشيق ٢/ ٢٨٢ .
(٣) الأصمعيات ص ٤٥ ب ١٣ .

العادات المتأصلة التي جرى عليها العرب منذ زمن بعيد ـ المعروفة بينهم بالأوابد ـ أو المعتقدات والأوهام أو غير هذه وتلك من آداب وأخلاق ، والتي يمثل مجموعها المظهر الصادق لحياة المجتمع العربي في الجاهلية .

يقول لبيد العامري في الجري على سنن الأجداد العظام ، والحرص على الموروث الخلقي :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل — منا لزاز عظيمة جشامها
ومقسم يعطي العشيرة حقها — ومغذمر لحقوقها هضامها
فضلا ، وذو كرم يعين على الندى — سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم — ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم — إذ لا يميل مع الهوى أحلامها[1]

ويقول زهير في هرم بن سنان :

له في الذاهبين أروم صدق — وكان لكل ذي حسب أروم
وعود قومه هرم عليه — ومن عاداته الخلق الكريم
كما قد كان عودهم أبوه — إذا أزمت بهم سنة أزوم

إن من أروع ما يمثل أخلاقهم أو قل : مثلهم العليا ، قول سويد بن أبي كاهل اليشكري ، الذي يتغنى فيه بأمجاد قومه :

من أناس ليس من أخلاقهم — عاجل الفحش ولا سوء الجزع
عرف للحق ، مانعيا به — عند مر الأمر ، ما فينا خرع
وإذا هبت شمالا أطعموا — في قدور مشبعات لم تجع ...
لا يخاف الغدر من جاورهم — أبدا منهم ولا يخشى الطبع

---

(١) المعلقات السبع للزوزني ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

مساميح بما ضن به حاسرو الأنفس عن سوء الطمع ...
فبهم ينكى عدو وبهم يرأب الشعب إذا الشعب انصدع
عادة كانت لهم معلومة في قديم الدهر ليست بالبدع[(١)]

والكرم الذي صورته سعدى بنت الشمردل الجهنية في رثاء أخيها أسعد :

يا مطعم الركب الجياع إذا همو حثوا المطي إلى العلا وتسرعوا
إن نأنه بعد الهدوء لحاجة تدعو ، بحبك لها نجيب أروع[(٢)]

والذي تمدح به ظرفة البكري في قوله :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد[(٣)]

والذي يصدق على العرب فيه قول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

هذا الكرم العربي استتبع قيما وعادات روائع ، كإشعال النار في رؤوس الجبال ليهتدي بها من يضرب في الصحراء ليلا على غير هدى ، فهي بهذا أشبه ما تكون بفنار السفن في العصر الحاضر ، يؤكد ذلك قول الخنساء في أخيها صخر :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار[(٤)]

---

(١) مفضليات الضبي ص ١٩٤ ب : ٣٢ - ٤٤ .
(٢) الأصمعيات ص ١٠٢ ب : ١١ - ٢٩ .
(٣) معلقات الزوزني ص ١٠٦ .
(٤) الأغاني ١٣/ ٣١ ط الساسي .

وقول حاتم الطائي الذي ترفع بنفسه عن عبادة المال فوظفه فيما يكسبه الرفعة :

إذا كان بعض المال ربا لأهله   فإني بحمد الله مالي معبد
يفك به العاني ويؤكل طيبا   ويعطي إذا ضن البخيل المصرد
إذا ما البخيل الخب أخمد ناره   أقول لمن يصلي بناري أوقدوا

وقوله الذي يضيف فيه إلى إشعال النار استنباح الكلاب ، ليكون لهداية ضال ليل الصحراء معلم حسي بصري ومعلم صوتي :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما   يقاتل أهوال السرى وتقاتله
دعا يائسا شبه الجنون وما به   جنون ولكن كيد أمر يحاوله
فأوقدت ناري كي ليبصر ضوءها   وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله[1]

ورعاية العرب لآداب الضيافة من ترحيب وبشاشة وإراقة دماء الهجان أثر من أثار كرمهم ، يكشف عن هذه القيمة الجليلة قول عمرو ابن الأهتم :

أشفت فلم أفحش عليه ولم أقل   لأحرمه إن المكان مضيق
فقلت له : أهلا وسهلا ومرحبا   فهذا صبوح راهن وصديق
وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت   مقاحيد كوم كالمجادل روق
بأدماء مرباع النتاج كأنها   إذا عرضت دون العشار فنيق ...
فبات لنا منها وللضيف موهنا   شواء سمين زاهق وغبوق
وكل كريم يتقي الذم بالقرى   وللخير بين الصالحين طريق[2]

---

(١) انظر : ديوان حاتم الطائي - كرم البستاني - طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٣م .
(٢) المفضليات ص ١٢٦ ب : ٧ - ٢١ .

وفي هذه الآداب يقول حاتم الطائي [١] :

فلما رآني كبر الله وحده ... وبشر قلبا كان جما بلابله
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا ... رشدت ولم أقعد إليه أسائله
وقمت إلى برك هجان أعده ... لوجبة حق نازل أنا فاعله
بأبيض خطت نعله حيث أدركت ... من الأرض لم تخطل على حمائله
فجال قليلا واتقاني بخيره ... سناما وأملاه من التي كاعله
فخر وظيف القرم في نصف ساقه ... وذلك عقال لا ينشط عاقله
بذلك أوصاني أبي وبمثله ... كذلك أوصاه قديما أوائله

« وكان الساري إذ جنه الليل ، ولم يجد هدى نبح كما تنبح الكلاب فتنبح على نياحه ، فيهتدى بذلك إلى مكان الحي ، ولهم في ذلك أشعار كثيرة ، منها قول نابغة بني جعدة :

ومستنبح تستكشط الريح ثوبه ... ليسقط عنه وهو بالثوب معصم
عوى في سواد الليل بعد اعتسافه ... لينبح كلب أو ليفزع نوم
فجاوبه مستسمع الصوت للقرى ... له عند إطعام المهين مطعم
يكاد إذ ما أبصر الضيف مقبلا ... يكلمه من حبه وهو أعجم »[٢]

وقول عمرو بن الأهتم :

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم الشتاء خفوق
يعالج عرنينا من الليل باردا ... تلف رياح ثوبه ، وبروق[٣]

(١) انظر ديوانه .
(٢) الأدب العربي وتاريخه ص ١١٣ .
(٣) المفضليات ص ١٢٦ .

وللعرب في الجاهلية إلى جانب هذه المثل الأخلاقية مثل أخرى كالوفاء والنجدة وإغاثة الملهوف ، يقول بشامة بن حزن الهشلي :

إن تيتدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا
وليس يهلك منا سيد أبدا إلا افتلينا غلاما سيدا فينا
إني لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة : ألا أين المحامونا ؟[١]

ومن مثلهم حسن الجوار والحفاظ على الجار يقول حاتم الطائي :

وأقسمت لا أمشي سر جارة يد الدهر ما دام الحمام يغرد
وماضر جاري يا ابنة القوم فاعلمي يجاورني ألا يكون له ستر
بعيني عن جارات قومي غفلة وفي السمع مني عن حديثهم وقر[٢]

ويقول فارس عبس عنترة :

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها
إني امرؤ سمح الخليقة ماجد لا أتبع النفس اللجوج هواها[٣]

على أن العرب لم يقصروا كرم الجوار على الجار الجنب ، وإنما وسعوا دائرته ليشمل من استجار بهم وجاورهم ، يؤيد ذلك قول ابن دارة الغطفاني في جوار طيئ :

جزى الله خيرا طيئا من عشيرة ومن صاحب تلقاهم كل مجمع
هم خلطوني بالنفوس ودافعوا ورائي بركن ذي مناكب مدفع
وقالوا : تعلم أن مالك إن يصب نفدك ، وإن تحبس نزرك ونشفع[٤]

---

(١) الكامل للمبرد ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١/ ١١١ .
(٢) انظر : ديوان حاتم المشار إليه سلفا .
(٣) ديوانه عنترة ص ٣٠٨ . (٤) كامل المبرد ١/ ٧٧ .

وقول رجل من بني سلامان بن سعد القضاعي :

كأن الجار في شمجي بن جرم له نعماء أو نسب قريب
يحاط ذماره ويلب عنه ويحمى سرحه أنف غضوب
ألفت مساكن الجبلين إني رأيت الغوث يألفها العريب[١]

إن مثل هذه الرعاية وهذا الحدب قد جعلا قيس بن الحدادية المخلوع يقول في آل عمرو بن خالد الذين آووه :

وقد حدبت عمرو على بعزها وأبنائها من كل أروع ماجد
أولئك إخواني وجل عشيرتي وثروتهم والنصر غير المحارد[٢]

بل إن أبا الطمحان القيني يعلن أنه قد نسي أهله في جوار من استجار بهم بعد أن خلعه قومه ، وأصبح كأنه واحد منهم ، ما تهر عليه كلابهم :

وقد عرفت كلابهم ثيابي كأني منهم ونسيت أهلي [٣]

وما أكثر المثل الرفيعة عند العرب ، ويكفي للتدليل على هذه الحقيقة قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

وقوله :

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي[٤]

---

(١) كامل المبرد ١/ ٧٧ .
(٢) الأغاني ١٣/ ٥ .
(٣) الحيوان للجاحظ ١/ ٣٨٠ .
(٤) الديوان ص ٢٤٦ ، ٢٠٧ .

كذلك أفصح الشعر الجاهلي عن عادات العرب التي كان منها :
ابتعاد العربي عن زواج قريبته ، فرارا من ضعف النسل ، قال شاعرهم :

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيـ   ـضوي وقد يضوي ريد الأقارب

وقال الآخر :

تجاوزت بنت العم وهي حبيبة   مخافة أن يضوي على سليلها

في حين أنهم كانوا يعتقدون أن إغضاب المرأة أثناء جماعها يعني إنجاب الذكور ، يقول الشاعر :

تغمتها غضبي فجاء مهدا   وأنفع أولاد الرجال المسهد

ويقول أبو كبير الهذلي :

ممن حملن به وهن عواقد   حبك النطاق فشب غير مهبل[1]

ويفصح الشنفري عن الصفات الخلقية التي كانت تثير في الرجل إعجابه بزوجه قائلا :

لقد أعجبتني لا سقوطا قناعها   إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهوى غبوقها   لجارتها ، إذا الهدية قلت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها   إذا ما بيوت بالمذمة حلت ...
إذا هو أمسى آب قرة عينه   مآب السعيد لم يسل أين ظلت[2]

وكان من عادتهم في التزين الدق بالوشم - النثور - ، يقول طرفة البكري :

---

(١) انظر : كامل المبرد ١/ ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٢) المفضليات ص ١٠٩ .

لخولـة أطـلال ببُرقَـةِ تَهمـد　　　تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليـد

ويقول زهير :

ودار لهـا بالرقمتـين كأنهـا　　　مراجيع وشم في نواشر معصم(١)

وكان العرب يحيون سادتهم وملوكهم في المناسبات والأعياد بطاقات الزهور ، مثلما نحييهم في العصر الحاضر ، مما يدل على تحضر العرب المبكر ، من ذلك قول النابغة الذبياني في الغساسنة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم　　　يحيون بالريحان يوم السباسب
يحييهم بيض الولائد بينهم　　　وأكسية الأضريح فوق المشاجب

وكانوا يقصون شواربهم ويرسلون لحاهم ، يقول حريث بن عنان الطائي :

غلام قليعـي يحف سياله　　　ولحيته طارت شعاعا مقزعا

وكانوا يتسابقون في الحلبة على صهوات الخيول ، ويتراهنون ، يقول عنترة في مقتل مالك بن زهير :

فلله عينا من رأى مثل مالك　　　عقيرة قوم أن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا نصف غلوة　　　وليتهما لم يرسلا لرهان(٢)

وكان من أشرافهم من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، ومن هؤلاء قيس بن عاصم المنقري ، الذي يقول في ذلك :

لعمرك إن الخمر ما دمت شاربا　　　لسالبة مالي ومذهبة عقلي

---

(١) شرح المعلقات للزوزني ص ٨١ ، ٨٢ .
(٢) ديوان عنترة ص ١١ .

وتاركة بين الضيوف قراهم ومورثة حرب الصديق بلا دخل

والمتلمس الذي يقول في ذم الخمر :

جمادى لها جماد ولا تقولي طوال الدهر ما ذكرت جماد[١]

وقول زهير في حصن الفزاري يشير إلى أنه كان بنجوى من الخمر :

أخي ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنه قد يتلف المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذي أنت سائله [٢]

وكانوا يمجون الإسراف في شرب الخمر ، والتهافت على حوانيتها ، وإتلاف موروث الأموال ومكتسبها في اللذة والمجون واللهو ، يقول طرفة بن العبد :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد[٣]

ومن عاداتهم « كيهم ـ إذا أصاب إبلهم العر والجرب ـ السليم منها ليذهب العر عن السقيم وفي ذلك يقول النابغة :

يكلفني ذنب امرئ وتركته
كذى العر يكوى غيره وهو رائع »[٤]

---

(١) انظر : كامل المبرد ٢/ ٧٠ .
(٢) ديوان زهير ص ٣١ .
(٣) شرح المعلقات ص ١١٠ .
(٤) عيار الشعر ص ٣٨ ، ولعلهم بذلك كانوا يحصنونها خوفا من العدوى ، وانظر : الحيوان للجاحظ ١/ ١٦ .

ومن عاداتهم التي تكشف عن معرفتهم بطبائع الحيوان ، لا عن الوهم والخيال ، « كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب ، إما لكدر الماء أو لقلة العطش ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل ، وكما تتبع أتن الوحش الحمار ، فقال في ذلك عوف بن الخرع :

هجوني أن هجوت جبال سلمى ... كضرب الثور للبقر الظماء

وقال أنس بن مدرك في قتله سليك بن السلكة :

إني وقتلي سليكا ثم أعقله ... كالثور يضرب لما عافت البقر

وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء - بركوبها إياها ، فتصد البقر عن الشرب ، فيضربون الثور ليطير الشيطان عنه ، فتشرب البقر - ، يقول الأعشى في ذلك :

فإني وما كلفتموني وربكم ... لأعلم من أمسي أحق وأحوبا
لكالثور والجني يضرب ظهره ... وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر ... وما إن تعاف الماء إلا ليضربا

ويقول نهشل بن حري :

أتترك عارض وبنو عدي ... وتغرم دارم وهم براء
كدأب الثور يضرب بالهراوي ... إذا ما عافت البقر الظماء »[1]

غير أن هذه العادة إذا اتصلت بمعرفتهم من جانب ، وبوهمهم من جانب آخر ، فإن للعرب عادات تتصل اتصالا وثيقا بالوهم والزعم ، فقد

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ، طبعة بيروت - الجزء الأول ص ١٨ ، ١٩ .

« كانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغت الألف فقأوا عين الفحل ، فإذا زادت على الألف فقأوا العين الأخرى .. إذ كانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواق ـ الموتان ـ والغارة ، يقول النابغة :

فقأت لها عين الفحيل عيافة وفيهن رعلاء المسامع والحامي »(1)

وكانوا يزعمون « أن الرجل منهم إذا أحب امرأة وأحبته ، فلم يشق برقعها ولم تشق هي رداءه فإن حبهما يفسد ، وإذا فعلاه دام أمرهما ، وفي ذلك يقول عبد بني الحسجاس سحيم :

فكم قد شققنا من رداء محبر ومن برقع عن طفلة غير عانس

وكانوا يعلقون الحلى والجلاجل على السليم ـ اللديغ ـ ليفيق ، يقول النابغة :

يسهد من ليل التمام سليمها لحلى النساء في يديه قعاقع (2)

ويقول رجل من عذرة :

كأني سليم ناله كلم حية
ترى حوله حلى النساء موضعا »(3)

وكانوا يزعمون أن الغول تتراءى لهم في الفلاة ، فيتبعها أحدهم فتستهويه ، وقد ادعى تأبط شرا أنه لقيها وقاتلها ، حيث يقول :

---

(1) المرجع السابق ١/١٧ .

(2) قبله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

(3) عيار الشعر لابن طباطبا ص ٣٨ .

ألا من مخبر فتيان فهم ... بما لاقيت عند رحى بطان
بأني قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها : كلانا نضو أرض ... أخو سفر فخلي لي مكاني
فشدت شدة نحوي فأهوت ... لها كفي بمصقول يماني
فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران

وقال امرؤ القيس :

أتوعدني والمشرفي مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال ؟!

والغول : لم يخبر صادق قط أنه رآها [(١)] .

وكانوا يزعمون أن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر ، قالت امرأة من بني بكر بن كلاب :

صب محب إذا ما رجله خدرت ... نادى كنيسة حتى يذهب الخدر[(٢)]

وللعرب في حروبهم عادات لا تقل أهمية في دلالتها على حياتهم الاجتماعية من عاداتهم في سلمهم ، فالحرب كانت ولا تزال سنة دائرة من سنن الحياة ، وقد تميزت الحياة الجاهلية بكثرة الوقائع والمعارك ، وكأن الحرب أوشكت أن تكون نظامهم اليومي المعتاد ، ترخص مهجهم وأرواحهم قبالة شرف القبيلة ، وكانت الشجاعة لذلك مثلهم الأعلى « فقد يستضعف الرجل الحليم » لقد دفعتهم العصبية القبلية إلى الانتصار للقبيلة ، انطلاقا من فلسفتهم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » ، يقول قريط بن أنيف العنبري في مازن :

---

(١) انظر : الكامل للمبرد ٣/٩٦ .
(٢) عيار الشعر ص ٤٠ .

قوم إذا الشر أبدى تاجزيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

ويقول وداك بن ثميل المازني في يوم كان على شيبان :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم تلاقوا غدا خيلي على سفوان
تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغر من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأية حرب أم بأي مكان

وكانوا يرون الشرف المؤثل في الموت تحت سنابك الخيول ، وظلال العوالي ، يقول السموأل بن عادياء :

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد في فراشه ولا طل منا حيث كان قتيل
إذا سيد منا خلا قام سيد تؤول لما قال الكرام فعول
وأيامنا مشهورة في عدونا بها من قراع الدارعين فلول[1]

ويقول سعد بن مالك البكري :

المـوت غايتنـا فـلا قصر ، ولا عنه جماح
وكأنمـا ورد المنيـــة عندنا مـاء وراح [2]

وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم الأوسي :

رجال متى يدعوا إلى الموت يرقلوا إليـه كإرقـال الجمال المصاعب[3]

---

(١) ديوان الحماسة ٢/٣٦ ، والمثل السائرص ٢٤٥ .
(٢) أيام العرب في الجاهلية ص ١٥٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٠ .

وقد انبثقت عن هذه الحروب الطاحنة عادات سادت بين العرب ، منها : التشمير للثأر وهجر متع الحياة ، يفصح عن ذلك قول المهلهل بن ربيعة :

خذ العهد الأكيد على عمري ... بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس ... ولبسي جبة لا نستعار
ولست بخالع درعي وسبقي ... إلى أن يخلع الليل النهار

وإمساكهم عن بكاء قتلاهم حتى يثأروا لهم ، وفي ذلك يقول الربيع بن زياد في مقتل مالك بن زهير :

من كان مسروراً بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبنه ... يبكين قبل تبلج الأسحار[١]

وزعمهم أن القتيل إذا لم يثأر له تخرج من رأسه هامة (طائر) تصيح قائلة : « اسقوني » وتظل كذلك حتى يثأر له ، يقول ذو الأصبع العدواني :

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي
أضربك حيث تقول الهامة اسقوني[٢]

يقول أبو دؤاد الإيادي :

وكهول بني لهم أولوهم ... مأثرات يهابها الأقوام
سلط الدهر ، والمنون عليهم ... فلهم في صدى المقابر هام[٣]

---

(١) أيام العرب في الجاهلية ص ٢٥٧ .
(٢) كامل المبرد ١/ ٣٧٤ .
(٣) الأصمعيات ص ١٨٧ ب ١٥ .

ومن عاداتهم المتصلة بالحرب « النسيء » ، فقد كانوا يؤرخون المحرم في الغالب شهرا ، ويعدون القدرة على النسيء مفخرة ، يقول شاعرهم :

ونحن الناسئون على معد　　شهور الحل نجعلها حراما

وجزّ ناصية الأسير عند العفو عنه وإطلاق سراحه ، تقول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم　　وكانوا يظنون ألا تجـزّى [١]

ولما كان أبو الطمحان القيني أسيرا في يد بجير بن أوس ، فمدحه أبو الطمحان بقصيدته التي منها :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم　　دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبـه

فأطلقه بجير وجز ناصيته [٢] .

وعرف عنهم أنهم « كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدوا لسانه بنسعة خوفا من الهجاء ، كما صنعوا بعبد يغوث بن صلاءة حينما أسرته بنو تيم يوم الكلاب ، وفي هذا يقول :

أقـول وقـد شـدوا لسانـي بنسعـة　　أمعشر تيم أطلقوا من لسانيـا »[٣]

وكانوا يزعمون أن المقاليت ، وهن اللائي لا يبقى لهن ولد ، إذ أوطئت إحداهن قتيلا شريفا بقي ولدها ، وفي ذلك يقول بشر بن أبي خازم :

---

(١) ديوان الخنساء .
(٢) الأغاني ١١/١٢٧ .
(٣) البيان والتبيين ٣/٢٣٦ .

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن ألا يلقى على المرء مئزر [١]

* * *

أرأيت - أيها المتلقي - كيف صور الشعر البيئة العربية والحيوات الجاهلية بكل أبعادها ومناحيها من ظواهر طبيعية وحياة عقلية وروحية واجتماعية وغيرها ؟ وكيف ربط الشعراء الأحداث بما شاع في مجتمعهم من قيم وعادات وتقاليد وأوهام ؟ وكيف عرف التحضر طريقه مبكرا إلى أمة العرب في الجاهلية ؟ وكيف ذاب الشاعر في مجتمعه ، فصور نفسه ورسم خاطره على لوحة هذا المجتمع الحبيب إلى نفسه وخاطره ؟ .

ولعلك لمست بعد هذا التطواف أن الجاهلية لا يمثلها بصدق ودقة إلا الشعر الجاهلي ، وأن الدعاوي الغوغائية لا تثبت أمام الحقائق الممحصة ، والحيثيات التي لا يتطرق الشك إليها .

لقد خلد العرب حياة الجاهليين ، فبقيت في الشعر ، كما بقيت حياة الأمم الأخرى في الصور والنقوش والرسوم على صفائح القصور والقبور والمعابد .

* * *

---

(١) عيار الشعر ص ٤٣ .

الشعر ومكانته في الجاهلية

عدّ العرب الشعر فنا جميلا ، وأدبا رفيعاً ، فلم يكن في حياتهم الأدبية أكرم مظهراً منه ، وقد نحرت القبائل مجتمعة على أعتاب أوزانه وقوافيه لهجاتها المحلية ، واصطلحت على لغة أدبية موحدة ، ينظم فيها الشعراء على اختلاف أصقاعهم شعرهم ، وهي لغة قريش ، وغدت الآفاق العربية في كل الأقاليم تطرب للشعر وتتحمس له في لغته الأدبية الموحدة ، لذلك نشط الشعر ، واحتفت به الأفئدة ، وذاعت شهرة الشعراء بين ربوع القبائل المختلفة .

والأدباء متفقون على أن الكلام لا يسمى أدبا إلا إذا اجتمعت له روعة التأثير ، وبراعة الفكرة ودقة المعنى ، وجمال العبارة ولطف الأسلوب وإشراقة ديباجته ، والكلام عندما تتوفر فيه هذه السمات يأخذ أحد لونين :

لأنه إما أن يراعي سلامة الفكرة وصحة المنطق واستقامة أركان الكلام ، دون تقيد بوزن ولا قافية ، فهو هو النثر .

وإما أن يحرص على إشراق الخيال ، وحلاوة اللفظ ، وجمال المعنى ، ومتانة السبك مع التأثير في النفس ، والخضوع لقيود الوزن والقافية ، لهذا هو الشعر .

والشعر من الشعور ، وما سمي الشاعر شاعراً إلا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، ولما كان الشعر شعوراً منبعثا عن النفس ، ووجداناً طبيعيا في تركيب الخلقة ذات الموهبة ، شبيها بحلاوة الحلوق التي هي أساس لحون الغناء ، فإن كليهما قديم على الزمن .

وهو - أي الشعر - بهذه المثابة لا يتميز عن النثر ، وإنما تميزه عنه أقيسة الوزن والقافية .

وقد اختلف العلماء في تعريف الشعر ، لكن الرأي السائد والذي عليه الجمهور هو : اشتراط الوزن ووحدة القافية .

وعلى هذا فليس هنالك ما يسمى بالشعر « الحر » إلا تجوّزاً وتسامحا .

وأجمع العلماء على أن الشعر يجب أن يصدر عن الطبع ، وأن يستحوذ على الجمال الفني ، وأن يتمتع بلطف التخيل ، وإلا فهو نظم لا شعر - كألفية ابن مالك مثلا - ، وخلو الكلام من الوزن والقافية يفقده خاصية من خواص جماله وتأثيره ، وهي خاصية الإيقاع الموسيقي الذي يتجلى في تلك الوحدات العروضية المخصوصة ، والالتزام بحرف واحد في آخر كل بيت هو حرف الروي .

والقدماء لم يغفلوا هذا الجانب عندما تناولوا الشعر بالبحث [1] .

والشاعر البارع يحلق بك في سماء خياله ، ويحمل إلى خيالك في تماثيل ألفاظه صور الأشياء متمثلة في حللها الطبيعية ، حتى لتكاد تراها ماثلة بين عينيك .

وقد وجد الناس لهذا الكلام الخاص لذة وطربا يدفعه عن مستوى الكلام المعتاد ، فراحوا يتناقلونه ويتداولونه .

---

(١) يقول قدامة بن جعفر - في كتابه « نقد الشعر » - : إن الشعر قول موزون مقفى يدل على معنى ، ويقول ابن رشيق - في كتابه « العمدة » - : الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء : وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية ، فهذا هو حدّ الشعر .

وقد كان العرب يزعمون - إزاء ما يلمسون في الشعر من خصائص جماليّة وتأثيريّة - أن لفحول الشعراء شياطين ينفثون على ألسنتهم هذا الفن الرائع ، يقول راجزهم :

إنـي وإن كنت صغيـر السنّ   وكـان فـي العـين نبـوّ عنـي
فإن شيطانـي أميـر الجـن   يذهب بي في الشعر كل فن

ويقول أبو النجم العجلي :

إني وكل شاعـر من البشر   شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وقد امتاز العرب بهذا الشعر ، وتفوقوا فيه على سائر الأمم ، وهذا إنما يرجع إلى أن العرب أوْلَوا هذا الفن الجميل اهتماماً كبيرا وجعلوه صناعتهم ، ولم يميلوا إلى الفلسفة أو ما يماثلها ، وأن للبيئة والحياة البدوية التي من شأنها ، أن تجعل الطبائع البشرية أقوى وجوداً وأشد التهاباً وأكثر تأثراً ، الأثر الذي لا يخفى ، علاوة على ما فطرت عليه النفس العربية من صفاء ، وما اشتملت عليه العواطف البدوية من قوة ، وما تأثرت به من طول التأمل فيما حولها ، إلى جانب أن الشعر عندهم كان وسيلة من وسائل الدفاع والمحاماة ؛ كان لهذا كله أثره في شاعرية العرب التي لا تجحد .

ولقد كان للشعر في الجاهلية المكان الأسمى والمنزلة الأسنى ، ولا غرو - فهو لسان الدفاع عن القبائل والنيل من الأعداء ، وهو السجل الحافل بالأخلاق ، والديوان الزاخر بالفضائل ، يقول أبو تمام :

ولولا خلال سنها الشعـر ما درى   بناة العـلا من أيـن تؤتـى المكـارم

ويقول ابن سلام : كان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ، ومنتهى

حكمهم ، به يأخذون وإليه يصيرون [١] .

ولمكانة الشعر بين القبائل ، وحاجتها إلى هذا اللسان المدافع ـ الذي يسجل مآثرها ، ويفخم شأنها ، ويذود عنها بالتهويل على عدوها ، والإشادة بفرسانها وصناديدها ـ كانت تقام الحفلات ، وتقدم القرابين ، إذا ما نبغ شاعر في قبيلة .

ولقد عرف عمر بن الخطاب ﷺ مكانة الشعر وأثره فقال [٢] : الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه . وكتب إلى أبي موسى الأشعري : مر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب .

وقال معاوية : يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب .

إن نفس الشاعر البعيدة الغور ، الواسعة اتساع الأبد ، تهتاج وتنفعل ، وينصهر فيها من المعاني والأخيلة والمشاعر والأحاسيس ما ينصهر ، وإذا هي ـ وقتئذ ـ تموج وتضطرب ، وإذا هي في فيض الإلهام وجلال الفكر قبس ينير معالم السارين ، ويدندن في الآذان أعذب الألحان ، فيطرب السمع لبديع السحر .

ولقوة تأثير الشعر في النفوس وصف العرب القرآن بأنه شعر ، ووصفوا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر .

والشاعر مرآة صادقة لحياة الأمة التي يحيا بجوانحه بين أحضانها ،

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٢٢ .
(٢) الحيوان للجاحظ ١/٣٦٣ .

فشعره من أجل نفسه ، ومن أجل أمته التي هو جزء لا يتجزأ منها .

وليس في مقدور كل إنسان أن يكون شاعراً ، وذلك لأن الشاعر يستطيع بإحساسه الراقي أن يختار ألفاظا ذات إيحاء مشع ، تقوي تصويره ، وتوضح الدلالة على مراده ، فالكلمات والعبارات في الشعر يقصد بها بعث صور إيحائية .

وبعد : فلقد نال الشعر الحظوة والمكانة عند الجاهليين ، صفوتهم وسوادهم ، سادتهم ومسوديهم ، إذ كان للشعر النصيب الأوفى في توحيد مشاعرهم وتشابه طباعهم وعاداتهم ومُثلهم ، وصقل لغتهم وتوحيد لهجاتهم ، ولهذا كان للشعر انتشاره وسيرورته ، حتى قالوا في المثل : « أسير من شعر » ، ويقول الميداني : لأنه يرد الأندية ويلج الأخبية سائرا في البلاد مسافرا بغير زاد [1] ، وما يكاد الشاعر يلقي قصيدته حتى تذيع بين الناس وتنتشر ، وفي ذلك يقول عميرة بن جعيل حين هجا قومه ثم ندم ، ولات ساعة مندم ، فقد شاع ذلك الهجاء وذاع ، وتناقلته البطاح والبقاع :

ندمت على شتم العشيرة بعدما
مضت واستتبَّتْ للرواة مذاهبه
فأصبحت لا أستطيع دفعا لما مضى
كما لا يَرُدُّ الدَّرَّ في الضرع حالبُه [2]

وكان الشاعر عندهم صاحب المقام الأعلى في إثارة الحروب وإطفاء الفتن والتنويه بمفاخر القبيلة .

---

(١) مجمع الأمثال ١/ ٣٥٤ .
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢/ ٦٥٠ .

ومما يؤكد أثر الشعر في نفوس العرب في الجاهلية ، وعظم مكانته بينهم ، أنه كان يوجّه مشاعرهم وأهواءهم ، وكم « بنى الشعر لقوم بيوتا شريفة ، وهدم لآخرين أبنية منيفة » :

وما هو إلا القول يسري فتغتدي   لـه غُـرَرٌ في أَوْجُهٍ ومواسم[١]

ولا عجب ! فهم ذوو نفوس شاعرة ، وطباع ثائرة ، يستفزهم الرغب والرّهب ، ويزدهيهم الطرب والغضب ، فلا بدع إذا كان الشاعر يُغويهم ويرشدهم ، والبيت الواحد يقيمهم ويقعدهم .

لقد كان الشعر يرفع الوضيع ويضع الشريف ، فمثلا : حين أنشد الأعشى قافيته في المحلّق الكلابي ـ وكان رجلا اصطلح عليه الفقر وخمول الذكر وكثرة البنات ـ والتي منها :

أرِقتُ وما هذا السهاد المؤرِّق ؟   وما بي من سقم وما بي تعشّقُ !!
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها   وبات على النار الندى والمحلق
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه   كما زان متنَ الهند وأنى رونق

سار ذكر المحلق وحسنت حاله وتزوجت بناته .

ولما هجا حسان بن ثابت بني عبد المِدان ـ وكانوا أشرافا طوال الأجسام ـ بقوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ   جسم البغال وأحلام العصافير

عيرهم الناس بذلك ، ثم استرضوه ، فقال يمدحهم :

---

(١) راجع زهر الآداب للحضري القيرواني ١/ ٢٢ .

وقـد كنا نقـول إذا رأينا   لذي جسم يُعَدّو ذي بيان
كأنك أيهـا المُعْطَى بيانـا   وجسما من بني عبد المِدان

فعادوا إلى سيرتهم الأولى .

كما كان بنو أنف الناقة يتوارون من هذا الاسم ، وظلوا كذلك ، إلى أن نزل بهم الحطيئة ، فأحسنوا مثواه ، فقال فيهم :

سيري أمام فإن الأكثرين حصا   والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم هم الأنف والأذناب غيرهم   ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا ؟!

فصاروا بعد ذلك يفتخرون على العرب ، ويتطاولون بهذا الاسم .

أرأيت كيف كان الشعر يرفع الوضيع ، ويضع الشريف ؟!

ظلت هذه مكانة الشعر والشعراء ، إلى أن كثر الشعر ، واتخذه الشعراء وسيلة إلى الكسب والثراء ، ورحلوا به إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس .

وقد كثر الشعراء في الجاهلية حتى ليكاد يكون لكل قبيلة شاعر أو شعراء ، ولكن ليسوا كلهم نابهين ؛ وكل الشعراء الذين علا صيتهم كانوا في الشمال ـ الحجاز وما إليها ـ ، فمنهم من كان من أصل يمني رحل إلى الشمال كامرئ القيس من كندة ، والأفوه الأودي من مَذحِج ، وحاتم الطائي من طيئ ، ومنهم من كان من أصل عدناني إما من ربيعة كالمهلهل ، والمرقشين الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، والحارث بن حلوة ، وسعد بن مالك ، والمتلمس ، والأعشى ، والمشيب ، وعمرو بن كلثوم ، وإما من مصر وأشهر فروعها في الشعر : فرع قيس ، وكان منهم النابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وابن كعب ، وعنترة ، ولبيد ،

وخداش بن زهير ، والحطيئة ، والنابغة ، والجعدي ، والشمّاخ ، وفرع تميم : وكان منهم أوس بن حجر .. وقد ذكر بعض مؤرخي الأدب أن الشعر كان أول أمره في ربيعة ، ثم تحول في قيس ، ثم آل الشعر إلى تميم فاستقر فيهم .

* * *

قليلٌ أولئكم الذين كانوا يكتبون من العرب في الجاهلية ، ونادرٌ أولئكم الشعراء الذين كانوا يدوّنون مقطوعاتهم وقصائدهم ، فما قيل في المرقش الأكبر [١] من أنه كتب على بعض الرِّحال قصيدة له ، حين وقع أسيرا في يد بعض العرب [٢] لا يمكن أن يُقال في كثير غيره ، وما قيل من أن بعض الشعراء استخدم الكتابة بلاغا شعريا لقومه في بعض ما حَزَبَه من الأمر [٣] ، فما أَقلّ هذا البعض . ولعل لقيط بن يعمر الإيادي الكاتب والمترجم في ديوان كسرى - يأتي في صدر هذه القلّة ، فإخباره قومه بعزم كسرى على البطش بهم ، واستعدادهم وانتصارهم على جيش كسرى في موقعة « دير الجماجم » أمر فاضت به كتب التاريخ والأدب :

أبلغ إيادا وخلِّل في سَراتهمُ
إني أرى الرأى ، إن لم أُعْصَ ، قد نصعا
يا لهف نفسي إن كانت أموركمُ
شتى ، وأُبرم أمرُ الناس فاجتمعا ...
ماذا يرُدّ عليكم عزّ أولكم
إن ضاع آخرُه ، أو ذَلّ واتّضعا
يا قوم لا تأمنوا ، إن كنتمُ غُيُرا
على نسائكُم ، كسرى وما جمعا

---

(١) الذي كان يحسن الكتابة ويقول :
الدار قفر والرسوم كما ... رقّش في ظهر الأديم قلم
(المفضليات ٢٣٧) .

(٢) الأغاني ٦/ ١٣٠ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد .

هو الجلاء الذي تبقَى مَذلتُه
إن طار طائرُكم يوما وإن وقعا
قوموا قياما على أمشاط أرجلكم
ثم افزَعوا قد ينال الأمنَ من فزعا
وقلّدوا أمركم ، لله دَرُّكمُ
رحبَ الذراع بأمر الحرب مُضطلعا ...
هذا كتابي إليكم والنذير لكم
لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا ..(١)

وليس بين أيدي الباحثين دليل ماديّ على أن الجاهليين كانوا يحفظون أشعارهم بالتقييد ، أو أنهم كانوا يستخدمون الكتابة أداة في نقل أشعارهم إلى من يلُونهم ؛ فالكتابة لم تكن أداة لحفظ الشعر الجاهلي ودواوينه ، إذ كان الجاهليون يعتمدون في الشعر على الرواية ، وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها ، ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفويّة (٢) .

ومن هنا ضاع معظم الشعر الجاهلي ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » (٣) ، وقد عُرف الشاعرُ الخنذيذ الذي يجمع إلى جيد شعره رواية الجيد من شعر غيره ، والشاعر الفحل ، الذي يجيد الشعر ولا يروي لغيره .

---

(١) راجع: الشعر والشعراء ١١٧ ، ١١٨ .
(٢) راجع : العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ص ١٤٠ وما بعدها .
(٣) الخصائص لابن جني ١/ ٣٩٢ .

والشعر الجاهلي يثبت أن الرواية هي وسيلة انتشاره وذيوعه في القبائل ، فهذا المسيَّب بن علس يقول [(١)] :

فلأُهدِيَنّ مع الرياح قصيدة منّي مغلغلةً إلى القعقاع
تَرِدُ المياه فلا تزال غريبةً في القوم بين تمثُّل وسماع

وقد كان للشاعر راوية أو أكثر من راوية ، يلزمه وينقل عنه شعره ، بل إن الشعراء يروي بعضهم عن بعض ، وكانت هناك طائفة تتخذ الرواية مهنة وحرفة هي طائفة الشعراء ، فالشاعر النابه يلزمه صغار الشعراء يأخذون عنه ويروون ، ويتأثرون بأسلوبه الفني ويتمرسون ، حتى تنفتق ألسنتهم ، وتتفتح عن أكمامها ومواهبهم ، ويسيل عليهم ينبوع الشعر والفن ، ذكروا أن امرئ القيس كان راوية لأبي دُوَاد الإيادي ، والأعشى كان راوية للمسيب بن علس ، وطرفة كان راوية للمتلمس ، وأن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة بن جُؤْية الهذلي ، وأن زهيرا كان راوية لأوس بن حجر التميمي ، وبشامة بن الغدير ، وعن زهير أخذ ابنه كعب والحطيئة ، وعن الحطيئة روى هدبة بن خشرم العذري ، وعن هدبة روى جميل بن معمر ، وعن جمل أخذ كُثَيِّر بن عبد الرحمن المعروف بكثيّر عزّة [(٢)] ، وهكذا نجد سلسلة من الرواة الشعراء في مدرسة فنية متتابعة الحلقات .

ولم يكن الاهتمام برواية الشعر حكرا على الشعراء ، بل كان أفراد القبيلة يعضدونهم في هذا التوجّه ، كما كان حال التغلبيين الذين هجاهم الشاعر البكري لكثرة احتفالهم بنونية عمرو بن كلثوم ، قائلا [(٣)] :

---

(١) المفضليات ٦٢ . (٢) طبقات ابن سلام ٨٧ ، والأغاني ٨/ ٩١ .
(٣) الأغاني ١١/ ٥٤ .

ألهَى بني تغلب عن كل مكرُمة   قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يروونها أبدا مذ كان أولهم   يا للرجال لشعر غير مسئوم

ويتجاوز ذكر القصائد وحفظها أبناء القبيلة إلى القبائل الأخرى ، فينشدونها ويتمثلون بها في مجالسهم وأسواقهم ، فالشعر عندهم غذاء وطرب وسمر وعلم لم يكن لهم علمٌ أصح منه (١) .

وبقي هذا شأن الشعر حتى جاء الإسلام ، وعلى الرغم من انشغال العرب بالدين وانصرافهم إلى القرآن والفتوح ، فإنهم لم يهجروا الشعر ولم يتركوا روايته وسماعه ، وبقيت الرواية متصلة ، وكل ما يقال عن وقوف الإسلام في وجه الشعر والشعراء باطل لا حق فيه ، وكيف يكون ذلك وقد كان الرسول يستمع إلى الشعر ويسأل الشعراء أن ينشدوه ، فيستحسن منه ويدعو لقائليه ، ويجيز عليه الشعراء (٢) ، ينشدونه من شعر الجاهلية قول عنترة :

ولقد أبيتُ على الطَّوى وأظلُّه   حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فيعجبه إيثار عنترة وسماحة نفسه ، حتى إنه ﷺ ليقول : « ما وُصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » (٣) ، ويسمع قول لبيد ابن ربيعة :

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ   وكلُّ نعيم لا مَحَالةَ زائلُ

فيقول : « أصْدَقُ كلمة قالها الشاعر قول لبيد ... » (٤) ، وكانت

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٢ .
(٢) ينظر الإسلام والشعر ، د. يحيى الجبوري ص ٥٣ وما بعدها .
(٣) الأغاني ٨/ ٢٤٣ .
(٤) صحيح مسلم ٤/ ٧٦٨ .

عائشة أم المؤمنين كثيرا ما تنشد الشعر أو تتمثل بأبيات منه ، فيستمع الرسول إلى ذلك الشعر ويعلق عليه ، دخل عليها يوما وهي تنشد من شعر زهير بن جناب :

ارفعْ ضعيفَك لا يحُرْ بك ضعفُـه   يوماً فتدركُـه عواقـبُ ما جنـى
يَجزيك أو يُثنـي عليـك فـإن مَـنْ   أثنى عليـك بما فعلتَ كمن جـزَى

فيقول عليه السلام : « صدق يا عائشة ، لا يشكر الله من لا يشكر الناس » [١] .

وكان يستنشد أصحابه من شعر أمية بن أبي الصلت [٢] ، ويستمع للخنساء تنشده فيستزيدها [٣] ، ويستمع لحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ينشدونه من شعرهم ، فيشجعهم ويثني عليهم [٤] ، وأمْرُ كعب بن زهير مع النبي معروف مشهور ، وكذلك ما أعطاه من هدايا ، وينشده النابغة الجعدي قصيدته الرائية التي منها :

أتيت رسولَ الله إذ جـاء بالهـدى   ويتلـو كتابـاً كالمجـرَّة نيّـرا

فيعجبه قوله ويدعو له : « لا يفضض الله فاك » [٥] ، والأدلة كثيرة على إقبال الرسول على الشعر وعلى تشجيعه الشعراء واستنشادهم ، وبذلك ندفع ما يقال عن توقف الرواية ، وأن الإسلام كان معوقاً للشعر مثبطاً لهمم الشعراء [٦] .

---

(١) الشعر والشعراء ١/ ٣٨١ ، والعقد الفريد ٥/ ٢٧٥ .
(٢) طبقات ابن سعد ٥/٣٧٦ ، والأغاني ٤/ ١٢٩ - ١٣٠ .
(٣) نهاية الأرب ١٨/ ٢٦ .
(٤) العقد الفريد ٥/ ٢٩٤ ، والعمدة ١/ ٣١ .
(٥) الشعر والشعراء ١/ ٢٨٩ ، والأغاني ٥/ ٩ .
(٦) ينظر هنا قول ابن خلدون : « ثم انصرف العرب عن ذلك (أي الشعر) أول ==

وكذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ ، يتناشدون الأشعار ويروونها ويحكمون عليها ويستمعون إلى قائليها ، ولم يكونوا متزمتين ضيقي الصدور ، يروى أن الحسن البصري سئل يوما : « أكان أصحاب رسول الله ﷺ يمزحون ؟ قال : نعم ، ويتقارضون من القريض وهو الشعر » [١] ، ولم يعرض الصحابة عن الشعر ، ولم يتركوا روايته ، ما دام غير متعارض وأخلاق الإسلام وتعاليمه ، ذكر أبو سلمة وصفهم : « لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين ، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم ، فإذا أريد أحد منهم على شيء من أمر دينه ، دارت حماليق عينيه كأنه مجنون » [٢] ، وكانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أخبار الجاهلية في المسجد وعلى مسمع ومرأى من النبي ، وهو راض ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله ﷺ » [٣] .

واتصلت الرواية في عهد الخلفاء الراشدين ، وكان لهم نصيب من رواية الشعر وإنشاده وحفظه ، كان أبو بكر الصديق كثير الحفظ ، كثير الرواية ، واسع الاطلاع ، غزير المعرفة ، ولذلك فإن الرسول الكريم كان

== الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا » المقدمة ص ٥٨١ ، وتابعه في ذلك من المحدثين جرجي زيدان : « إن الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالفتوح » تاريخ آداب اللغة العربية ٢٢٢/١ .

(١) الفائق في غريب الحديث والأثر ٢/ ٣٣٩ .

(٢) ٢٧٥/١ .

(٣) الطبقات ـ ابن سعد ٢/ ٩٥ ، ٩٦ .

يسأله عن صحة ما يروى من الشعر [١] ، وكثيراً ما كان الصديق يستشهد في خطبه بأبيات مناسبة من الشعر ، كخطبته يوم السقيفة في مخاطبة الأنصار : « فنحن وأنتم كما قال الغنوي :

جزى اللهُ عنَّا جعفرا حين أزلفتْ   بنا نعلُنا في الواطئينَ فزلَّت
أبوا أن يَملُّونا ولو إن أمنا   تلاقي الذي يَلْقَون منا لملَّت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم   ظلالِ بيوتٍ أدفأتْ وأكنَّت[٢]

وكذلك كان عمر بن الخطاب يتمثل بالشعر في كل مناسبة ، حتى إن ابن سلام كان يقول : « لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر » [٣] ، وكان يعجب بزهير بن أبي سلمى ويستنشد الناس شعره ، يعجب به ويفضله على الشعراء لصفات أوجزها في قوله : « كان لا يعاظل في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه ... » [٤] ، وثمة آراء لعمر مبثوثة في كتب الأدب في الحكم على جيد الشعر ونقده والدعوة إلى تعلمه وحفظه ، وقد كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول : « مر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب » [٥] .

وعلى هذه الحال كان علي بن أبي طالب ، له علم وبصر ثاقب بالشعروالشعراء ، كان يستنشد الشعراء ويتمثل بالشعر ويقبل عليه ، بل كان نفسه شاعرا حفظت له كتب الأدب والتاريخ مجموعة من جيد

---

(١) التنبيه ـ البكري ص ٧٤ .
(٢) أدب الكتّاب ص ١٩٠ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٤١ .
(٤) الشعر والشعراء ١/ ١٣٨ ، والأغاني ١٠/ ٢٨٩ .
(٥) العمدة ١/ ٢٨ .

الشعر . أما ابن عباس فقد اتخذ من الشعر وسيلة لتفسير ما أشكل على المسلمين من ألفاظ القرآن الكريم ، وكان يدعو إلى معرفة الشعر للاستعانة به على فهم كتاب الله ، يقول : « إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه ، فأطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب [١] ، وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرا [٢] ، ولم تكن عائشة أم المؤمنين أقل من ابن عباس حفظا ورواية ، كانت تروي القصائد الطوال ، وكانت معجبة بشعر لبيد ، حتى قالوا : إنها كانت تحفظ له ألف بيت ، وكانت تتمثل بقوله :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وتقول : رحم الله لبيدا فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟! [٣] .

وقد كانت تتمثل بالشعر وتنشده بحضرة رسول الله ﷺ [٤] .

وحين قامت الحرب بين علي ومعاوية ، كان الشعر من أسلحة الحرب ، تهاجى به الفريقان المتقاتلان ، وأثار الشعراء همم الجنود ، وجادلوا فيه خصومهم ، وإن القبائل المتحاربة كانت تجد في إحياء تراثها من الشعر الجاهلي ، ترويه وتذيعه ، لأن فيه محامد القبيلة وأمجاد آبائها ، كما أنها كانت تقف على مثالب خصومها وما قيل فيهم من هجاء في الجاهلية والإسلام .

---

(١) العمدة ١/ ٣٠ .

(٢) شرح الحماسة - التبريزي ١/ ٣ .

(٣) الاستيعاب لابن عبد البر ٣/ ١٣٣٧ ، والإصابة لابن حجر ٥/ ٦٨٠ .

(٤) الشعر والشعراء ١/ ٣٨١ ، والعقد ٥/ ٢٧٥ ، والإحياء لعلوم الدين - الغزالي ٣/ ١٠٩ .

ومعنى هذا أن الرواية ظلت متصلة في صدر الإسلام ، لم تنقطع ولم تفتر ، وقد حدثت في الإسلام أحداث ساعدت على رواية الشعر وازدهاره .

وفي العهد الأموي نشطت الحركة الأدبية ، وعلت مكانة الشعر والشعراء ، وصارت مجالس الولاة والخلفاء منتديات أدبية تنشد فيها القصائد وتروى الأشعار ، ويتبارى الرواة في ذكر النادر والغريب من الشعر والأحاديث والأخبار ، وكان الخلفاء يشجعون الشعراء ويجزلون لهم الهبات والجوائز . وصار للرواة في هذه المجالس مكانة مرموقة ، فهم مقربون مكرمون ، يستدعيهم الخلفاء والولاة ليسمروا في مجالسهم ، ويحدثوهم أحاديث الجاهلية وأشعارها . كان معاوية يقرب عبيد بن شرية الجرهمي ويصغى إليه إذا حدثه ، ويستزيده ويسائله ، وكان يعجب من حديثه وكثرة حفظه وعلمه وحضور بديهته ، ويقال إنه كان يأمر أن تقيد أحاديثه بدفاتر ، فيفعل غلمانه [١] لم يكن هذا شأن معاوية وحده ، بل كان أكثر الخلفاء الأمويين على هذه الشاكلة ، وربما كان عبد الملك بن مروان أبرز الأمويين في ذلك ، لأنه هو نفسه كان حافظاً للشعر مقبلا عليه ، مجزلا العطاء للرواة والشعراء ، كان يستقدمهم من بلدانهم ويسائلهم ، وليس غريبا في هذا العصر أن يبردوا إلى العراق بريدا ليحضروا عالما من علماء الشعر والأيام ليسألوه عن بيت شعر أو قصيدة أو خبر من الأخبار ، أو يوم من أيام العرب [٢] .

وقد كثر المؤدبون في هذا العصر يعلمون الناشئة الشعر واللغة

---

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

(٢) التصحيف والتحريف ص ٤ .

والأخبار ، وقد كان عبد الملك يوصي مؤدب ولده أن يعلمهم الشعر : « روهم الشعر يمجدوا وينجدوا » [(١)] ، ويقول أيضا : « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فإن لكلامه عذوبة » [(٢)] ، ومن هؤلاء المؤدبين كان المفضل الضبي والكميت والطرماح [(٣)] .

وقد كان هؤلاء الرواة والمؤدبون يتنافسون في حفظ الشعر ومعرفة فنونه وغريبه ، واستقصاء أشعار القبائل والوقوف على ما خلف الشعراء من شعر جيد ، فتراهم في هذا العصر يلقون الأعراب حين يفدون إلى البصرة أو الكوفة ، يأخذون عنهم ويدونون أقوالهم ، أو يرحلون إليهم في بواديهم ليشافهوهم ويدونوا عنهم الشعر واللغة والأخبار .

وكما كان الرواة في الجاهلية يلزمون الشعراء يروون عنهم ويذيعون شعرهم ، فكذلك كانوا في هذا العصر ، من هؤلاء الرواة شعراء يروون الشعر ليتعلموا ، ومنهم من لم يكن شاعراً ، بل اتخذ الرواية حرفة وعلماً أتقنه وبرع فيه . وهؤلاء هم الذين كانوا يصلحون أخطاء الشعراء وينقحون شعرهم ويهذبونه ، روى أبو الفرج عن شيخ من هذيل أنه زار الفرزدق ، ثم دخل على رواته فوجدهم يعدلون ما انحرف من شعره ، وكذلك دخل على جرير فوجد رواته يصلحون ما في شعره من سناد [(٤)] .

ولم يكن الشعراء أقل من الرواة إقبالا على الرواية والتماسا بها ، بل كانوا يحفظون الكثير من الشعر الجاهلي ، ويروون لشعراء الجاهلية ،

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٧٤ .
(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٦٧ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٥١ ، ٢/ ٣٢٣ .
(٤) الأغاني ٤/ ٢٥٨ .

ليقفوا على مذاهبهم ومداخل شعرهم ، وليقتفوا بعد ذلك أثرهم في صناعة الشعر ، هذا سراقة البارقي (توفي حوالي ٧٩هـ) يسجل في إحدى قصائده ثقافته الغزيرة واطلاعه وحفظه الكثير من الشعر الجاهلي ، يقول (١) :

ولقد أصبت من القريض طريقةً أعيت مصادرها قرينَ مُهَلْهَلِ
بعد أمرئ القيس المنوَّه باسمه أيامَ يهذي بالدخول فحَومل
وأبو دُواد كان شاعرَ أمة أفلَتْ نجومهم ولَمّا يأفَلِ
إني فتى أدركتُ أقصى سَعيهُم وغَرفتُ من بحرٍ وليس بجدولِ

وهكذا يذهب بعدد مجموعة كبيرة من شعراء الجاهلية الذين وقف على شعرهم وأفاد من طريقتهم .

وقد تظافرت جهود كثيرة لجمع الشعر وروايته وحفظه ، فإلى جانب الرواة والشعراء ، كانت هناك فئة من القصاص الذين يجتمع حولهم الناس في المساجد ، يقصون عليهم ويعظونهم ويتمثلون بالشعر في أحاديثهم ، وكذلك كان المؤرخون ورواة السير النبوية وغزوات الرسول ، من مثل أبان بن عثمان ، وعروة بن الزبير ، ومحمد بن إسحاق الذين كانوا يعنون بالشعر الذي قيل في الغزوات والأيام .

وفي منتصف القرن الثاني نجد جمهرة من الرواة والعلماء المحترفين انصرفوا للرواية وتفرغوا لها ، فشهروا بكثرة حفظهم وسعة علمهم وإحاطتهم باللغة والشعر والأخبار والأيـام ، وانطلقوا نحـو البادية يأخذون عن الأعراب يقيدون شعرهم وأخبارهم الجاهلية

(١) ديوان سراقة البارقي ص ٦٤ - ٧١ . وكذلك فعل الفرزدق (ت ١١٠هـ) فله قصيدة في هذا المعنى ، ينظر ديوانه ص ٧٢٠ .

والإسلامية ، ولعل أبرز هؤلاء الرواة المتقدمين : محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦هـ) ، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) ، وحماد الراوية (ت ١٥٦ أو ١٦٤هـ) ، والمفضل الضبي (ت ١٧٠هـ) ، وخلف الأحمر (ت ١٨٠هـ) .

وقد بدأت حركة جمع الشعر والعناية به أولا للحفاظ على القرآن الكريم ومعرفة تفسيره ، فمنذ ابن عباس كان المفسرون يستعينون بالشعر على معرفة ألفاظ القرآن ، فكان ابن عباس يوصي الناس أن يلتمسوا تفسير الكتاب في أشعار العرب : « إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فأطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب » [1] ، كما نشطت جماعة أخرى تجمع الشعر وتدرسه لتستنبط منه قواعد اللغة ومعرفة حركاتها ، حفاظا منها على لغة القرآن وضبط حركاته ، ووجد كل أولئك في الشعر الجاهلي بُغيتهم ؛ وهكذا نشطت الرواية واتسعت دائرة التدوين والتأليف ، وقامت على أسس من العلم المنظّم ، وقد صار الرواة في هذا العصر مدرستين : كوفيّة وبصريّة ، لكل مدرسة منهجها وأسلوبها .

نعم ! اتجه علماء البصرة والكوفة في أواسط القرن الثاني للهجرة إلى جمع ما بقي من الأشعار القديمة لمن بعدهم من الأجيال ، كانوا يجمعون حينا لشعراء معينين ، وحينا يختارون مجموعات شعرية لقبائل أو طبقات معينة ، وقد يجمعون مختارات أو منتخبات نفيسة يرونها أحق بالتقديم وأولى بالاختيار والترجيح ، كما فعل حماد الراوية المشهور حين جمع سبع قصائد من عيون الشعر سماها بالسموط أو المعلقات دلالة

---

(١) العمدة ١/ ٣٠ .

على نفاستها ونقاء جوهرها ، وهذه القصائد هي معلقات امرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم وعنترة والحارث بن حلّزة .

وإلى جانب مختارات حماد كانت هناك منتخبات أخرى لمعاصره ومنافسه المفضل بن محمد بن يعلي الضبي المتوفي سنة ١٦٤ أو سنة ١٦٨هـ ، فإن أبا جعفر المنصور جعله مؤدبا لابنه محمد المهدئ ، فاختار لتأديبه مائة وعشرين وثماني قصيدة ـ على رواية تلميذه « ابن الأعرابي » ـ ، وبينها بعض مقطوعات ، لسبعة وستين شاعراً ، منهم سبعة وأربعون شاعرا من شعراء الجاهلية ، وأربعة عشر شاعراً من المخضرمين ، وقد سميت هذه المختارات بالمفضليات نسبة إلى المفضل .

« ثم جاء الأصمعي المتوفي سنة ٢١٦هـ ، فأراد أن ينسج على منوال حماد والمفضل ولكنه لم يجد إلا نخبة متواضعة تحوي ثنتين وسبعين قصيدة ومقطوعة لواحد وستين شاعراً من شعراء الجاهلية وقد سميت بالأصمعيات » .

على أن هذه الأصمعيات على الرغم من شهرة الأصمعي لم تلق من الذيوع والشهرة والقبول ما لقيته المفضليات ، لأنها كانت أقل اشتمالا على الغريب ، ولأن الأصمعي عمد فيها إلى اختصار الرواية .

وفي أواخر المائة الثالثة للهجرة جمع أبو زيد القرشي مجموعة تشتمل على تسع وأربعين قصيدة سماها جمهرة أشعار العرب ، وهي مجموعة سباعية على سبعة أقسام ، وهي : (١) المعلقات السبع (٢) المجمهرات (٣) المنتقيات أي المختارات (٤) المذهبات (٥) المراثي (٦) المشوبات ، سميت بذلك لأنها لمخضرمين شابهم الكفر والإسلام (٧) الملحمات .

وقد غلبت في جميع أقسامها قصائد الشعراء الجاهليين ، ما عدا القسم الأخير فإنه خاص بشعراء العصر الأموي .

وجمع هبة الله العلوي بن أحمد الشجري المتوفي سنة ٥٤٢هـ مختاراته أشعار العرب ، وهي كسابقتها ضعيفة السند ، ومنتقاة من شعر جاهلي وإسلامي ، وهي موزعة على ثلاثة أقسام ، اختار القسم الأول من دواوين المتلمس وطرفة والشنفري ولقيط الإيادي ، كما أخذ القسم الثاني من دواوين زهير وبشر بن أبي خازم وعبيد بن الأبرص ، وكان القسم الثالث مختارات من ديوان الحطيئة .

وجمع محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون المتوفي سنة ٥٨٨هـ مجموعة تحتوي على ألف قصيدة ، وسماها منتهى الطلب من أشعار العرب .

وظهر كذلك نوع جديد من المنتخبات في أيام العباسيين ، هي القطع المأثورة التي استجادها المختارون ، إذ لم يعد أحد يطيق الصبر على قراءة القصائد الطوال ، وأقدمها ما جمعه أبو تمام وهو عائد من خراسان إلى العراق ، وقد سمي بالحماسة تسمية له بأول أبوابه .

وجمع البحتري مختارات سميت كذلك بالحماسة ، وألف أيضاً الأَخَوَان أبو عثمان سعيد المتوفي حوالي ٣٥٠هـ ، وأبو بكر محمد المتوفي سنة ٣٨٠هـ ابنا هاشم الخالدي ، وكانا من شعراء سيف الدولة الحمداني كتاب الأشباه والنظائر أو حماسة الخالدين .

وجمع الأدباء عدا المختارات ودواوين الشعر الخاصة كأمرئ القيس وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة ، دواوين للقبائل ، ولم يبق من ذلك إلا ديوان هذيل ، وأقل شعرائه جاهليون وأكثرهم إسلاميون .

وقد ذكر الأغاني أن الأصمعي جمع أشعار بني جعدة ، وجمع كذلك أشعار الأنصار، وجمع السكري أشعار اليهود ، وأكمل هذه المجموعة محمد بن جعفر الطيالسي ، وصنف أبو سعيد السكري كتاب أخبار اللصوص ، وجمع فيه أشعار لصوص البدو المشهورين ، وفي هذا الكتاب ديوان طهمان بن عمرو الكلالي الذي عاصر عبد الملك بن مروان .

تلك أهم المصادر التي يمكن أن نستقي منها أشعار الجاهلين .

وبعد فإن لنا بعد هذا التطواف نتيجتين هامتين :

الأولى : أن رواية الشعر الجاهلي لم تنقطع ، ولم يلهُ الناس عن الشعر ، بل ظلت الرواية متصلة مستمرة منذ العصر الجاهلي واستمرت زمن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ونشطت وازدهرت في عصر الأمويين حتى رست في القرن الثاني عند العلماء الرواة المحترفين ، الذين نهضوا بالرواية وعلوم العربية نهضة زاهية زاهرة ، كان من شأنها أن جمعت الشعر ودونته وألفت فيه شتى المؤلفات .

ولا يصح كذلك ما يقال عن انقطاع الرواية وانصراف الناس عن الشعر أول الإسلام ، ووقوف الإسلام عائقا بوجه الشعر والشعراء ، وما إلى ذلك من الأمور الخاطئة المتوهمة ، واتصال الرواية واستمرارها وتوثيقها يدفع التهمة التي تذهب إلى أن الرواة المتأخرين لفقوا هذا الشعر على بعد الشقة بينهم وبين الجاهليين ، وما دامت الرواية قد وردت متصلة بسلسلة محكمة لا فجوة فيها ولا انقطاع ، فلا يمكن أن يدخلها التزوير بالشكل الذي توهمه المتأخرون قد يصح أن كثيرا من

الشعر ضاع وسقط في الطريق فلم تحفظه الحافظة [1]، وصحيح هو قول أبي عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » [2] ، ولكن أن يكون ذلك التراث الضخم مصنوعاً ملفقا من رواة عرفناهم ونبهنا كما نبه الأقدمون على رواياتهم ، فأمر تدحضه الرواية المتصلة المحكمة .

الأخرى : أن الشعر لم يكن ألعوبة بيد قلة قليلة من الرواة الوضاعين ، بل كان وراءهم علماء ثقات أثبات يصححون ويمحصون وينقدون ، ولم ينقلوا من الشعر إلا الصادق الصحيح كأبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وغيرهم ، ولدقة هؤلاء ونباهتهم ونقدهم ، فقد قدمهم ابن القطان على رواة الحديث ، لمزية النقد التي عرفوا بها ، قال ابن سلام : « حدثني يحيى بن القطان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعا كثيرا ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع » [3] . وما دام الباحث حذرا من الرواة المتهمين ، بصيرا بهم ، مهملا لرواياتهم ، فلا بأس عليه بعد ذلك أن يطمئن إلى روايات الثقات من العلماء ، وبخاصة تلك التي أجمع على صحتها أعلام الرواية الموثقين ، وقد قرر ابن سلام هذا المنهج منذ القديم حين قال : « وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » [4] .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٢٢ .
(٢) طبقات الشعراء ص ٢٢ ، والخصائص ١/ ٣٩٢ .
(٣) ذيل الأمالي ص ١٠٥ .
(٤) طبقات الشعراء ص ٦ .

قضية الانتحال [1]

لن أبحر طويلاً في محيط قضية الانتحال ، لكثرة الذين خاضوا غمارها ، إنْ إيجابا أو سلبا ، فهي قديمة جديدة ، وذلك لأن الشعر لم يُدوّن عقيب صدور ، فلم يدوّن إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة ، ومن قبلُ كان يعتمد في نقله على الألسنة ، فكان بعضه لذلك مظنة للتبديل والاختلاف والتزويد ، بيد أن ذلك لم يكن غائبا عن الأقدمين ، فقد عرضوه على نقد دقيق داخلي ـ من جهة الصيغ والألفاظ ـ ، وخارجي ـ من جهة الرواة ـ ، فمحصوه وأحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت ، وهؤلاء الأثبات الثقات قد عرفوا الحق وعزّ عليهم أن يروه مظلوما ، ثم كانت الضجّة الصاخبة والجلبة الهوجاء التي أثار عاصفتها حديثا بعض المستشرقين من أمثال : نولدكه ومرجليوث وبروكلمان وبلاشير الذين راحوا يلقون القول على عواهنه ، ويبالغون في الشك في الشعر الجاهلي مبالغة انتهت بهم إلى رفضه ، رفضا لا يُبقي منه على شيء ولا يذر ، دونما حجة علمية تسندهم ، أو برهان عقلي يؤيدهم ، وتابعهم في هذا الجموح ، في عناد ومكابرة واندفاع الدكتور طه حسين ، فنفخ في بوقهم ، وجرى في مضمارهم .

---

(١) راجع في هذه القضية : الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ـ د. محمد هاشم عطية ، الأغاني للأصفهاني ، تاريخ آداب العرب للرافعي ، تاريخ الأدب العربي لبلاشير ، الشعر الجاهلي ـ د. يحيى الجبوري ، الشهاب الراصد ـ محمد لطفي جمعة ، طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، العصر الجاهلي ـ د. شوقي ضيف ، في الأدب الجاهلي ـ د. طه حسين ، مصادر الشعر الجاهلي ـ د. ناصر الدين الأسد ، مقدمة لدراسة بلاغة العرب ـ د. أحمد ضيف ، النقد التحليلي للغمراوي ، نقد كتاب الشعر الجاهلي ـ محمد فريد وجدي ، نقض الشعر الجاهلي ـ محمد الخضر حسين ، موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي ـ محمد رجب البيومي .. وغيرها .

وقد نسف ادعاءاته ثلة من الغيورين الذين يحقون الحق أمثال الأستاذ محمد الخضر حسين والأستاذ محمد فريد وجدي والأستاذ محمد لطفي جمعة والأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، تؤاخي المشاعر الوجدانية في أقوالهم المنازع التفكيرية .

على أن ما بين أيدينا من شعر الجاهلية ، وكذلك شعر صدر الإسلام ، لا يصح أن يقبل على أنه كله صحيح لا ريب فيه ، كما لا يصح أن يرفض على أنه جميعه باطل لا نفع فيه ، وإنما يؤخذ بالتنقية والتنقيح والفحص والتمحيص ، وقد كفانا أثبات العلماء وأنباه الرواة هذه المئونة ، فمنه الصحيح الذي لا غبار عليه ، وقد وثقه الرواة ، وشهد بصحته الناقلون الثقات ، ومنه الفاسد المصنوع أو المنسوب إلى تلك الفترة ، وقد رفضه النقاد ونبهوا عليه .

لم يكن ابن سلام الجمحي (ت ٢٣١هـ) صاحب قصب السبق في هذه القضية ، وليس بأول من فطن إلى الانتحال ، إنما هو مسبوق بأمثال أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) والمفضل الضبي (ت ١٦٨هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١هـ) والأصمعي : عبد الملك بن قريب (ت ٢١٥هـ) وغيرهم ، قد بينوا كثيرا مما انتحل ، ووقفوا عنده وقفات سجلتها كتب الأدب ، وقفوا عند البيت والمقطوعة والقصيدة ، وأبدوا أحكامهم في صراحة وصدق ، وافقهم من وافقهم ، وناقشهم من ناقشهم ، وجاء ابن سلام فنقل ذلك وأضاف إليه من ملاحظاته الشخصية ، ولهذا فابن سلام يعدّ رأس الذين بحثوا قضية الانتحال بحثا منظما مستفيضا في كتابه « طبقات فحول الشعراء » ، وقد عزا أسباب الوضع في الشعر إلى عاملين : العصبية القَبَلِيّة ، والرواة الوضّاعين ،

وهأنذا أختصر لك أيها المتلقي ما قاله الدكتور محمد هاشم عطية في كتابه : « الأدب العربي وتاريخه » ، فإن فيه الغناء :

« لم يغب عن تمييز العلماء من السلف ما أُدْخِل في هذا الأدب مما ليس منه ، ولم يَفُتْهم التنبيه على ما كان من تلفيق الرواة ووضع الدسَّاسين من أهل الأهواء ، وإنا نسوق نصوص هذه الأقوال بجملتها ليحقّ الله الحقّ ويبطل الباطل ، فنقول : ذَكَرَ أَبُو عبد الله محمد بن سلام الجمحي المتوفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين من الهجرة في كتاب " طبقات الشعراء " ، قال عمر بن الخطاب ﷺ : " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العربُ ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا إلى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقَلَّ ذلك ، وذهب عنهم منه أكثره " ، قال أبو سلام : " وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح فيه هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان أو ما بقي منه " ، وقال أبو عمرو بن العلاء : " ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير " ، وقال ابن سلام في موضع آخر : " فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على أَلْسُن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار ، وليس يُشْكِل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون " ، وحكى أبو عبد الله أيضا قال :

" أخبرني أبو عبيدة [١] أن ابن دُواد بن مُتَمِّم بن نُوَيْرَة قدم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلَب والمِيرَة ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ، وقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضيعته ، فلما نَفِد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذي على كلامه ، فيتذكر المواضع التي ذكرها متمم ، والوقائع التي شهدها ، ولما توالى ذلك علمنا أنه يَفْتَعِل ، قال وكان أولَ من جمع أشعارَ العرب ، وساق أحاديثها حَمَّادُ الرَّاوية ، وكان غير موثوق به ، كان يَنْحَل شعر الرجل غيرَه ويزيد في الأشعار " .

وذكر صاحب الأغاني في غير موضع من الجزء الخامس في كتابه : قال المُفَضَّل [٢] الضبِّي : " قد سُلِّط على الشعر من حماد [٣] ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك ، فإن أهل العلم يردّون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ " ، وفي الجزء عينه في موضع آخر : " أقرّ حماد بحضرة أمير المؤمنين المَهْدي بما زاده من عنده في شعر زُهير بن أبي سلمى " ، وأن خلفاً [٤] الأحمر وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن

---

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي القرشي بالولاء من أئمة اللغة ، وكان راوية ثقة متعصبا على العرب ، توفي سنة ٢٠٩هـ .

(٢) هو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي راوية ثقة ، وهو أحد أئمة العربية في الكوفة ، توفي سنة ١٨٩هـ .

(٣) هو أبو القاسم حماد بن أبي ليلى الراوية المتوفي سنة ١٥٥هـ .

(٤) هو أبو محرز بن حيان أعلم أهل زمانه بالشعر ، توفي سنة ١٨٠هـ .

موجوداً في الجاهلية ، وكذبوا على الشعراء ، وقد تناول هذه المسألة غيرُ واحد من علماء المستشرقين الذين بحثوا في الأدب العربي في هذا العصر ، وكل ما يكتب فيها الآن منقول عن هؤلاء .

وبعد .. فيمكننا أن نستخلص من جملة هذه الأقوال السابقة أن بعض ما روي لشعراء الجاهلية مدسوس منحول مُنَبَّهٌ عليه ، ولكن هذا لا يدعو إلى مثل هذه المجازفة المفرطة في وضع هذا الأدب جملةً موضع التشكيك ، ورمى أولئك السلف عامة بالتدسيس والغفلة ، ولم يجترئْ على القول بذلك أحد حتى من الشُّعُوبيين المتعصبين على العرب الملحِّين في تنقيصهم وافتراء الأباطيل عليهم .

لأن من الاعتبارات الجديرة بالذكر في هذا المقام النظر إلى تأثير البيئة والوطن الجغرافي ، ولهذين أثرهما في تكوين الملكات الأدبية وظهورها في صورة من سمات العصر التي تكون قد ولدت فيه ، والعلماء يقولون : إن الإنسان رسم تعمله البيئة التي يعيش فيها على صورتها ، فلو أن أحداً من رواة عصر التدوين تعمد أن يخرج من جلده ، ويفرّ من طبعه وجبلته ليلتحق في تصوّره وأسلوبه وأدبه بعصر أولئك الجاهليين على ما بينهما من بعد ، وما فيهما من اختلاف ، فيكون كامرئ القيس في عشقه ونبله ، وطرفة بن العبد في اعترافه وأمانيه ، وزهير في مدائحه وحكمه ، وعنترة في إبائه ونجدته ، لكان من المعقول أن يخونه خاطره ، ويفضحه طبعه ، ولكان طبيعيا إن سلم له من هذه المحاكاة شيء أن تعتلّ عليه أشياء ، ولكان في استطاعة أهل التمييز والانتقاد أن يدركوا في رفق ومن غير عناء كبير مقدار ما بين المصنوع والمطبوع بمقدار ما بين الكحَل في العينين والكحْل ، على أن عاقلا من الناس تكون له مثل هذه المقدرة لا يرضى أن يغض من أدبه ، ويبخس من ذات نفسه ، فينسب كلّ

هذا الإنتاج البديع إلى غيره ويدعيه لمن هو دونه ، لا يَجُرّ بذلك إلى نفسه غنيمة ، ولا يُفيد فائدة ، ولئن كانت غايته من ذلك الصِّيت والشهرة ، وأن يقال عنه أنه أروى الناس للشعر ، وأحفظ أهل العصر للخبر ، لقد تكون نسبة هذه الأشعار والأخبار كلها إليه أجلب للشهرة ، وأطير للذكر ، وأعْوَدَ بما يرجو من الفائدة ، على أن من الجهل في تأليف الكذب أن ينحل الراوية شعراً لشاعر بلغة تخالف لغته على فرض التسليم بأن هناك اختلافاً بين لغة العرب الشمالية ، وبين اللغات اليمنية كان لا يزال باقياً إلى هذه الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام ، وإذا ما كان لعاقل أن يتهم الروّاة عامة ، ويُفَسِّقَ جمهرة العلماء ، وفيهم أمثال : ابن سَلاَّم ، وأبي عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبي سعيد الأصمعي ، ويونس بن حبيب ، والمفضل الضبي ، وأبي عبيدة ، وغير هؤلاء كثيرون من الثقات الأثبات الذين هم نقلة اللغة ، ورواة الحديث ، وحفاظ القرآن ، لأن حماداً أو خلفاً ، أو غيرهما كذبوا على زهير ، أو غيره مرة أو مرتين ، ثم ينتهي من هذا كله إلى القول بضياع العصر الجاهلي ، واشتمال رمال الصحراء على هذا الجيل من البشر بما كان له من أدب وما خلف من أشعار وخطب ، ثم يزيد في الإغراب بالحكم على الذين يريدون هذه الحياة الجاهلية أن يلتمسوها في القرآن ، وفي أقوال الشعراء الذين عاشوا في حضارة الدولة الأموية كجرير والأخطل والفرزدق وأمثالهم ، والتسليم بهذا الكلام يعد بلادة في الفطنة ، واختبالا في العقول ، إذ يكون الوطن الجغرافي على هذا القول ، وهذا الدين الجديد ، وذلك الأسلوب البارع في القرآن ، وهذه الفصاحة النادرة في الحديث ، وانتقال العرب من همجية إلى نظام ، ومن صحراء إلى ريف مُخْصِب ، كل هذا قد ظهر أثره ، وبدا طابعه على كلّ شيء ، ما أفلت منه شاعر ولا

خطيب إلا هؤلاء الشعراءالذين هم أمويون في مولدهم ، جاهليون في ديانتهم وأشعارهم ، وجملة آدابهم ، وما أحوج هذا الكلام إلى برهان ، وما أخلقه بأن يكون هو المدسوس المكذوب على التاريخ ، قد تقولون إنكم أحياناً لا تجدون فرقاً كبيراً بين شعر الفرزدق ، أو ابن أبي ربيعة مثلا ، وأشعار امرئ القيس ، أو طرفة ، وقد لا يكون من الصعب التسليم بهذا القول ، لأن ذلك في جملته لا يدل على أكثر من توارد الخاطرين على المعنى ، أو اتفاق الشاعرين في صورة العبارة ، أو أنه هو ما جرت به العادة من وَلُوع المتأخرين بمعارضة مذاهب المتقدمين ، واحتذائهم على مثالهم واستهلاكهم لمعانيهم ، مما يدخل عند نُقَّاد الأدب في باب السرقات الشعرية ، ولا يزال شائعاً معروفاً في كل عصور الأدب حتى في عصرنا هذا » .

فكيف بعد هذا كله يدور في خَلَد أحد أنّ أمة بأسرها يتتابع علماؤها في كل العصور على تناقل الأكاذيب ، والاحتفال بتدوين الخرافات ، وجمع الموازنات والكتب في نقد هذا الأدب المكذوب ؟! إن ذلك لا يجوز في العقل ، ولا في العادة ، وإن من يجترئ على هذه الدعوى مفتون ، محبّ لتكلف الخلاف على الناس .

إن الانتحال أمر طبيعي لا يخلو منه عصر المطابع التي تحتفظ بالقول كما رواه كاتبه ، « نحن الآن في عصر المطبعة نجد من ينقل النص المدوّن المطبوع من مصدره فيحذف منه ما يخلّ بمضمونه الكليّ ، أو يضيف إليه ما ينقل معناه من وضع إلى وضع ، حتى يجيئ الناقد فيرد المؤلف إلى صوابه ، ويقف به على أمانة العلم في التزام ما قيل دون تصرّف » [١] ،

---

(١) موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي ص ٢٧ .

وإذا كان الأمر كذلك في الكتب فإن مجال الزيادة والنقص والاختلاق في الأحاديث الخاصة والمحاضرات غير المدونة أفسح وأرحب ، وتلك هنات لم يخل منها عصر من العصور ، ولكن الأغيار على الحقيقة من حماة العلم يتتبعون كل قول ، ويقفون عند كل شبهة ، ويميزون الأصيل من الدخيل ، وذلك حق تدفع إليه الغيرة الصادقة ، وتوجيه الحميّة الحميدة ، إنما الباطل أن نأخذ روايات من هنا ، وروايات من هناك ، تتعلق بالشك في بعض القصائد والأبيات ، ثم نقول : إن الشعر الجاهلي جميعه منحول ، أو منتحل ، وإنه حُمل على غير قائليه ، ثم نمعن في التخريج إلى أقصى ما يمتد به القول ، فإذا نشط قوم لتصحيح الأخطاء لم نُصغ في اعتدال إلى ما يقولون ، وتمسكنا بما ظهر زيفه الصريح [1] .

وإن ما حملته إلينا المصادر من أقوال الأقدمين في تمييز هذا الشعر وتنقيته وفحصه وتمحيص لشاهد اليقظة الحريصة لدى قوم يعرفون الزائف من الصحيح ، ودليل حاسم يقف في وجوه من يتزيّدون دون تبرير .. إننا لا ننكر أنّ في الشعر الجاهلي نحْلا ووضعا ، لكن المتقدمين لم يهملوه ، ولم يغب عن فطنتهم ودقتهم ، وقد أدرك هذه اليقظة وهذا الجهد الباحثون المعتدلون في العصر الحديث .

وإن المستحيل بعينه ألا يحدث خلط في الرواية أو زيادة في التقوّل حين كان العرب ينتقلون من عصر الرواية المتّكئة على الذهن المدرك والفكر اللاقط والحافظة الواعية إلى عصر الاستقرار والتدوين ، الذي لم يستهلّ صارخا إلا في عهد الأمويين ، ثم بلغ أوجَهُ في ظلال العباسيين ، وذلك لا يوجب الشك إلى الحد الذي يطغي على هذا التراث كله .

---

(١) موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي ص ٢٨ .

إن منطق الحياة يأبى هذا الحكم الجائر الزاعم الانتحال في ديوان العرب جميعه ، و« أن ما نقرؤه على أنه شعر لامرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء ، وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة والقصاص »[1] ، إذ لا يعقل أن تكون هناك آلة تدرّ على نمط امرئ القيس ، وأخرى على مثال النابغة ، وثالثة على شاكلة علقمة ، ورابعة على غرار الشنفري ، وهكذا .

ولو أن أمر الانتحال عند الأبيات أو القصيدة لهان الخطب ، إنما هو في ثروة متعددة المذاهب متباينة الوجهات والسمات ، وما أغنانا عن هذا الوجه المكفهر من الرأي .

إن الشك في الشعر الجاهلي كله والارتياب فيما وصل إلينا من وقائع وأخبار ومن أيام وحروب ، اعتمادا على أن هذه الآثار تروى من الذاكرة وتنقل من الفكر ، إسراف في الحكم واعتساف في الرأي وشطط في الفكر وخطل في العقل وإمعان في دحر التراث وسحق الهويّة وسلب الأمجاد ومحو الفضائل .

* * *

---

(١) الأدب الجاهلي ، د. طه حسين ص ٦٤ .

الشعر بين أسواقه وعبيده

اهتم العرب في جاهليتهم بالشعر على النحو الذي رأيت ، وقد شمل الشعر ذكر المفاخر ووصف المعارك وتسجيل الحوادث حتى أصبح خليقاً بأن يطلق عليه « ديوان العرب » وسجلهم الحافظ لأيامهم وأخبارهم وتاريخهم ، وقد اقتضى ذلك أن تنشد الأشعار في المحافل والمجتمعات ، ومن ثم شرع الشعراء يؤمون الأسواق الخاصة منها والعامة على السواء ، ليذيع كل منهم محامد قومه وفضائلهم من جهة ، وليدل على براعته الفنية وقوة شاعريته من جهة أخرى .

ولقد كان لعرب الجاهلية أسواق تجارية يعرضون فيها سلعهم وتجارتهم ثم اتخذوا منها مواسم أدبية ، ومنتديات لشعرائهم وخطبائهم ، وحلقات لمفاخراتهم ومنافراتهم ، وميادين لتهذيب اللغة وتقويم المنطق وسمو البيان ، لاجتماع الأقوام فيها ، فقد كانت موئلا يغشاها العرب من كل صوب وحدب ، على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم ، ليشهدوا منافع لهم ، ويتناشدوا الأشعار ، ويذيعوا الخطب ، ويتحاكموا في خصوماتهم ، ويتفادوا الأسرى ، ويعقدوا الصلح ، ويتفاخروا بالأحساب والأمجاد والمناقب .

وكانت هذه الأسواق صغيرة وكبيرة ، فالصغيرة تنتشر في الأحياء ، وكانت أسبوعية أو شهرية ، وأما الكبيرة فكانت مؤقتة بوقت ، واشتهر من هذه الأسواق ثلاثة : ذو المجاز ، والمجنة ، وعكاظ ، وهي أشهر الأسواق ، وكان العرب إذا فرغوا من سوق انتقلوا إلى الأخرى ، فكانوا يأتون عكاظ ـ وهي موضع نخلة والطائف شرق مكة ـ ، وكانت تبدأ مع مطلع هلال ذي القعدة وتستمر عشرين يوما منه ، ثم ينتقلون منها

إلى المجنة - وهي موضع قرب مكة بمر الظهران - ، ثم إلى ذي المجاز - وهي على بعد فرسخ من عرفة - ، فيكونون بها إلى أيام الحج ، وكان الأشراف يحضرون الأسواق القريبة من أحيائهم ، ولا يحضرون الأسواق البعيدة عنهم ، إلا عكاظ ، فإنهم كانوا جميعا يتوافدون إليها ؛ وعكاظ مأخوذة من تعكظ القوم إذا اجتمعوا لينظروا في أمورهم ، وقيل : سميت عكاظا لأن قبائل العرب تجتمع فيها فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ويتناشدون .. يقول شاعرهم :

أوَ كلما وردت عكاظ قبيلةٌ ... بعثوا إليّ عريفهم يتوسّم

ومن هنا كانت لهذه السوق شهرة خاصة وآثار عامة في حياة العرب المادية والأدبية والاجتماعية ، وفي عكاظ أنشد عمرو بن كلثوم معلقته ، وفيها خطب قس بن ساعدة خطبته المشهورة ، وقد شهده رسول الله ﷺ وهو على جمل له أورق - ما فيه بياض إلى سواد - ، فيُرغب ويرهب ويحذر وينذر .

وكان للنابغة الذبياني قبة حمراء تُضْرَب له ، يتحاكم إليه فيها الشعراء ، وليست قصته مع الأعشى والخنساء وحسان بعازبة عن الشهرة والذيوع [1] ، وكان لهذا المؤتمر العام مظهره الحضاري الذي يلح على

---

(١) حكم للأعشى وفضله عندما أنشده طويلته التي أولها :

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالي وما ترد سؤالي

وحكم للخنساء بأنها أشعر من في السوق بعد الأعشى ، وقال لحسان عندما أنشده قصيدته التي منها :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدْ نابني العنقاء وابني محرق ... فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

قال له النابغة : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وسيوفك ، فخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك .. فغضب حسان وقال للنابغة : أنا أشعر منك ==

تجويد المنطق وتقويم اللسان والمبالغة في إتقان الكلام ، والاجتهاد في مقاربة العذوبة في لغة قريش .

وهكذا دعت الشعراءَ حياتُهم الجاهلية الواعية ، والأسماع والأذواق من حولهم ، إلى تجويد الشعر وتحكيكه وتنقيحه ، والتفوق فيه والسبق والتقدم ، فما كانت منتدياتهم وأسواقهم التي كانوا يقيمونها للاستماع والتقويم والنقد ، وتكريم المبرزين ، وتعليق القصائد التي حازت قصب السبق ، إلا بمثابة صوت جهوري ينادي الشعراء بالتجويد ، ويدعوهم إلى التهذيب .

لهذا كله حرص الشعراء على تجويد أشعارهم والتفنن في تحبيرها لينفذوا إلى القلوب ، ويستولوا على أقطارها ، ويصيبوا المرمى والهدف ، إذ أنهم ـ لا شك ـ كانوا يتفاوتون في الجودة ، يقول الجاحظ : يقولون : أصاب الهدف ، إذا أصاب الحق في الجملة ، ويقولون : أصاب القرطاس ، إذا كان أجود إصابة من الأول ، فإذا قالوا : رمى فأصاب الغرة وعين القرطاس ، فهو الذي ليس فوقه أحد .

ومن هنا أطلق العـرب على القصائد التي بذل فيها أصحابهـا الجهد ، ونمقوها وجوّدوها أسماء تصور مهارتهم وبراعتهم وسبقهم ، وتضع أعمالهم في مكانها اللائق بها ، من أمثال : الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات والمجمهرات واليتيمة ، وأطلقوا على الشعراء المجوِّدين أسماء تدل على مقدرتهم الفنية وتفوقهم ، من ذلك تسميتهم

== ومن أبيك .. فقال له النابغة ـ بحكمة الشيوخ ـ : يا ابن أخي ، إنك لا تستطيع أن تقول مثل قولي :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

عدي بن ربيعة : المهلهل ، لأنه أول من رقق الشعر وحسنه ، وإطلاقهم على طفيل الغنوي : المحبر ، لتحسينه شعره ، وعلى النمر بن تولب : الكيس ، لحسن شعره ، وسموا ربيعة بن سعد بن مالك : المرقش ، لتزيينه شعره وتأنقه في صوغه ، وزياد بن معاوية : النابغة ، لنبوغه في الشعر ، وسموا علقمة بن عبدة : الفحل ، لجودة شعره ، وأطلقوا على الأعشى : صناجة العرب ، لروعة جرسه الموسيقي .

وقد ظهرت ـ تبعا لهذا ـ كوكبة من الشعراء ذهبوا في تنقيح شعرهم كل مذهب ، ولم يدخروا من أجل هذه الغاية جهدا ، فكانوا يتروون وينقحون ، ويجودون ويحككون ، ويثقفون شعرهم ويهذبونه ، حتى عرفوا بـ « عبيد الشعر » من أمثال : زهير والنابغة والأعشى ، فما استعبد الشعر هؤلاء الأعلام العماليق إلا بفرط ما أرهقهم في التنقيح والتهذيب والتثقيف ، استجابة إلى نقد أدبي داخلي أو خارجي .

ومنهم من كانت القصيدة تستغرق في إعدادها وتنسيقها حتى تخرج إلى حيز الوجود حولا كاملا ، مثلما كان يصنع زهير ، ولهذا سميت قصائده بالحوليات ، واعتَبَر الحطيئة « خير الشعر الحولي المحكك » [١] .

إن هذه الجودة الفنية ظلت تحبو حينا وتسير أحيانا حتى بلغت كمالها على يد زهير ، الذي حفلت مدرسته البيانية بالمثل الفنية ، واحتضنت القيم ، وأمعنت في التجويد والتحبير ، يقول أبو عبيدة ـ ويحكي ذلك عن يونس ـ : ومن تكسب بالشعر والتمس به صلات الأشراف والقادة ، وجوائز الملوك والسادة ، في قصائد السماطين ،

---

(١) انظر : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٥ .

وبالطوال التي تنشد يوم الحفل ، لم يجد بدا من صنيع زهير والحطيئة وأشباههما ، لقد اهتدى ديوان العرب إلى عيونه المستجادة ، وسحَرَه احورارُها ، وفتنه حسنها ، فأبرزَها وجعلها قبالته ، ووجدناه يهتاج طربا عندما تميس في دلها ودلالها لتسكب في سمعه شدوا كشدو البلابل بين أفنانها ، وتصب في أقداحه الخمر والسحر الحلال ، وفي لحاظه الرقة والجمال ، فحفل بها ديوان العرب ، وسماها تارة « المعلقات » ، وأخرى « المنتقيات » ، وطورا « المجمهرات » ، وروائع شعرنا العربي الجاهلي كُثُر ، ومنتخباته لا تعد ؛ وإلى البيئة العربية يرجع الفضل ، فقد دفعت شاعرها إلى التفوق فتفوق ، وإلى السبق فسبق .

* * *

المعلقات

كان الشعر في الجاهلية قوة ضاربة في أعماق الناس وحيواتهم ، ولما كان الشعر قد استولى على قلوب الجاهليين ، وجمع معاقدها في يديه ، فقد عُنوا بهذا الشعر ، واحتفوا بروائعه ، وتوجوا بضع قصائد هي من أجود الشعر الجاهلي وأبرعه وأوسعه خيالا بأكاليل الغار ، وهي التي سميت بـ « المعلقات » ، فهي الصورة الناضجة الكاملة التي انتهت إليها تجارب الجاهليين في التعبير الأدبي ، وأضحت لميزاتها وشهرتها مثلا يحاكيه الشعراء حين ينظمون .

والمعلقات : جمع معلقة ، وهي القصائد التي حكم لأصحابها بالسبق والتفوق في سوق عكاظ ، التي كان الشعراء يتبارون فيها ويتنافسون .

وتمتاز المعلقات عن الشعر الجاهلي : بصدق دلالتها على أسلوب هذا الشعر ومنهاجه ، وامتداد القوافي ، وتنوع الأغراض ، وكثرة الاختراع ، والسبق والأولية ، والأسلوب الجامع بين البداوة والجزالة والرقة ، والمعاني الكثيرة ، ورفعة الأدب الشعري ، وتوفرها على حظ أوفر من الحفظ والعناية ، ويجمع أكثر الرواة والمؤرخين على أن المعلقات سبع ، وهي : معلقة امرئ القيس الكِنْدي (قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل) ، ودالّية طرفة بن العبد البكري (لخولة أطلال ببُرقة ثهمد) ، وميمية زهير بن أبي سلمى المزني (أمن أُمّ أوفَى دمنةٌ لم تكلّم) ، ونونية عمرو بن كلثوم التغلبي (ألا هُبّي بصحنك فاصبَحينا) ، وطويلة لبيد بن ربيعة العامري (عفت الديار محلُّها فمقامها) ، وميمية عنترة بن شداد العبسي (هل غادر الشعراء من متردَّم ؟!) ، وهمزية الحارث بن حلّزة

اليشكري (آذنتنا ببينها أسماء) (١) ، ويوافق أبو زيد القرشي صاحبُ جمهرة أشعار العرب على أن المعلقات سبع ، إلا أنه يسقط منها ميمية عنترة ، وهمزية ابن حلزة ، ويثبت مكانهما رائية النابغة (عوجوا فحيوا لنُعم دمنة الدار) ، ولامية الأعشى (ما بكاء الكبير بالأطلال) (٢) ، أما التبريزي شارح المعلقات ، فقد بلغت المعلقات عنده عشرا ، حيث جمع بين رأي الكثرة الكاثرة ورأي القرشي ، ثم أضاف إلى أصحاب المعلقات عبيد بن الأبرص في قصيدته البائية :

« أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذّنوب »

ومعنى هذا أن أصحاب المعلقات عنده هم : امرؤ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعمرو ، ولبيد ، وعنترة ، والحارث ، والنابغة ، والأعشى ، وعبيد ، فالتبريزي وحده هو من أضاف عبيد بن الأبرص .

والتبريزي الذي أخذ بقول القرشي في جعْل النابغة والأعشى ضمن شعراء المعلقات ، هو نفسه الذي اختلف معه في قصيدتيْهما ، فبينما أبو زيد القرشي يعُدّ من المعلقات رائية النابغة (عوجوا فحيوا) ، ولامية الأعشى (ما بكاء الكبير بالأطلال) إذا التبريزي يضمِّن المعلقات داليّة النابغة الذبياني :

---

(١) هذا ما ذهب إليه : ابن عبد ربه في عقده ، وابن رشيق في عمدته ، وأبو جعفر النحاس في السبع الطوال ، وابن الأنباري في شرح القصائد الطوال الجاهليات ، والزّوزني في شرح المعلقات السبع .

(٢) واهمٌ من جعل أصحاب المعلقات عند أبي زيد القرشي في جمهرته ثمانية ، بإضافة عنترة إليهم ، والصائب أن قصيدة عنترة عند القرشي مع المجمهرات لا مع المعلقات .. وفي هذا لفتٌ لوهم الدكتور بدوي طبانة في « معلقات العرب ص ١١ » .

يـا دارميّـة بالعليــاء فالسّنــد أقْوَتْ وطـال عليهـا سالف الأمـد

ولامية الأعشى :

ودّع هريـرة إن الركـب مرتحـل وهل تُطيق وداعا أيّها الرجل ؟!(١)

فعلماء الشعر بصدد عدد المعلقات بين مقلل ومكثّر .

وقد اختلف العلماء في سبب تسمية هذه القصائد المختارة المستجادة بالمعلقات ، إلا أن اختلافهم حول تفسير التعليق لا يجافي كثيرا المعنى اللغوي للتعليق ، فأما الذين يفسرونه في ضوء المحسوسات فيقولون بالتعليق على أستاذ الكعبة ، أو في سقف أو جدار ، أو في خزائن الملك الذي يقول إذا استجاد قصيدة لشاعر : علقوا لنا هذه ، وأما الذين يفسرونه في ضوء المعنويات فيرون أن العرب كانوا يعدون القصيدة المختارة « علقـا » أي شيئا نفيساً ، ولذا سميت المعلقات بالسّموط ، وهي العقود النفيسة التي تُحلّى بها الجياد وتعلّق في أعناق الغيد الحسان ، أو أنها لجودتها ورفعتها تعلق في الأذهان ، أو أن الإنسان يعلق بها ، بمعنى الوعي والحفظ عن ظهر قلب .

على أن أقدم العلماء الذين قالوا بالتعليق على الكعبة صراحة هـو « ابن الكلبي » (ت ٢٠٤هـ) ، فقد صرح قائلا : « أول شعر عُلّق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، عُلّق على ركـن من أركان الكعبة أيـام الموسم ، حتى نظر إليه ثم أحدر ، فعلقت الشعراء بعده ، وكان ذلك فخرا للعرب في الجاهلية ، وعدّوا من عُلق شعره سبعة نفر »(٢) ، وابن

---

(١) شرح القصائد العشر ٤٢٢ ، ٤٥٣ .

(٢) شرح السبع الطوال للأستاذ عبد السلام هارون ص ١١ .

عبد ربه صاحب العقد ، وابن رشيق صاحب العمدة ، وابن خلدون صاحب المقدمة يؤكدون على أن ذلك منتزع من تعليقها على الكعبة ، فلقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطيّ المدرجة ـ وهي ثياب كانت تنسج في مصر ـ وعلقتها بأستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات [١] ، ويوافقهم في هذا الرأي المؤرخ الفرنسي سِيدُيُو في كتابه : « خلاصة تاريخ العرب » ، وعلى هـذا فلفظة مذهبة مرادفـة للفظة معلقة .

والبغدادي منصاع إلى هذا الرأي ، إلا أنه يقرر : أن العرب إنما كانوا يعلقون هذه القصائد على ركن مـن أركان الكعبة ، فـي موسم الحج ، ريثما ينظر الناس إليها [٢] ، وينكر أبو جعفر النحاس ـ في شرحه للمعلقات ـ خبر تعليقها في الكعبة ، إذ لا يعرفه أحـد من الرواة ، ويرجع تسميتها بالمعلقات إلى : أن العرب كانوا يجتمعون في عكاظ يتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه ، وأثبتوها في خزانتي [٣] ، غير أنه لم يشر إلى ماهية هذا الملك ، ولعله النعمان بن المنذر الذي كان لديه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به .. كما يقول ابن سلام الجمحي [٤] .

---

(١) انظر : العقـد الفريد جـ ٣ ص ١١٦ ، والعمـدة جـ ١ ص ١٦١ ، ومقدمـة ابن خلدون ص ٥١١ .

(٢) انظر : خزانة الأدب جـ ١ ص ٨٧ .

(٣) شرح القصائد السبع (مخطوط) .

(٤) طبقات الشعراء ص ٢٣ .

كذلك فإن بعض المستشرقين ـ من أمثال : المستشرق الألماني نولدكي ، والمستشرق الفرنسي : كليمان هيار ـ وبعض الأدباء المحدثين ـ من أمثال : الشيخ أحمد السكندري ، والأستاذ مصطفى الرافعي ـ ينكر تعليق هذه الأشعار على الكعبة ، بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة ، لقد قامت شبهتهم على أن العرب كانوا يوقرون البيت الحرام ويعظمونه ، وهذا يجعلهم يأنفون من تدنيس أركانه بمثل مجون امرئ القيس وفسوق طرفة ، ويرون ـ لهذا ـ أن هذه التسمية (المعلقات) مصنوعة في عصر التدوين أو قبله بقليل ، ونحن لا نرى مانعا من تدوين هذه القصائد وتعليقها في الكعبة ، جريا على سنة الجاهليين وعادتهم ـ تلك التي بقي أثرها في الإسلام ـ في كتابة عهودهم ومواثيقهم ، وتعليق مثل هذه الصحائف الخطيرة في الكعبة لتوثيق أمرها وتوكيد عهدها ، والاحتشاد لها ، من ذلك : تعليق قريش الصحيفة التي كانت تقضي بمقاطعة بني هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله ﷺ ، ليعظموا أمرها ، وليحملوا أنفسهم على تنفيذها والوفاء بما جاء فيها ، وتعليق الرشيد لعهده بالخلافة من بعده إلى ولديه : الأمين فالمأمون ، ليزيد بذلك نفاذا وهيبة ، أما وللشعر عندهم من المنزلة والمكانة والتأثير ما له ، فليس هنالك إذن ما يحول بينهم وبين هذا الفعل (التعليق) لفرط شغفهم بهذه القصائد ، وحمل الناس على روايتها وتفخيم أمرها ، « على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق » [1] ، ومما يدحض شبهة هؤلاء المتأخرين ـ من مستشرقين وعرب ـ أن عبد الله بن عباس كانت له مجالس في مسجد رسول الله ﷺ ، يسمع فيها شعر عمر بن أبي ربيعة في دبيبه إلى معشوقاته وغزله فيهن ، وما كان لابن عباس مع إسلامه وورعه وفقهه وقرابته ومكانه من

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي للزيات ص ٣٣ .

صاحب هذه الروضة الشريفة أن يسمع مثل هذا الدبيب والغزل في هذا المكان ، لولا أن استجادة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف معناه ، كما يزعم أصحاب هذه الشبهة الواهية التي يقوضها المنطق ، ويلفظها العقل ، ولا ريب أن شعراء المعلقات من أشهر شعراء الجاهلية .

وقد عُني العلماء بجمع المعلقات وشرحها ، وأكثر هذه الشروح عظيم القيمة نفيس بما فيه من شروح لغوية ومسائل نحوية وإيضاحات تاريخية [1] ، ومنها : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لمحمد بن قاسم (ابن الأنباري) (ت ٣٢٨هـ) ، وقد حققه العالم المدقق عبد السلام هارون ، وشرح السبع الطوال لأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) وشرح المعلقات السبع للزوزني (ت ٤٨٦هـ) ، وشرح القصائد العشر للتبريزي أبي زكريا يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ) .

كذلك كان لكثير من المستشرقين السبق إلى العناية بهذه المعلقات ، فطبعوها ودرسوها وعلقوا عليها وترجموها إلى لغات مختلفة في وقت مبكر ، كهذه الترجمة الانجليزية للادي آن بلنت ، والترجمة اللاتينية عن شرح الزوزني لبيْبس ، وترجمة دى ساسي معلقة لبيد إلى الفرنسية ، وهذه العناية تؤكد إقرار هؤلاء العلماء ـ من عرب ومستشرقين ـ بالقيمة الفنية والإبداعية لهذه المعلقات ، وبإنزالهم مبدعيها منازلهم الجديرة بهم من الإعجاب والتقدير والإكبار ، فالمعلقات ومبدعوها في الذروة من التراث العربي الإبداعي .

---

(١) يراجع في شروح المعلقات وطبعاتها وترجماتها : تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ٦٨ - ٧٢ .

ومضات على المعلقات

معلقة امرئ القيس

بدأ امرؤ القيس معلقته بما ضُرب بحسنه المثل ، وعُدّ أروع المطالع في الشعر العربي ، وقيل فيه « أحسن منْ قِفا نبك » لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل ووصفه وصفا يهيج الذكرى ويبعث العبرة فقال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

ثم أخذ يتحدث عن حبيبته ويوجه إليها الخطاب :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرك مني أن حبك قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وما ذرفت عيناك إلا لتضر بي بسهمَيْك في أعشار قلب مقتّل

وتحدث عن متعه ولذاته التي كان يقارفها في جرأة وإصرار بقوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهوبها غير معجل
تجاوزت أحراسا إليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلي

ووصفها بالطيب والنعمة فقال :

تصد وتبدي عن أسيل وتتقي بناظرة من وحش وجرة مطفل
ونضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنطق عن تفضل

ثم تطرق إلى وصف الليل الذي طال أوله ووسطه وآخره ، وأخذ

يتوسل إليه أن ينجلي ، وإن كان الصبح الذي يعقبه ليس بأمثل منه :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل[1]

ووصف الفرس وصفا لم يضارعه فيه شاعر بقوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا   كجلمود صخر حطه السيل من عل

ووصف البرق والمطر وأخذ يسأل صاحبه هل ترى برقا يلمع بين السحاب المتراكم كلمع اليدين تتحركان في سرعة ، أو كمصباح راهب أمال الزيت على فتيلته ليزداد ضوؤها ويعم جهات متعددة مترامية ، فأيمنه على جبل قطن ، وأيسره على جبلي الستار ويذبل ويضحي يهطل بالماء حول كتيفة ويكب سيله الأشجار العظيمة رأسا على عقب ، وجعل الطيور وهي المكاكي من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد المطر الذي غرقت في أقاصيه السباع ، كأنما شَرِبْنَ رحيقا مفلفلا :

أصاح ترى برقا أريك وميضه   كلمع اليدين في حبي مكلل
يضيء سناه أو مصابيح راهب   أمال السليط بالذبال المفتل
على قطن بالشيم أيمن صوبه   وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء فوق كتيفة   يكب على الأذقان دوح الكنهبل

---

(١) مغار الفتل : المحكم الوثيق ، ويذبل : جبل .

معلقة طرفه بن العبد

وهي كذلك مُحْتَذَاة في مطلعها على معلقة امرئ القيس :

لِخولَةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثَهْمَد تلوح كباقي الوَشْم في ظَاهِرِ اليَدِ

وقد وقع خاطره على ما سبق به امرؤ القيس من ذلك الأسلوب ، الذي لم يقع لشاعرين ـ على ما نعلم ـ إلا لهما في هذا الأدب وهو قوله :

وقوفاً بها صَحْبي عليَّ مَطيَّهم يقولون لا تَهْلِك أسىً وتَجَلَّد

ولم يغير فيه سوى القافية ، وهو وإن لم يكن من جمال الشعر بالمكان البعيد ، أسلوب خاص بهما ، وقد شبه حُدُوج المالكية بخلايا السَّفين وجعل يصف السفينة نفسها ، وفعلها بالماء في شق حَيْزُومها له ، ثم وصف المرأة فشبَّهها بالظبي الشادن الأحوى ، وشبه ثغرها بنور الأقاحي النَّدية ، ثم دخل في بابه الذي لا ينازع فيه وهو وصف الناقة من قوله :

وإني لأمضي الهمَّ عند احْتِضاره بعوجاء مرقال تَرُوحُ وتغْتَدي[1]

إلى قوله :

على مثْلها أمضي إذا قال صاحبي ألا ليتني أفْديكَ منها وأفْتَدي

وبدأ بعد ذلك في فخاره وذكر فُتُوته ، واندفاعه مع أسباب المجُون واللهو في نَدَاماه وقيَانه قال :

---

(١) الهمّ : النية والعز . احتضاره : حضوره . العوجاء : الناقة التي تعوج في سيرها مرحا ونشاطاً . المرقال : وصف من أرقل : ضرب من السير .

إذا القوم قالوا مَنْ فتى خلتُ أنني ... دُعيتُ فلمْ أكْسَلْ ولمْ أتبَلَّد
ولسْتُ بحلال التِّلاع مخافة ... ولكنْ متى يَسْتَرْفد القوم أرْفد(١)
فإن تَبْغني في حلقه القوم تَلْقَني ... وإن تَلْتَمسْني في الحوانيت تَصْطَد(٢)
وإن يَلْتَق الحيُّ الجميعُ تُلاقني ... إلى ذروة البيت الشريف المُصمَّد
نَدَامايَ بيضٌ كالنجوم وقَيْنَةٌ ... تروح علينا بين بُرْد ومُجْسَد(٣)
رحيبٌ قطاب الجيب منها رفيقة ... بجس الندامى بَضَّة المَتَجَرَّد(٤)
إذا قلتُ هاتي أسْمعينا أنبَرَتْ لنا ... على رِسْلِها مطْرُوفَةً لم تَشَدَّد(٥)

ثم ساقته غرة الشباب وسكْرة الصبا ، إلى الاعتراف بمجونه والتحدث بأمانيه فقال :

وما زَالَ تَشْرابي الخُمورَ ولَذَّتي ... وبَيْعي وإنفاقي طريفي ومُتْلَدي(٦)
إلى أنْ تَحَامَتْني العشيرة كُلُّها ... وأفردت إفراد البعير المُعَبَّد(٧)

ثم قال وهو في أمانيه هذه ـ على جاهليته ـ صادق النظر ، ولو لم يُحْمَل ما وصفه من الشراب والمرأة على ما يحل دون ما يحرم :

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفَتَى ... وعَيْشكَ لم أحفل متى قام عوَّدي

---

(١) التلاع : جمع تلعة ، وهي مسيل الماء . ويسترفد : من الرفد وهو العطاء .
(٢) الحوانيت : جمع حانوت ، وأراد منازل الخمارين .
(٣) الندامى : جمع نديم كيتامى ويتيم ، وهو الجليس على الشراب والحديث. القينة : الجارية المغنية . والمجد : الثوب الذي يلي الجسد أو المصقول الذي يكاد يقوم من الصقال . الجساد : صبغ وهو الزعفران .
(٤) الجيب : مدخل الرأس من الثوب . قطابه : فتحته واتساعه . البضة : الناعمة . المتجرد : الجسد .
(٥) الرسل : المهل .
(٦) الطريف : الحديث . المتلد : القديم .
(٧) المعبد : المذلل والمطلي بالقطران .

فمنهن سبق العاذلات بشربة كُمَيْتٌ مَتَى ما تُعْلَ بالماء تزبد[١]
وكَرِّي إذا نادَى المُضَافُ محنَّباً كسيد الغضا نَبَّهْتَه المتوَرِّد[٢]
وتقصير يوم الدَّجْنِ والدَّجْنُ معجبٌ ببَهْكنة تحتَ الخبَاء المُعَمَّد[٣]

ثم أفاق من هذه النشوة وصحا من تلك الغواية ، فأخذ يذكر الموت واصطفاءه لعقلية الفاحش الحريص ، ويستبكي حبيبته عليه يوم موته ، استعزازاً منه لنفسه ، ثم انطلقت هذه النفس الشابة بفريدة من الحكمة لا تزال مثلا سائرا بين الأدباء لا يبلغ شأوه ، قال :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد[٤]
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقُصِ الأيَّامُ والدَّهرُ يَنْفَد
لعَمرُك إن الموت ما أخطأ الفتى لَكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْيَاه باليَد[٥]
إذا متّ فابْكيني بما أنا أهله وشُقِّي عليَّ الجَيْبَ يا بنة مَعْبَد

إلى قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّد

---

(١) الكميت : الخمر ، والكمتة لون حمرته إلى صفرة .
(٢) المضاف : المستغيث . المحنب : الفرس الذي في يديه انحناء . السيد : الذئب . المتورد : الوارد للماء .
(٣) الدجن : الباس الغيم آفاق السماء . البهكنة : الجميلة الناعمة الرابية .
(٤) يعتام : يقصد . العقيلة : الكريمة على الشخص من ماله وغيره . الفاحش : البخيل .
(٥) الطول : الحبل ترسل به الدابة في المرعى . الثني : الطرف .

معلقة زهير بن أبي سلمى

بدأها على سنة الشعراء من البدء بالتشبيب والوقوف بالدمن ووصفها وصفا بارعا بعد أن عفى عليها الدهر وأكل معالمها الزمن :

أمن أم أوفى دمنةٌ لم تكلّم — بحومانة الدراج فالمتثلم
ودارٌ لها بالرقتين كأنها — مراجيع وشم في نواشر معصم
بها العينُ والآرام يمشين خلفة — وأطلاؤها ينهض من كل مجثم

ثم استمر يصف الدار والظعائن :

فلما عرفت الدار قلت لربعها — ألا انْعَم صباحا أيها الربع واسْلَم
تبصر خليلي هل ترى من ظعائن — تحملن بالعلياء من فوق جرثم(١)
علون بأنماط عتاق وكلة — وراد حواشيها مشاكهة الدم(٢)
وفيهن ملهى للصديق ومنظر — أنيق لعين الناظر المتوسم

إلى أن تخلص إلى هدفه الأسمى ، ومقصده الأعظم في هذه القصيدة ، وهو مدح عظيمَيْ غطفان : هـرم بن سنان ، والحارث بـن عوف ، الذين أصلحا بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء واحتملا ديات القتلى :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما — تبزل ما بين العشيرة بالدم(٣)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله — رجال بنوه من قريش وجرهم

---

(١) الظعائن : النساء في الهوادج . جرثم : ماء .
(٢) الأنماط : جمه نمط ، ضرب من الثياب . العتاق : الكريمة . الكلة : الستر الرقيق . والوراد : جمع ورد ، وهو الأحمر . والمشاكهة : المشابهة .
(٣) تبزل : تشقق .

يمينا لنعم السيدان وجدتما — على كل حال من سحيل ومبرم[١]
تداركتما عبسا وذبيان بعدما — تفانوا وودقوا بينهم عطر منشم[٢]
ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة — وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم — ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر — ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ثم وصف الحرب وصفا يثير الفزع والرعب ، وفظع من شأنها وهول من خطبها وإفنائها للسادات ، وطحنها للأشراف وإتيانها على الأخضر واليابس بقوله :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ — وما هو عنها بالحديث المرجّم[٣]
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة — وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتُمُوها فتَضْرَم
فتعْرككم عَرْك الرَّحَى بثفالها — وتَلْقَحْ كِشَافًا ثم تُنتج فتُتئم[٤]
فتنتج لكم غِلمانَ أشأَمَ كلُّهم — كأحمرِ عادٍ ثم تُرضِع فتَفْطِم[٥]

وانتهى إلى حكمه البارعة وأمثاله السائرة التي سنها للشعراء من بعده بقوله :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش — ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم علم اليوم والأمس قبله — ولكنني عن علم ما في غد عم

---

(١) السحيل : الضعيف الفتل . والمبرم : القوي والمحكم .

(٢) منشم : عطارة يتشاءم بها .

(٣) المرجم : الذي يرجم فيه بالظنون أي يحكم فيه بها .

(٤) بثفالها : أي مع ثفالها ، والثفال : خرقة أو جلدة توضع تحت الرحى ليقع عليها الطحين . واللقاح : حمل الولد . والكشاف : أن تلقح في السنة مرتين . والإتآم : أن تلد الأنثى توأمين .

(٥) أراد بأحمر عاد أحمر ثمود وهو عاقر الناقة .

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغنَ عنه ويذمم ...
ومن يغتربْ يحسبْ عدوا صديقه ومن لا يُكرِّم نفسَه لا يكرَّم
ومن لا يذُد عن حوضه بسلاحه يهدَّم ، ومن لا يظلم الناس يُظْلَمِ

معلقة لبيد بن ربيعة العامري

هذه المعلقة قطعة من صميم البادية وقلب الصحراء ، نلمس فيها خشونة اللفظ ووعورة الأسلوب مما قد تجفوه الأذن وينفر منه السمع لأول وهلة ، ولكن الإنسان حين يتألف نافرها ، ويروض شامسها ، يجد المعاني الدقيقة والتشبيهات البارعة والأخيلة النادرة المنتزعة من صميم تلك الحياة .

بدأها بالغزل والتشبيب بحبيبته نوار وعفاء ديارها ودروس أطلاها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها[1]
فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها[2]

ثم وصف ناقته فشبهها تارة بالأتان الوحشية بقوله :

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها[3]

---

(١) عفا ـ لازم ومتعد ـ : تغير . المحل : مكان الإقامة القصير . والمقام : بالعكس . تأبد : توحش . الغول والرجام : جبلان .

(٢) المدافع : جمع مدفع وهي مساقط المياه . الريان : جبل . الخلق : البالي . الوحي : جمع وحى وهو الكتابة . السلام : جمع سلِمة ـ بكسر اللام ـ وهي الحجارة .

(٣) الملمع الأتان : أشرف طبياها باللبن . وسقَت : حملت . الأحقب : العير في ==

يعلو بها حدب الأكام مسحج قد رابه عصيانها ووحامها[١]

وتارة بالبقرة الوحشية بقوله :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها[٢]
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها[٣]

ثم فخر بنفسه ومقامرته لإخوانه وإكرامه لضيوفه ، وهو في هذا يتوجه بالحديث إلى حبيبته نوار :

أولم تكن تدري نوار بأنني وصال عقد حبائل جذامها[٤]
تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها[٥]
بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها[٦]
أغلى السباء بكل أدكن عاتق أو جونة قدحت وفض ختامها[٧]

== وركيه بياض . لاحه : غيره . الكدام : المكادمة ، مغاعلة من الكدم وهو العض .

(١) الحدب : المحدودب . الإكام : واحده أكمة ، وهي التل دون الجبل المسحج المعضض . الوحام والوحم : اشتهاء الحبلى الشيء .

(٢) المسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها . والهادية : المتقدمة . والصوار : القطيع من بقر الوحش .

(٣) الخنس : تأخر في الأرنبة . الفرير : ولد البقرة الوحشية . لم يرم : لم يبرح . والعرض : الناحية . والشقائق : جمع شقيقة ، وهي أرض صلبة بين رملتين . والبغام : صوت رقيق .

(٤) الحبائل : جمع حبالة ، وهي مصيدة الصائد وشركه ، مستعارة للعهد والمودة هنا. والجذم : القطع .

(٥) اعتلق الشيء : تعلق به . وبعض النفوس : يريد نفسه . والحمام : الموت .

(٦) الليلة الطلق : التي لا حر ولا برد فيها يؤذيان . والندام : المنادمة .

(٧) السباء : شراء الخمر وجلبها ، ولا يستعمل لشراء غيرها . والأدكن : زق الخمر لأنه أغبر . والعاتق : القديم . والجونة : السوداء ، يريد بها الخابية . وقدحت وفض ختامها بمعنى واحد .

إلى آخر هذه القصيدة القوية النسيج ، المتوعرة اللفظ ، الغنية بمعانيها وانتزاعاتها البعيدة .

معلقة عنترة العبسي

ومن الغريب أن يكون عنترة ، وهو في نشأته راع طريد ، وفي شبابه فارس مُقَدَّم ، يتجلَّى عن هذه الشيمة الكريمة ، ويتبين في قوله ذلك الطبع السهل الذي بدا منه على هذه المعلقة ، في غير موضع أثر من السلاسة ورقة الحاشية ، وإن لم تخرج عن أدب العصر بالانحراف عن الغريب ، والخشونة في الجملة ، قال العبسي :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم	أمْ هل عرفت الدار بعد توهم[١]
يا دَارَ عبلة بالجواء تكلمي	وعَمِي صباحا دار عبلة واسلمي[٢]
وتَحُلُّ عبلة بالجواء وأهلُنا	بالحزن فالصمان فالمتثلم[٣]
دَارٌ لآنسة غَضيض طَرْفها	طوْع العنَاق لذيذة المتَبَسَّم[٤]
فوقَفْتُ فيها ناقتي وكأنَّها	فدنٌ لأقضيَ حاجة المُتَلَوِّم[٥]

وبعد ذكر حبه لعبلة وقتاله لقومها ، وأنه على هذه الحال كالطامع في السَّراب ، جعل يصف حلاوتها وثغرها ، فشبَّه طيبَه مرة بفأرة المسك ، وأخرى بالروضة الأنف ، واستطرد إلى ذلك التشبيه الدقيق التصوير في قوله :

---

(١) المتردم : المكان الذي يحتاج إلى إصلاح ، أو هو من التردم كالترنم وزنا ومعنى .

(٢) الجواء : موضع ، وفي غير البيت جمع جو .

(٣) الحزن والصمان والمتثلم : مواضع .

(٤) الآنسة : المؤنسة . الغضيض : المكسور من الحياء . المتبسم : الفم .

(٥) الفدن : القصر . المتلوّم : الباقي المتمكث .

وخَلا الذُّباب بها فليس ببارح   غردا كفعل الشّارب المُترنم
هزجاً يحُكُّ ذراعه بذراعه   قدح المُكبِّ على الزِّناد الأجْذَم(١)

وجهابذة البيان لا يزالون يستجيدون هذا التشبيه ويقرُّون حسنه ويعدونه من التشبيهات العقم ، ثم عاد يصف تنعمها وشقاءه وأنهما كما يقول :

تمسي وتصبح فوق ظهر حَشيَّة   وأبيتُ فوق سراة أدْهمَ مُلْجَم(٢)
وحشيتي سرجٌ على عَبْلِ الشَّوَى   نهْدٍ مراكله نبيل المحزَم(٣)

ثم جعل يصف الناقة على مثال طرفة ، ولم يُسرف ، وتخلص إلى ذكر كرمه وإبائه وكراهة ظلمه ، قال :

أن تُغْدفِي دوني القناع فإنني .   طَبٌّ بأخذ الفارس المستلئم(٤)
أثني عليَّ بما علمت فإنني   سَهْلٌ مُخَالفتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل   مرٌّ مذاقته كطعم العلقم
ولقد شربت من المدامة بعدما   ركد الهواجر بالمشوف المعْلم
فإذا شربت فإنني مستهلك   مالي وعرضي وافرٌ لم يُكْلَم
وإذا صحوت فما أُقَصِّرُ عن ندىً   وكما عَلِمْتِ شَمائلي وتَكَرُّمي

---

(١) المكبّ : المطأطئ . الأجذم : المقطوع الكف .

(٢) كأنها فعيلة لمعنى مفعولة أي المحشوّة . السراة : الظهر . الأدهم : الذي تضرب زرقة لونه إلى السواد .

(٣) العبل : الغليظ . الشوى : الأطراف ، جمع شواة . النهد : المشرف الضخم . المراكل : جمع مركل ، مواضع عقب الراكب من جنب الفرس . المحزم : موضع الحزام . نبيل : بمعنى عظيم وسمين .

(٤) الإغداف : الإرسال والإرخاء. الطب : العالم الحاذق . المستلئم : اللابس اللامة ، وهي عدة الحرب .

وقد أسلفنا شيئا من وصفه لنَجْدته ، وحديثه عن منازلته قِرنَه ، وشكوى أدْهمه ، ولم يُلهه ذلك عن العودة إلى الغزل ، إذ قال بعد ذلك وهو من رقيق الكلام وحلو القريض :

ولقد ذكرتك والرماحُ نواهلٌ   منِّي وبيضُ الهند تقطر من دَمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها   لَمَعَت كبارق ثغْرك المُتَبسِّم !

ثم ختم طويلته بما ساقه من الوعيد لابني ضمضم ، وكان قتل أباهما فتوعّداه ونذرا دمه ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تَدُرْ   للحرب دائرةٌ على ابني ضمضم
الشَّاتمي عرضي ولَمْ أشْتمهُما   والنَّاذرين إذا لم ألْقَهُما دمي
إن يَفعلا فلقدْ تركْتُ أباهُما   جَزَرَ السِّباع وكُلِّ نَسْر قَشعَم

معلقة عمرو بن كلثوم

لم يعرف من الشعر لهذا الشاعر إلا هذه القصيدة التي قالها في ملاحاة وقعت بينه وبين الحارث بن حلزة اليشكري في مجلس الملك عمرو بن هند يصف فيها حديثه مع الملك ، ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة ، وكانت تغلب تعظمها ، وتحتفل لإنشادها وتفتخر بها .

وأولها في وصف الخمر والحديث عن محبوبته :

ألا هي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها   إذا ما الماء خالطها سخينا

إلى أن يقول موجها قوله لابن هند :

أبا هند فلا تعجل علينا   وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمراء قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

وهذه من المعاني التي جمع فيها خياله وأغرق تفكيره .

معلقة الحارث بن حلزة اليشكري

وكان السبب في ارتجالها أن دماء كانت بين بكر وتغلب ، اختلفوا عليها وترافعوا فيها إلى عمرو بن هند ليحكم بينهم ، وعلم الحارث أن ضِلَع الملك على رهطه من بكر مع تغلب ، فوقف ـ وكان به وَضَحٌ ـ فألقى الملك بينه وبينه ستراً ، ثم جعل يعجبه قوله حتى رفع الستر عنه وأدناه فأجلسه معه وحكم لبكر على تغلب :

آذنتنا ببينها أسماء رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ[١]
بعد عهد لنا ببُرقة شمَّا ءَ فَأَدْنَى دِيَارِهَا الخَلْصَاءُ[٢]

وبعد أن مضى قليلا في هذا التشبيب ، أخذ يصف الناقة ويشبهها بالنعامة في الإسراع والخفة ، ثم تركها مكانها وجعل يذكر تجني تغلب على قومه ، ويرد عليهم ويذكر ما لقومه من المَنعَة والأيام والمآثر ، واتصل من ذلك بمدح الملك ، وتذكيره بأياديهم عنده ، وتعييره تغلب باستخذائها له ، وهو في هذا أشبه بمن كان يهدد الملك ويتوعده ، لا بمن كان يمدحه

---

(١) البين : الفراق . الثاوي : المقيم .
(٢) برقة شماء : مكان . الخلصاء : كذلك .

ويتزلف إليه ، قال :

غَيْرَ أَنِّي قد أستعين عَلَى الهَمِّ إذا خفَّ بالثَّوِيِّ النَّجَاء[١]

ثم مضى بعد ذلك يذكر أياديهم على عمرو بن هند ، ثم حجر بن أم قطام وعلى امرئ القيس من بعده ، وغيره من الملوك والأشراف الذين نصروهم في الحرب ، ثم جعل يذكر تغلبا بما كان بينهما من الحلف ، وانتهى من ذلك إلى العتاب الممزوج بالإنكار ، والغرابة لما تريدهم عليه تغلب من الهوان والتسليم ، قال :

واذْكُروا حلف ذي المَجَاز وما قُدِّ مَ فيه العهود والكُفَلاءُ
واعلموا أنَّنا وَإيَّاكُمُ فيـ ـما اشترطنا يوم اختلفنا سواء
أَعَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أنْ يَغْنَمَ غازيهُمُو وَمِنَّا الجَزَاءُ

والقصيدة كلها من هذا النمط القوي ، وفيها من أثر الارتجال الإقواء في قوله :

فملكنا بذلك الناس حتى ملكَ المنذرُ بنُ ماء السَّماءِ

هكذا بالجر ، والقافية كلها مرفوعة ، على أننا نرجح أن هذه القصيدة غير مرتجلة ، وإنما هي محبرة فكر فيها الشاعر وأعدها إعداداً لهذا المقام ، الذي لم يكن مفاجئاً ولا معجلا عن الروية كما هو ظاهر .

وهذه هي القصائد السبع ، ممتازة عن سائر الشعر الجاهلي ، بأوّليتها وسعة قوافيها ، وتلك الأغراض المتنوعة ، وبهذا الأسلوب البدوي المشتمل على أثارة من الحسن في الجزالة والرقة ، مع المعاني الكثيرة

---

(١) الثوى : المقيم . النجاء : الإسراع .

والأدب الشعري الذي كانت هذه القصائد خير مثال منه مضى في أثره الشعراء من بعد .

* * *

الصعلكة وأثرها في الشعر

مدلولها :

الصعلكة ـ في جملتها ـ ظاهرة غير صحية ، دعا إليها الإحساس بالفقر ، والضيق بالفروق الشاسعة بين الطبقات في المجتمع الجاهلي ، والتنكر للفقراء أو السود .

والصعلوك في اللغة : هو الفقير الذي لا مال له يستعين به على أعباء الحياة وتبعاتها ، وليس له من يعتد به في مجابهة مشكلاتها ، فالفقر محدق به من كل جانب ، وأبواب الحياة مغلقة في وجهه ، فيبدو ـ حينئذ ـ هزيلا ضامرا بين أولئك الأثرياء المنعمين المترفين ، وهذا المعنى يؤيده قول حاتم الطائي :

غنينا زمانا[1] بالتصعلك والغنى   فكلا سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة   غنانا ولا أزري بأحسابنا الفقر

فقد أطلق التصعلك وأراد به الفقر ، وقابل بينه وبين الغنى في البيت الأول ، وفي بيته الثاني ذكر الفقر مرادفا للتصعلك ، مقابلا بينه وبين الغنى .

وقد كان النبي ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أي يستنصر بفقرائهم .

وهذا هو المدلول اللغوي للكلمة ، إلا أن هذا المدلول قد ضاق ، إذ اتسعت دائرة الكلمة فخرجت إلى مدلول آخر هو المدلول الاجتماعي ،

---

(١) غنينا زمانا : أي عشنا زمانا .

وهو يعني رد الفعل الذي كان نتيجة الوقوع تحت وطأة هذا الإحساس المرير ، والتبرم بالضنك وعدم النصير ، والمتمثل في أن هؤلاء الصعاليك هم المغيرون الذين يتجردون للغارات ، ويقطعون الطرق ، ويمضون فحمة ليلهم في النهب والسلب والإغارة ، وهذا يؤيده قولُ عمرو بن براقة الهمدَاني :

تقول سليمى : لا تعرض لتلفة   وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله   حسام كلون الملح أبيض صارم ؟!
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم   قليل إذا نام الخلى المسالم ؟! ...
متى تطلب المال المقنّع بالقنا   تعش ماجدا أو تخترمك المخارم!

ويصف تأبط شرا نفسه قائلا :

قليل غرار النوم أكبر همّه   دم الثأر أو يلقى كَمياً مسفعا
يبيت بمغنى الوحش حتى ألفته   ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعا[1]

ومن هنا نجد أن مدلول الكلمة اللغوي قد ضاق ، فتطور إلى هذا المعنى الاجتماعي ، وتبدو سمات هذا التطور في أن بعض اللغويين قد ربط بين الصعاليك وبين الذؤبان ـ أو الذئاب ـ ، من ذلك ما جاء في القاموس المحيط : « وذؤبان العرب لصوصهم وصعاليكهم » ، وفي النهاية لابن الأثير : « يقال لصعاليك العرب ولصوصها ذؤبان لأنهم كالذئاب » .

فقد اتضح ـ إذن ـ أن لمادة الكلمة جانبين ، أحدهما لغوي ،

---

(١) الغرار : القليل . الكميّ : الشجاع . المسفع : المتغير لون الوجه . وقد طالت ملازمته الوحوش حتى ألفته .

والآخر اجتماعي .

ولعل عقد النقص تلك التي كانت تنيخ بكلاكلها على صدور الصعاليك ، والإحساس بالألم والمعاناة ، كانت الدافع إلى هذا الاتجاه ، فنحن حينما نلقي الضوء عليهم نجدهم إما : من الخلعاء الشذاذ الذين تفشت جرائمهم وكثرت جرائرهم ، فلفظتهم قبائلهم وخلعتهم ، فهاموا على وجوههم لا يلوون (١) .

ومن هؤلاء الخلعاء : حاجز الأزدي ، وقيس بن الحدادية ، وأبو الطمحان القيني - وهو من المخضرمين - أو من الذين نبذهم آباؤهم وتنكروا لهم فلم يلحقوهم بهم لا لشيء إلا لأنهم أبناء إماء حبشيات سود ، ولسوادهم الذي لحقهم من أمهاتهم ، ولهذا سماهم العرب ، ومن على شاكلتهم من السواد - أغربة العرب - ، ومن هؤلاء المنبوذين : السُّلَيْك بن السُّلَكة ، والشَّنفري ، وتأبّط شراً (٢) .

ولعلك تستشعر معي الآلام النفسية التي تختنق منها أنفاس هؤلاء ، والمعاناة التي يعانونها كلما تحرك فيهم الشعور بالنقص ، وأثر هذه السياط النفسية فيهم .

أما المجموعة الثالثة فليست من أولئك الخلعاء ، ولا من أبناء الإماء ، وإنما هي مجموعة احترف أفرادها الصعلكة وامتهنوها ، مثل

---

(١) جاء في لسان العرب في مادة خلع ، أن الخليع من أسماء الذئب - الذي أشرنا إليه - وأن الذئب يشبه أحيانا في الشعر الجاهلي بالخليع كما في قول امرئ القيس :

وواد كجوف العَيْر قفـر قطعتُه ... به الذئب يَعْوي كالخليع المعيَّل

(٢) اسمه ثابت بن جابر بن سفيان من قبيلة فهم ، وقد لقبته أمه بهذا اللقب ، إذ تأبط سيفا وخرج ، فلما سئلت عنه قالت : تأبط شرا ومضى لوجهه .

عروة بن الورد العبسي ، والذي كان يلقب بعروة الصعاليك ، لأنه كان يقوم بأمرهم ويأوي العاجزين منهم والذين أخفقوا في السلب والنهب ، وكان يقسم فيهم ماله ، رغبة في العدالة الاجتماعية والتوازن الاقتصادي وفيه يقول عبد الملك بن مروان : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد ، وكان يقول أيضا : ما سرني أن أحدا من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله :

إني امرؤ عافى إنائي شركة   وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
اتهزأ امني أن سمنت وأن ترى   على شحوب الحق ، والحق جاهد
أُفَرِّقُ جسمي في جسوم كثيرة   واحسو قَراح الماء والماء بارد

فعروة إذن كان ينزع منزعا إنسانيا نبيلا ، ويعبر عن مغزى كريم رفيع ، يصور هذا عروة في قوله يخاطب صعاليكه :

فإني وإياكم كذي الأم أرهنت   له ماء عينيها تفدى وتحمل
فلما ترجت نفعه وشبابه   أتت دونها أخرى جديد تكحل
فباتت لحد المرفقين كليهما   توحوح مما نابها وتولول
تخير من أمرين ليسا بغبطة   هو الثكل ، إلا أنها قد تجمل

فقد رسم هنا صورة نفسية متكاملة ، تجلت في هذه الأم التي وهبت وليدها حياتها وتعهدته ، حتى إذا ما استوى عوده وثم شبابه ، تزوج فغلبت الزوجة الأم على ابنها ، فانكبت تبكي وتولول ، وفي النهاية لا تملك إلا التجمل بالصبر ، فعروة ـ كما يقرر ـ هو الإنسان الذي وهب حياته للعمل من أجل تلك العناصر الضعيفة في مجتمعه ، وجعل من نفسه أبا للصعاليك ، وها هو يقول :

وسائلة أين الرحيل ؟ وسائل ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
فلا أترك الأخوان ما عشت للردى كما أنه لا يترك الماء شاربُه

إلا أن الصعاليك لم يكونوا جميعا على هذا المستوى من الخلق الرفيع والنزوع الإنساني السامي ، فقد كان منهم الفاتك الفاجر الذي لا يتورع عن سفك الدماء دون وازع ، أجل ! لقد كانت حركة الصعلكة في جانب من جوانبها دمويّة متمردة على الأعراف والقيم .

أبرز العوامل المؤثرة في الصعاليك :

أثرت في هؤلاء عوامل ، كان من أبرزها الفقر :

فالصعاليك جميعا فقراء ، ولا يشذ عن هذه القاعدة واحد منهم ، حتى ولو كان سيدهم عروة ، فقد كان يشكو الفقر والفاقة والعوز ، ويكثر في شعره ذكر فقره ، وما يعانيه من حرمان ومسغبة ، وما يتكبده في سبيل الغنى ، كقوله :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

والجوع مطية من مطايا الفقر الذي استبد بحياة هؤلاء الصعاليك ، وهو أوجع وأقسى ما يحمله الفقر إلى جسد الفقير ، لأن الطعام ضرورة حيوية أُولَى يتطلبها الجسم ، ويكون بها البقاء أو الحياة ، وبدونه يكون الصراع بين الحياة والموت ، فليس غريبا أن يكون الجوع دافعا إلى الصعلكة .

وقد قرر علماء الاجتماع : أن الجوع أول الدوافع المسيطرة على حياة الإنسان ، وليس ذلك بدعا ، فقد كان من العرب من يغير على غيره

من أجل الحصول على ما يقيم أوده ، يقول الشنفري في لاميته :

أديم مطال الجوع حتى أميته   وأضرب عنه الذكرَ صفحا فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له   على من الطَّوْل امرؤ متطول

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن الصعاليك قد كونتهم - أو طحنتهم - مؤثرات كثيرة من أبرزها الفقر ، الذي كان عاملا مشتركا بينهم جميعا ، وأن هؤلاء الفقراء قد برموا بالفقر وضاقوا بالحرمان ، فحقدوا على الأغنياء - وبخاصة البخلاء - ، فقد كانت نفوسهم تموج بثورة عارمة على الأغنياء الأشحاء ، فنقموا عليهم وثاروا على النظام المالي وعدم توازنه .

وقد طحنهم - إلى جانب الفقر - إهدار آدميتهم وهوان أمرهم في مجتمعهم ، ذلك الذي ظلمهم ولطمهم وحرمهم مما يطمح إليه كل فرد من عدالة اجتماعية ، ففي أخبار الشنفري : أن قومه قتلوا رجلا في خفرة بعض الفهميين ، فرهنوهم الشنفري وأمه وأخاه ، وأسلموهم ولم يفدوهم ، فراحوا - لهذا وذاك - ينفسون عن أنفسهم بسلب ما حرموه عنوة ، واغتصاب حقهم في مال الأغنياء اقتدارا ، وبثّهم الرعب والفزع في صفوف الأغنياء ، ووجدوا راحة نفسية وسعادة لا تعدلها سعادة في ثأرهم - لأنفسهم ولمن هم على شاكلتهم من الفقراء المنبوذين - من ذوي اليسار والغنى - أو ظالميهم - وهذا ما يصوره الشنفري ، حين ثأر من واتريه - بني سلامان - في قوله :

جزينا سلامان بن مُفْرج قرضها   بما قدمت أيديهمُ وأزلّت
وهُنِّي بي قوم وما إن هنأْتُهم   وأصبحت في قوم وليسوا بمنبتي
شفينا بعبد الله بعض غليلنا   وعوف لدَى المعدَى أوانَ استهلّت

وإني لحلو إن أريدت حلاوتي ومرٌّ إذا نفسُ العزوفِ استمرّت[1]

وهذا لون من شفاء النفس وتشفِّيها من هؤلاء الموسرين الظالمين .

والكلمة على هذا قد اتسعت دائرتها ، فشملت ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ هذه الجوانب النفسية وأبعادها .

صفات الصعاليك :

اتسم هؤلاء بالشجاعة والصبر عند البأس ، وشدة المراس والمضاء ، وقوة الشكيمة وسرعة الحركة والخفة ، والخبرة بدروب الصحراء ومجاهل المفاوز ، وشدة العدو لدرجة أن أطلق عليهم العدائون ، وضرب بهم المثل في ذلك ، فيقال : أعدى من السليك ، وأعدى من الشنفري ، ويقال : « إن تأبط شرا أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء ، فينتقي على نظره أسمنها ، ثم يجري خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله » ، وكانوا يجيدون ركوب الخيل والإغارة عليها ، ولذلك كان لا يخيفهم التهديد أو الوعيد .

وكانت الصعلكة موضع فخارهم ، لأنها شيمة الشجعان وسمة الأقوياء ، وكانت مغامراتهم موطن مباهاتهم ، وكان الكرم والأنفة والمحبة أنغاماً يتغنَّوْن بها ، وقد وحد المبدأ صف الصعاليك ، وألف الحرمان بينهم .

---

(١) يشير الشنفري إلى أنه ينزل في بني فهم وليس منهم . الغليل : في الأصل حرارة العطش وشدته ، وهو هنا يعني العطش إلى القتل . المعدى : مكان العدو ، والمراد ساحة الحرب . أوان استهلت : أي في الوقت الذي ارتفعت فيه الأصوات للحرب . العزوف : المنصرف . استمرت : من المرارة ، فالشاعر يحدثنا أنه شفي بعض غليله بقتله رجلين من واتريه هما عبد الله وعوف .

شعر الصعاليك :

١ ــ الناحية الموضوعية :

شعر الصعاليك يمثل حياتهم وأحوالهم ونفوسهم من جميع الوجوه خير تصوير ، إذ تتردد فيه صيحات الفقر والجوع والمسغبة ، والتغني بالمغامرات تغني المؤمن بقيمتها في حياته ، الفخور ببطولته فيها ، يقول عروة في مدح الصعلوك المغامر :

ولله صعلوك صحيفةُ وجهه   كضوء شهاب القابس المتنوِّر
فذلك إن يلق المنية يلقَها   حميدا ، وإن يستغْنِ يوما فأَجْدِرِ

وقد أكثر هؤلاء الذؤبان ـ من قطاع الطرق وقراصنة الصحراء ـ من التيه والإعجاب بمغامراتهم ، وبمقدرتهم على النجاة من الأخطار والمآزق والشراك التي تنصب لهم ، يصور هذا قول السليك في مقطوعة له عقب مغامرة :

وما نلتها حتى تصعلكت حقبة   وكدت لأسباب المنية أعرف
وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرّني   إذا قمت تغشاني ظلال فأسدف(١)

وقول تأبط شرا في مقطوعة له ، تصور نفسه أدق تصوير :

إذا المرء لم يحتل وقد جد جده   أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا   به الخطب إلا وهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول   إذا سد منه منخر جاش منخر(٢)

---

(١) أسدف : أي أظلم بصره من شدة الجوع .

(٢) قريع الدهر : يقصد به المجرب البصير ، إذا سد منه منخر : يريد إذا ضاقت عليه الأمور وسدت المسالك .

ويتمدحون - أيضا - بالكرم والترفع ، والبر بالأهل والأقارب ، كما في قول خراش الهذلي :

وإني لأَثْوِي الجوعَ حتى يملّني ... فيذهبَ لم يَدْنَس ثيابي ولا جِرمي
وأغتبق الماء القَراح فأنتهي ... إذا الزاد أمسى للمزلَّج ذا طعم
أرُدُّ شجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة ... وللموت خير من حياة على رغم[1]

وقول عروة الصعاليك :

دعيني أطوّف في البلاد لعلني ... أفيد غنى فيه لذي الحق محمل

وكانوا كثيرا ما يتوعدون ويهددون ، على غرار قول عروة بن الورد :

فإني لمستاف البلاد بسربة ... فمبلغ نفسي عذرها أو مطوف

(فهو يصرح أنه لن يكف عن المغامرة ، ومعه جماعة من الصعاليك الفرسان ، حتى يحقق أهدافه أو يعذر نفسه) .

والصعاليك بعد هذا كله يلحون بالأئمة على أقوامهم الذين نبذوهم ، وصبوا عليهم جام سخطهم وخلعوهم - ولعلهم بهذا يقدمون المعاذير على ما يصنعون ، أو يحنون إلى بيئاتهم ، فيذكرون أفرادها بما اقترفوا في حقهم ، أملا في أن يعودوا إلى الصواب ويعيدوهم - ، من مثل قول قيس بن الحدادية :

---

(١) أثوي : أطيل حبس الجوع . أغتبق : أشرب عشاء . القراح : الماء الصافي . المزلج : البخيل .

جزى الله خيرا عن خليع مطرد رجالا حموه آل عمرو بن خالد

وقول أبي الطمحان القيني ، الذي يعلن فيه أنه نسي أهله في جوار من استجار بهم بعد خلعه :

وقد عرفت كلابهم ثيابي كأني منهم ونسيت أهلي

٢ ـ الخصائص الفنية :

هذه الناحية تتضح في شعر الصعاليك في مناح كثيرة ، منها :

* أن هذا الشعر لا يعدو أن يكون ـ في معظمه ـ مقطوعات لا قصائد ، إذ أن الباحث في هذا الشعر يجد أن المقطوعة ذائعة فيه أكثر من ذيوع القصيدة ، ولعل مرد ذلك إلى طبيعة حياتهم ، تلك التي لا تعرف الاستقرار أو الطمأنينة ، ولا تؤهلهم ليفرغوا للفن ، ليطولوا ويعيدوا النظر فيه ويجودوه ، كما كان يفعل الشعراء القبليون من أمثال زهير وأوس بن حجر والنابغة والأعشى .

وواقع الصعاليك يثبت أنهم ليسوا في حاجة ـ من قريب أو بعيد ـ إلى التنقيح والاستطراد ، فهم ذوو خفة وسرعة واختلاس ، لم يألفوا التمهل والتروي ، فالشاعر الصعلوك ينفعل ويأتي رد الفعل المباشر في مقطوعة تعبر عن الموقف الذي أثار انفعاله .

وكأن القصيدة لم تسعفهم ، أو تحقق لهم ما يصبون إليه من التعبير المباشر عن الفكرة الملحة التي تضغط على مشاعرهم وعواطفهم .

إن التفسير الواقعي يثبت هذا ، فما شعرهم إلا صدى لحياتهم القلقة المضطربة المحفوفة بالمخاطر .

* تبرز في هذا الشعر : الوحدة الموضوعية ، فمقطوعاته لم تخرج عن إطار الموضوع الواحد ، بحيث يتسنى للباحث أن يضع عنوانا لكل مقطوعة ، مطابقا لموضوعها تمام المطابقة ، وهذا يتعذر في الشعر الجاهلي القبلي ، لأن قصيدته رحلة تبدأ بالغزل أو الطلل ، وتظل تنتقل من موضوع إلى موضوع حتى تصل إلى نهاية الرحلة ، ولا يستجاد الشاعر الجاهلي أو يمدح ما لم يلتزم بهذه المقاييس الفنية .

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن قصائد الصعاليك نفسها لم تشذ عن ظاهرة الوحدة الموضوعية ـ شأنها في ذلك شأن المقطوعات ـ فهي إن تعددت أغراضها ، إلا أنها غالبا ما ترجع إلى أصل موضوعي واحد ، ومن ثم فلم يحفل هذا الشعر بالمقدمة التقليدية الطللية التي عرفت عند شعراء الجاهلية ، فليس فيه غزل ، ولا بكاء ديار ، ولا وقوف على أطلال ، وكيف يتأنى هذا ممن يقضي نهاره مترقبا ، وليله متربصا ، لا يستقر في مقام ، ولا يقر له قرار ؟! .

* لا يحرص الصعاليك على التقفية في بداية مقطوعاتهم أو قصائدهم ، ولعل مرد هذه الظاهرة إلى تلك الثورة العارمة التي كانت تموج بها نفوسهم ، وتغلي منها أفئدتهم ، على مجتمعهم وأوضاعه من جانب ، وإلى ذلك الانطلاق الذي كانوا يعيشون فيه من جانب آخر ، فمن الممكن أن تكون تلك الثورة وذلك الانطلاق قد أثرا ـ عن طريق العقل الباطن ، أو اللاشعور ـ في نتاجهم الأدبي ، فجاء شعرهم ثائرا على السمات الفنية في الشعر الجاهلي القبلي ، غير مقيد في أوضاعه الفنية .

وكان الصعاليك قد صرخوا في وجه قبائلهم ، وصرخ شعرهم

ـ تبعا لهم ـ في وجه شعر هذه القبائل ، وكأنهم من زاوية أخرى قد اختطوا لأنفسهم طريقا في الشعر ، كما اختطوا لأنفسهم طريقا في الحياة !! .

* موسيقى هذا الشعر لا تخرج عن موسيقى الشعر الجاهلي ، فقد استعملوا البحور التي ترددت فيها أنغام الشعر الجاهلي ، فلم يشذوا عن الأوزان ، ولم يندوا عن القوافي ، غير أنهم قد أكثروا من الرجز وخاصة قبيل مصارعهم ، فالناظر في شعر الصعاليك الذي قيل قبيل مصارعهم يجد أن معظمه من بحر الرجز .

ولعل سر ذلك يرجع إلى طواعية هذا اللون الشعري إلى الارتجال ، وسهولة هذا الوزن وسيرورته ـ وشعبيته ـ وإلى ملاءمته لحركات القتال ومنازلة الأبطال .

وبعد : فإن شعر الصعاليك يصور لونا من ألوان الحياة العربية ، ويسجل أعمالهم ونفسياتهم وخواطرهم بكل لمحة وكل خاطرة ، ويظل لونا متميزا من ألوان الشعر الجاهلي في ارتباطه الوثيق بالبيئة الصحراوية المكانية ، التي تعد مصدرا هاما من مصادر صورهم وأخيلتهم ومعجمهم اللفظي ، وإليك أبياتا من لاميّة العرب للشنفري :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قوم سواكم لأمْيلُ

فقد حُمّت الحاجات والليل مقمر ... وشُدّت لطيّات مطايا وأرحُل

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى مُتعَزّل

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئٍ ... سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

ولي دونكم أهلون سيدٌ عَمَلّس ... وأرقطُه زهلول وعَرفاء جَيْأل

همُ الأهل لا مستودع السّر ذائع ... لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل

ولا ريب أن كثيرا من أولئكم الصعاليك قد سقط تحت سنابك الخيل ، شهيد الفكرة التي خرج وعاش من أجلها ، والمبدأ الذي اعتنقه ، والذي عبر عنه في الإسلام الأحيمر السعدي حين قال ـ مقررا مبدأ الصعاليك :

وإني لأستحيي من الله أن أرى
أجرر حبلا ليس فيه بعير
وأن أسأل النذل البخيل بعيره
وبعران ربي في البلاد كثير
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

* * *

فنون الشعر الجاهلي وأغراضه [1]

يجدر بنا قبل الخوض في هذا المبحث أن نشير إلى أن الأغراض هي : الموضوعات التي يتناولها الشعراء عرضا في قصائدهم ، وهي عادة ما يتخذونها سلمات أو وسائل ممهدة للأغراض الأساسية التي يهدفون إليها ويرمون .

وأن الفنون هي : الأغراض الأساسية ـ أو الرئيسية ـ للشعراء .

ولما كان الأدب يعالج موضوعات كثيرة ، فقد صنف المشتغلون بالأدب هذه الموضوعات ، وأطلقوا على المتشابه منها فنونا أو أبوابا أو صنوفا .

بيد أنه لما كان الباعث على الشعر العربي الاستجابة لأحاسيس النفوس وانفعالاتها بالحب والبغض ، والتعبير عن رغباتها وتصوير عواطفها ، فقد تشعبت فنون الشعر وتنوعت أغراضه ، وتميز كل فن بالأسلوب الذي يلائمه وينهض به .

وحين يذكر العلماء فنون الشعر فإنهم يقصدون بها تلك الأنواع المبثوثة في بطون الكتب وتضاعيفها ، من الحماسة والفخر والمدح والهجاء والغزل والوصف والاعتذار والحكمة والرثاء .

---

(١) انظر في هذا المبحث : تاريخ الأدب الجاهلي وملحقه د. علي الجندي ، تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان ، جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، حديث الأربعاء ـ د. طه حسين ، خزانة الأدب للبغدادي ، ديوان الحماسة لأبي تمام ، الشعر والشعراء لابن قتيبة ، الصناعتين للعسكري ، العمدة لابن رشيق ، المعلقات وشروحها ، المفضليات للمفضل الضبي ، وغيرها من الكتب التي سبق التنويه بها .

والأصل في الأدب أن يكون فنا واحدا ، هو الوصف ، لأن التعبير في حقيقته وصف للأحوال الحسية والنفسية ، ثم تجزأ إزاء اتساع مدلول الوصف ، يقول ابن رشيق : الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف ، غير أن اتساع مدلول الوصف وشموله حتم تجزئة هذه التسمية ، فسمي النقاد وصف الأحياء مدحا وهجاء ، ووصف الأموات رثاء ، ووصف المرأة والشوق غزلا ونسيبا ، ووصف الخمر خمريات ، والصيد طرديات ، حتى بقي لفن الوصف وصف الطبيعة ومظاهرها ، من ليل وبرق وبحر وخيل وحدائق وقصور وما إليها .

وجدير بالذكر أن معظم الفنون التي تأتي في الشعر تأتي في النثر أيضا ، على أن النثر يمكن أن يرد فيه من الفنون ما لا يمكن في الشعر ، كالخطب والرسائل والتآليف العلمية الخالصة والمقامات ، وذلك لأن صدر النثر أرحب لاستيعاب المعاني ومناقشتها وتفريعها .

وقد أطال العلماء القول في فنون الشعر ، والواقع أنهم في هذا الموضوع بين مقلل مقتصد مدمج ، وبين مكثر مسهب مفرط ، ولعل أول من حاول تقسيم الشعر العربي إلى موضوعات ، وألف فيها ديوانا ، هو أبو تمام المتوفي حوالي سنة ٢٣٢ للهجرة ، ثم تابعه العلماء ، يقول أبو هلال العسكري :

وإنما كانت أقسام الشعر في الجاهلية خمسة : المدح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي ، حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا وهو الاعتذار ، فأحسن فيه [(١)] ، وقالوا : قواعد الشعر أربعة : الرغبة والرهبة والطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون

---

(١) انظر ديوان المعاني جـ ١ ص ٩١ .

الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع .

وفنون الشعر تلوح واضحة للعيان بأروع أسلوب وأجلى بيان ، لمن ينظر في اثار العرب وأشعارهم ، وهلم نقتبس منها هذه الفنون .

الحماسة والفخر :

والحماسة مأخوذة من حمس إذا اشتد ، وهي الشجاعة ، وفن الحماسة من أهم الفنون التي تناولها شعراء العرب على مر العصور ، إذ كانت الحرب ولا تزال سنة دائرة من سنن الحياة ، وقد تميزت حياة الجاهلية بكثرة الوقائع والمعارك ، وكأن الحرب أوشكت أن تكون نظامهم اليومي المعتاد ، وكانوا يستخدمون الشعر يتغنى به الرجال والنساء ، فيثيرهم ويدفعهم دفعا إلى بذل المهج والأرواح رخيصة فداء شرف القبيلة ، ولذلك كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، وشعر الحماسة لم يقف عند حد تمجيد البطولة ، وإنما اقترن تمجيدها بمجموعة من الفضائل طلبوها في البطل الشجاع من مثل الوفاء وإغاثة الملهوف وحماية الجار والكرم والحلم والصبر عند الشدائد ، ورفعة النسب وعلو المكانة والشرف ، ومن هنا يمكننا أن نقول في إيجاز : أن شعر الحماسة العربية هو : شعر البطولة والمثل العليا ، يقول المهلهل متوعدا البكريين قتلة أخيه كليب :

خذ العهد الأكيد على عمري ... بتركي كل ما حوت الديار
وهجري الغانيات وشرب كأس ... ولبسي جبة لا تستعار
ولست بخالع درعي وسيفي ... إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تَبِيد سراةُ بكر ... فلا يبقى لها أبدا آثار

وقد أكثر شعراء العرب من تناول هذه المعاني والإلحاح على هذا الغرض ، واحتل هذا الفن من الشعر لذلك المكان الأول في المختارات العربية التي جمعت ، مثل مختارات أبي تمام المسماة « ديوان الحماسة » ، ومختارات البحتري ، وابن الشجري .

وكان لقوة العصبية ، وحب الشاعر لتخليد مفاخره ومفاخر قبيلته ، الأثر في شيوع الفخر ، إذ وجد الشاعر في الشعر سبيله إلى هذا التخليد .

والفخر تمدح بكرم الخلال وطيب الشمائل والشجاعة والإقدام وعراقة الأصل وكرم المحتد ، والانتصار في الحروب والغارات وغيرها من المآثر الشخصية والقبلية التي تعني بها العرب في الجاهلية ، ومن هنا نتبين أن الحماسة والفخر صنوان لا يفترقان إلا ليلتقيا ، وفي الشعر الجاهلي قصائد طوال في الفخر ، كمعلقة عمرو بن كلثوم ، ومجمهرة أمية بن أبي الصلت ، وعينية سويد بن أبي كاهل اليشكري ، وقد كان العربي يفتخر بنفسه وقومه ، فلا يدعوه الإسراف ولا يجره الغلو إلى وصف نفسه بما ليس فيه ، فلم يكن مبالغاً في الفخر أو نزاعا إلى الإسراف ، وإنما كان فيه مقتصدا ، يمثل الواقعية ، من ذلك قول ودّاك بن ثميل المازني في يوم كان لهم على شيبان :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم	تلاقوا غدا خيلي على سفوان
تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى	إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغر من آل مازن	ليوث طعان عند كل طعان
إذا استُنجِدوا لم يسألوا من دعاهم	لأية الحرب أم بأي مكان

فتراه قد انتزع مفاخره من هذه المظاهر البدوية الصادقة ، وهذا

المثال يصدق على الفخر والحماسة معا .

وكثيرا ما كانوا يمزجون الفخر بالهجاء ، فالشاعر يحاول أن يجرد مهجوه من الفضائل والمآثر التي كانوا يعتزون بها ، ويقصرها على نفسه وقومه .

ومن أمثلة الحماسة والفخر أيضا قول عمرو بن كلثوم :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدر رهن حمرا قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا القوم عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفونا
وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا الحاكمون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخزله الجبابر ساجدينا

وهذا طرفة بن العبد يأنف الاعتصام بالقلاع هربا من القِرى والرفد والكرم فيقول :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أنني
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة
ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وما جاء في الشعر الجاهلي من مبالغة أو غلو أحيانا ، كالمبالغة في شعر عمرو بن كلثوم ، أو في مثل قول عنترة :

إن المنية لو تمثل مثلت   مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل

وقوله :

وأنا المنية في المواطن كلها   والطعن مني سابق الآجال

فإنها تصور شعورهما ، وشعورهما شعور الأبطال ، فهي لذلك مبالغة قريبة ، ومثل هذه المبالغات نادرة في الشعر الجاهلي .

المـــدح :

وهو الثناء والاطراء ، بذكر المآثر والفضائل وتعداد المناقب والخلال الكريمة ، وقد كان المدح في أول الجاهلية عرفاناً للجميل ، وإحساسا بالفضيلة وشعورا باليد ، على نحو ما صنع المثقب العبدي مع خالد بن أنمار ، لما فك خالد أسر ابن أخت المثقب ، فمدحت مدحة جيدة مطلعها :

مترع الجفنة ربعي الندى   حسن مجلسه غير لطم

فما كدنا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى اتخذ المدح وسيلة للتكسب واجتلاب أخلاف الرزق ، فأكثر الشعراء من المديح وبالغوا في الزلفى ، وأقدموا على الملوك والأمراء يمدحونهم لينالوا عطاياهم وجوائزهم ، وعني الشعراء بقصائدهم عناية بالغة حتى سمو بعبيد الشعر ليتحقق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحيهم ، فهم يرضون كبرياءهم ، ويوقظون هاجع العظمة بما يضفون عليهم من صفات ، وكثيرا ما كان

الشعراء يرحلون بالمديح إلى الملوك والأشراف ، ويرجعون بجر الحقائب ، وكان بعض الممدوحين يتخذون المديح وسيلة للدعاية لهم في القبائل ، ومن هؤلاء المناذرة .

ومن أشهر الشعراء الذين أجادوا فن المديح وجودوه : النابغة وزهير والأعشى وحسان والحطيئة .

وقد قالوا : إن أمدح بيت قالته العرب قول النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وكانوا يمدحون بما يفاخرون به ، كما كانوا يمدحون فلا يركبون متن الشطط ، ولا يبالغون في رفعة الممدوح ، وإنما يؤثرون إصابة الصواب ، ويحفلون للحقائق ، ولا غرابة ! فبيئتهم البدوية التي تأثروا بها لم تتلوث طبائعها بأكاذيب المدينة .

ومن مدائحهم قول حجر بن خالد في النعمان بن المنذر - أبي قابوس - وهو من بديع ما نظم فيه :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد كفعل أبي قابوس حزما ونائلا
يساق الغمام الغر من كل بلدة إليك فأضحى حول بيتك نازلا
فإن أنت تهلك يهلك الباع والندى وتضحى قلوص الحمد جرباء حائلا

وقول زهير بن أبي سلمى في حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري :

وأبيض فياض يداه غمامة على معتقيه ما تغب فواضله
بكرت عليه غدوة فرايته قعودا لديه بالصريم عواذله

يفدينه طورا وطورا يلمنه	واعيا فما يدرين أين مخاتله
فأقصرن منه عن كريم مرزإ	عزوم على الأمر الذي هو فاعله
أخي ثقة لا تتلف الخمر ماله	ولكنه قد يتلف المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللا	كأنك تعطيه الذي أنت سائله

الهجاء :

والهجاء ضد المدح ، يسلب المرء ما يعتز به من فضيلة ، ويرميه بما ينفر منه من رذيلة ، وهو مقرون بسخط الإنسان وغضبه .

وقد كان العرب في الجاهلية ينفرون من الهجاء ويتشاءمون منه ، ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فقد كان الهجاء سلاحا لا يقل عند العرب عن أسلحتهم في القتال ، بل أن كلم اللسان أنكى من كلم السنان ، والهجاء إما هجاء قبلي وهو الأكثر الغالب ، وإما هجاء شخصي وهو الأقل ، وكان الشعراء إذا هجوا بعدوا عن الهجر وعفوا عن ذكر السوءات ، أي أنهم كانوا يقتصدون في الإقذاع ولا يسرفون في السب والمثالب ، بل إنهم كانوا يكتفون أحيانا بالتهكم والتشكيك في فضل المهجو ـ وهو لمن يدقق هجاء مر مدمر ـ كما في قول زهير :

وما أدري وسوف أخال أدري	أقوم آل حصن أن نساء ؟!

وظل هذا حال الهجاء حتى كان المتكسبون بالشعر ، فخرجوا عن هذه الدائرة إلى الإفحاش في القول كما فعل الحطيئة :

ولقد كانوا يتهاجون بالعجز عن اكتساب المحامد والتشبه بالآباء ، وبالفقر في صفات المرؤة والنجدة ، فالجاهلي كان يهجو بالعيوب النفسية

الخَلْقية ، لا بالعيوب الجسمية الخُلُقية ، من ذلك هجاء أوس التميمي ليزيد بن الصعق الكلابي ، الذي كان قد هجا بني تميم ، فيرميه أوس بالشر والفتنة وعدم الوفاء وقلة المروءة ، مما استحق الضرب :

وإنك من هجاء بني تميم كمزداد الغرام إلى الغرام
هم منوا عليك فلم تثبهم فتيلا غير شتم أو خصام
وهم ضربوك ذات الرأس حتى بدت أم الدماغ من العظام

وأن الاعتدال في الذم ليدل دلالة قاطعة على أن المجتمع الجاهلي كان مجتمعا سليماً ، يكفي فيه القليل من اللوم للمساس بمنزلة الملوم .

ومن أمثلة الهجاء قول قريط بن أنيف العنبري يهجو قومه ، ويخلط ذلك بمدح أعدائهم ، ليكون ذلك أبلغ في غيظ صدورهم ، يقول :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصري معشر خشن عند الحفيظة أن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهمو قوما إذا ركبوا شَدّوا الإغارة فرسانا وركبانا

الرثـــاء :

عرف الشعر الجاهلي فن الرثاء ، وهو التفجع على الميت وبكاؤه ، وإظهار الأسى واللوعة لفراقه ، والوجد والحزن لموته ، والرثاء في الحديقة مديح الميت ، ومن ثم نجد الجاهليين يرثون بالخلال والخصال التي كانوا يفتخرون بها ويمدحون ، وقد كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية ، رغبة في إثارة قبائلهم للأخذ بثأرهم ، فيمجدون خلالهم ويعددون مناقبهم التي فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى الحرب والثأر ، وقد اتصل بالرثاء والنواح ، إذ كان النساء ينحن على القتيل حتى تثأر له القبيلة ، وما بكاء الخنساء ونواحها على أخويها ـ صخر ومعاوية ـ ببعيد .

ورثاء الأقربين عادة أقرب إلى العاطفة ، ومن رائع ما ندبت الخنساء به أخاها صخرا رائيتها التي منها :

كأن عيني لذكراه إذا خطرت ... فيض يسيل على الخدّين مدرار
فالعين تبكي على صخر وحق لها ... ودونه من جديد الأرض أستار
تبكي خناس وما تنفك ما عمرت ... لها عليه رنين وهي مقتار
بكاء والهة ضلت أليفتها ... لها حنينان : إصغار وإكبار
وإن صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

ولقد تميز رثاء الجاهليين برهافة الحس ، وصدق العاطفة ، والبعد عن المبالغة والتهويل الكاذب ، فلا يزعمون أن الأرض قد مادت ، وأن الأفلاك ضلت أبراجها ، وإنما يكون في الميت وفاءه ونجدته وصبره في المكروه وكرمه ، وغير ذلك مما كانوا يتمدحون به .

وكان من الطريف أن بعض شعرائهم إذا أحس داعي الموت ندب

نفسه ، ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت ، من ذلك قول المتلمس :

خليليّ إما متّ يوماً وزُحزحت ... منايا كما فيما يزحزحه الدهر
فمُرّا على قبري فقو فسلّما ... وقولا سقاك الغيثُ والقطر يا قبرُ

وقول السموءل بن عادياء :

يا ليت شعري حين أندُبُ هالكا ... ماذا تؤبنني به أنواحي ؟!
أيقُلن لا تبعُد فربُّ كريهَةٍ ... فرّجتها بشجاعة وسماح ؟

وما أروع قافية الممذق العبدي في هذا المجال ، والتي أولها :

هل للفتي من بنات الدهر من واق ؟
أم هل له من حمام الموت من راقِ ؟
قد رجّلوني وما رُجِّلت من شعَث
وألبَسُوني ثيابا غيرَ أخلاق
ورفعوني وقالوا : أيُّما رجلٍ
وأدرجوني كأني طيّ مِخْراق

كما كان الشعراء يكثرون من تأبين من يموتون منهم في ميادين الحرب ، وقد يضمنون تأبينهم هجاء لاذعا لخصومهم ، وفخرا بعشيرتهم ومآثرها ، وكذلك أبَّنوا أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، ومن رائع تأبينهم مرثية أوس بن حجر لفضالة بن كلدة الأسدي والتي منها :

أيتها النفس أجملي جزعا ... إن الذي تحذرين قد وقعا
إن الذي جمع السماحة والنجـ ... ـدة والحزم والقوى جمعا
الألمعي الذي يظن لك الـ ... ـظن كأن قد رأى وقد سمعا
أودى وهل تنفع الإشاحة من ... شيء لمن قد يحاول البدعا

وكانوا أحيانا يستهلون مراثيهم بالغزل ، تمشيا مع طبيعتهم في بناء القصيدة ، على نحو ما صنع دريد بن الصمة في رثاء أخيه عبد الله حيث يقول :

أرث جديد الحبل من أم معبد   بعاقبة أم أخلفت كل موعد

وكانوا يتأسون بمن سبقهم من الملوك والأمم والأسود ، ونحو ذلك من أمثلة الرثاء قول دريد بن الصمة في رثاء أخيه :

تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارسا   فقلت : أعبد الله ذلكم الردى
فإن يك عبد الله خلي مكانه   فما كان وقافا ولا طائش اليد
قليل التشكي للمصيبات حافظ   من اليوم أعقاب الأحاديث في غد
وهون وجدي أنني لم أقل له   كذبت ولم أبخل بما ملكت يدي

الغـــزل :

احتل الغزل مكانا بارزا في الشعر الجاهلي ، فلم يخل منه في الغالب مقام من مقامات الشعر ، وليس هذا بعجب ، فالغزل : تعبير عن عاطفة أصيلة في الإنسان إصالة الحاجة الجنسية فيه ، وهو على هذا استجابة لنزعة فطرية في الإنسان .

ولما كان العربي ذا حس دقيق يدرك الجمال ، وكانت بيئته الحارة قد أقفرت من كل الجمال إلا من المرأة ، التي كانت تمثل كل الجمال في آفاق البادية ، فقد جعل العربي حديثه كله إليها ، فتحدث إليها عند افتخاره ببلائه وشجاعته وكرمه ، وعند عشقه وصبابته ، وعند الفرقة والتلاقي ، ذلك لأن بيئته ومظاهرها الطبيعية تثير بواعث شوقه إلى المرأة .

ومن هنا نجد أن غزل العربي الجاهلي موزع بين الذكريات ووصف

المرأة ، إذ كان الشعراء لا يفتأون يفتتحون بها أشعارهم ويجعلونها مطالع قصائدهم ، ويلمون بمنازلها متشوقين ، ويقفون على أطلالها باكين ، والوقوف على الأطلال والبكاء عليها ، إنما هو ترجيع للذكريات يفيض بالحنين الرائع ، ونراهم عندما يقفون عند المرأة فإنهم ينصرفون إلى الأوصاف الحسية (الجسدية) لا يكادون يتركون شيئا فيها دون وصف له حتى ثيابها وحليها ، فهم لم يعنوا بتحليل العواطف وخلجات النفوس وومضات المشاعر .

والغزل في الجاهلية : عفيف وصريح ، والصريح قليل ، والغزل العفيف غالبا ما يكون في البادية ، وقلما صرح الشاعر المحب باسم حبيبته في شعره ، فكان يدور حول لواعج الشوق وبثها ، والأيام الماضية وذكرياتها ، والرغبة في لقاء الحبيبة ، ونادرا ما يتعرض لوصف أعضائها الظاهرة ، من ذلك قول علقمة بن عبدة :

طحا بك قلب في الحسان طروب   بعيد الشباب عصر حان مشيب
يكلفني ليلي وقد مشط وليها   وعادت عواد بيننا وخطوب
ممنعة لا يستطاع كلامها   على بابها من أن تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تفش سره   وترضى إياب البعل حين يؤوب

وأما الغزل الصريح فقد كان شاعره مغرما بالصفات الجسمانية البارزة في المرأة ، يتحدث عنها حديث الذي تتملكه الشهوة وتستبد به الصبوة ، فيصور محاسن جسمها من أرداف وأعجاز ووجه وبطن وعيون ، ويعمد في إلحاح إلى كل ما يثير العاطفة ويؤجج المشاعر ، مثل المهلهل الذي لقبوه بزير النساء ، وامرئ القيس الذي تعهر في غزله وأفحش وابتذل ، ولم يتورع عن ذكر أسماء معشوقاته في فحش ومجون

كما في قوله :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

والقصيدة مليئة بعهر وفحش كثيرين ، وفي قصيدته التي يقول فيها :

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سمو حباب الماء حالا على حال

وكان بعض الشعراء يتعرض لمغامراته مع المرأة ـ وقد نسج الرواة من هذه المغامرات قصصا غرامية ، كحب المرقش الأكبر لأسماء ، والأصغر لفاطمة بنت المنذر ، والمنخل اليشكري للمتجردة زوج النعمان ـ ، وممن تعرض لهذه المغامرات المنخل اليشكري الذي يقول في رائعته :

ولقد دخلت على الفتا   ة الخدر في اليوم المطير
الكاعـب الحسناء تـر   فل في الدمقس وفي الحرير
فدفعتهـا فتدافعـت   مشي القطاة إلى الغدير
ولثمتهـا فتنفسـت   كتنفس الظبـي البهيـر
فدنت وقالت يا منخـ   ـل ما بجسمك من حرور
ما شف جسمي غير حبـ   ـك فاهدئي عني وسيري
وأحبهـا وتحبنـي   ويحب ناقتها بعيري

وامرؤ القيس الذي يعد رائد عمر بن أبي ربيعة في هذا الميدان والذي يقول في إحدى مغامراته :

فقالت : يمين الله إنك فاضحي
ألست ترى السمار والناس أحوال ؟!

فقلت : يمين الله أبرح قاعدا

ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي !!

وكانوا يصفون ظعن المرأة ورحيلها ، من ذلك قول المثقب العبدي :

أفاطم قبل بينك متعيني ودمعك ما سألت كأن تبيني
فإني لو تخالفني شمالي خلافك ما وصلت بها يميني

ثم أنه ظهرت في أفق هذا المبحث كلمات : الغزل ـ النسيب ـ التشبيب ، وهي عند فريق من علماء الأدب ـ وأنا منهم ـ ألفاظ مترادفة ، لأنها تدور حول المرأة وما يتصل بها ، ولكن بعض العلماء يفرقون بين معانيها :

فيطلقون الغزل على : التصابي والاشتهار بمودات النساء وتتبعهن ، وإن لم يتعلق منهن بهوى أو صبابة .

والنسيب : أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى ، وما يعرض له من ذكر محاسن النساء .

والتشبيب : ذكر المرأة في مطالع الكلام ، وما يتصل بذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال .

وليكن معلوما أن غزل الجاهليين لم يتجاوز المرأة ومفاتنها إلى الغزل بالمذكر الذي عرف في العصر العباسي .

وقد كان الغزل ينبوع السلاسة والرقة ، وفيض العذوبة في الشعر العربي ، فهو الحديث عن الآلام العذبة ، والدموع المنحدرة من أجفان

الكلام ، فرقة الشعر ـ كما يقول الجرجاني صاحب الوساطة : « إنما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك » ، من أمثلة الغزل : قول عنترة بن شداد في معرض الذكرى ، التي تهيج عواطف الشوق وتثير آثار الصبابة :

سقتك يا علم السعدي غادية ... من السحاب وروى ربعك المطر
كم ليلة قد قطعنا فيك صالحة ... رغيدة صفوها ما شابه كدر
مع فتية تتعاطى الكأس مترعة ... من خمرة كلهيب النار تزدهر
تديرها من نبات العرب جارية ... رشيقة القد في أجفانها حور
إن عشت فهي التي ما عشت مالكتي ... وإن أمت فالليالي شأنها العبر

الوصـــــف :

فن من فنون الشعر دقيق ، لا ينهض به إلا شاعر أوتي نفاذ البصيرة وصفاء الذهن ودقة الحس ، لذلك قال أبو هلال العسكري أجود الوصف ما يستوعب أكثر معاني الموصوف ، حتى كأنه يصور الموصوف لك فتراه نصب عينيك .

وقد برع شعراء الجاهلية في باب الوصف وأكثروا منه ، وكان شعرهم تصويرا حيا وصادقا لكل ما وقعت عليه أنظارهم وحواسهم من أرض وشجر وجبال وحيوان ورمال ، ومن سماء ورياح وأمطار وبرق وسحاب ، كما وصفوا ديارهم ومواردهم في باديتهم .

وحظيت المرأة بنصيب وافر في وصفهم ، لأنها كانت أنفس مظاهر الجمال عندهم ، فهاموا بها ووصفوا محاسنها وطباعها ، وافتتحوا بذكرها كلامهم في كل المواطن ، وشبهوها بالمهاة والظبية والماء والشمس والنار ،

وافتنوا في وصف الخيل والإبل والبقر الوحشي ، وأبدعوا في وصف الليل وأهواله ، والحرب وآلاته ، ولبراعة التصوير ودقة الوصف وقوة المحاكاة والنفاذ إلى الدقائق الخفية لدى الشاعر الجاهلي يقول الدكتور محمد مندور : إذا كان في العربية شعر يمكن أن يوصف بأنه من قبيل الفن للفن ، فهو بلا ريب شعر الوصف الجاهلي ، وهو الفن الذي برع فيه شعراء الجاهلية وأتقنوه إلى حد الإعجاز الذي لا نكاد نجد له مثيلا في أدب عالمي آخر ، وذلك لفرط دقة الملاحظة واستقصاء الدقائق عند شعراء البادية الذين لم يتركوا فيها شيئا إلا صوروه أدق تصوير ، فوصفوا في دقة حسية بالغة الناقة والحصان وحمار الوحش والذئب ، كما وصفوا الأطلال والدمن والأثافي وبعر الآرام والهضاب والدروب وأعشاب الصحراء ، وبالمثل وصفوا المرأة وصفا حسيا دقيقا .

الوصف عند الجاهليين يتمثل في انتزاع الحقائق من معادنها محلاة بألوانها الطبيعية .

يقول طرفة بن العبد في وصف ناقته :

وإني لأمضي الهم عند احتضاره	بعوجاء مرقال تروح وتغتدي
أمون كألواح الأران نسأتها	على لا حب كأنه ظهر بُرجُد .. إلخ

وقال امرؤ القيس يصف الفرس :

وقد اغتدى والطير في وكناتها	بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا	كجلمود صخر حطه السيل من عل

إلى أن يقول :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة	وإرخاء سرحان وتقريب تتفل .. إلخ

وقال عنترة العبسي يصف روضة مشبها بها صاحبته عبلة :

وكأن فأرة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشية يجري عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح غرد أكفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجزم

ومن ألطف ما قيل في وصف القوم ، عند تبييت العزم على الارتحال وتصايحهم وتناديهم عند الإصباح ، واختلاط أصواتهم حينئذ بأصوات الخيل ولجب المتاع ، قول الحارث بن حلزة :

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصها ل خيل خلال ذاك رغاء

ومن قول طرفة بن العبد في وصف ندماه ومغنيته :

نداماي بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد
إذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظار على ربع ردي
إذا قلت هاتي اسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد

فتراه شبه نغمة الشادية بحنين الإبل المتجاوبة على فصيل هالك ، وهو تشبيه جاف ، قد انتزعه من بيئته البدوية ، فهو كالمقل الذي ينفق مما في يده ، فهذه البيئة لا تعرف المبالغة وأكاذيب المدنية .

لقد وصف الشاعر الجاهلي كل شيء في حياته وبيئته ، فلست ترى أبدع من رقة عنترة في وصف فرسه ، حين ازور من كثرة ما ناله من

رماح الأعداء إذ يقول :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم   يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره   ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه   وشكا إلي بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمي

وهكذا وفي الشاعر العربي في الجاهلية بفن الوصف وبرع فيه وتفوق .

الاعتذار :

هذا اللون من الشعر لم ينتشر في الجاهلية انتشار الألوان الأخرى ، لأنه لا يتفق مع إباء العربي واعتداده بنفسه .

وقد نشأ فن الاعتذار في ظلال فن المديح ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف وعاطفة الشكر والرجاء .

حين يعتذرون يتلطفون في طلب العفو ، ويتقدمون بأدب العتب الممزوج بالخوف من الوعيد ، والقلق من موجدة المعتذر إليه ، وفارس حلبة فن الاعتذار في الجاهلية هو النابغة الذبياني ، فاعتذارياته إلى النعمان ابن المنذر ، حين غضب عليه ، من أروع ما نمقه الجاهليون ، ومنها :

نبئت أن أبا قابوس أوعدني   ولا قرار على زأر من الأسد
فلا لعمر الذي طيفت بكعبته   وما هريق على الأنصاب من جسد
ما قلت من سيئ مما أُتيت به   إذاً فلا رفعت سوطي إلى يدي
إذا فعاقبني ربي معاقبة   قرت بها عين من يأتيك بالحسد

ومن قوله يعتذر للنعمان عن صلته بالغساسنة :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي اهتم منها وأنصب
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مطلب
لئن كنت قد أبلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولكنني كنت امرء إلى جانب من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم احكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلى به القار أجرب
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذب ؟!

الحكمة :

وهي فن قديم وواسع في الشعر الجاهلي ، وتعني ذكر الآراء الصائبة التي تصدق في الواقع ، أو توافق المنطق ، أو توجز نتائج التجارب أو الاختبار الطويل في ألفاظ يسيرة ، وظهورها على هذا النحو يدل على صفاء فطرة الجاهليين وكثرة تجاربهم ، وقدرتهم على استخلاص العبرة والعظة من الأحداث .

والحكمة والمعاني التهذيبية تتداخل في القصيدة مع الأغراض الأخرى ، وقد يفرد لها الشاعر مقطوعات ، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لبنيه ، على نحو ما صنع عمرو بن الأهتم في وصيته لابنه التي يستهلها بقوله :

وإن المجد أوله وعور ومصدر غيه كرم وخير
وأنك لن تنال المجد حتى تجود بما يضن به الضمير

ولامية بن أبي الصلت وزهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد والأفوه والأودي وعلقمة بن عبده وغيرهم نصيب وافر من الحكمة ، يقول طرفة :

أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى ... بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غد
لعمرك أن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخي وثنياه باليد
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقول النمر بن تولب :

يود الفتى طول السلامة جاهدا ... فكيف ترى طول السلامة يفعل ؟

ويقول ذو الإصبع العدواني :

كل امرئ راجع يوما لشيمته ... وإن تخلق أخلاقا إلى حين

وقال عمرو بن الأهتم :

لعمرك ما ضاقت بلاد أهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق

وهذا علقمة بن عبدة يقرر رأيه في المرأة وما تطلبه من الرجل قائلا :

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب

ومن حكم زهير في معلقته :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ومن لم يصانع في أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

يلاحظ ـ بعد ـ أن فنون الشعر الجاهلي هذه وليدة البيئة ، ونابعة من الحياة الجاهلية ، ولذلك لم تعمد إلى المبالغة ، ولم تجنح إلى الأكاذيب والتهاويم ؛ وأن منها ما استفاض وذاع ، ومنها ما نضب وقلّ .

* * *

خصائص الشعر الجاهلي

صور الشاعر الجاهلي بيئته أتم تصوير ، فقد دون في شعره ما رأى وما أحس ومزج فيه الحياة التي حوله بمشاعره وأحاسيسه ، وكان في تعبيره عن ذلك يتخير أصدق الألفاظ وأقربها .

وكان شعره نابعا من وجدانه ، منبعثا عن نفسه ، جديدا في لونه مبتكرا ، بعيدا عن الحذو والتقليد .

والشعر قد اتسم بخصائص في ألفاظه وأساليبه ومعانيه :

١ ـ فأما خصائصه اللفظية فتتمثل في :

جزالة الألفاظ : إذ تنعكس عليه خشونة البادية وصلابتها ، فضلا عن وقوع العصر الجاهلي في إطار ما يسميه علماء الأجناس البشرية « الأنثروبولوچيا » بنقاء الجنس ، والمؤدي ـ بالفعل إلى سلامة لغته من شوائب العجمة أو اللحن .

وهذه الغرابة التي قد نجدها عندهم ، تعود إلى بعد الزمن بيننا وبينهم ، وعدم إدراكنا إدراكا كافياً مرمى هذه الألفاظ ، على أن غلبة هذه الصلابة والقوة اللفظية تبدو بخاصة في وصف انتماءات البيئة الصحراوية من حيوان وجماد وما إليهما ، ومن ذلك قول طرفة في وصف ناقته :

صهابية العثنون موجدة القرا ... بعيدة وخْد الرجل موّارة اليد
جنوح دقاق عندل ثم أفرعت ... لها كتفاها في معالي مصعد
كأن علوب النّسْع في دأياتها ... موارد خلفاء في ظهر قردد[1]

---

(١) الصهابية : التي يمتزج فيها البياض بالحمرة . العثنون : شعر تحت الحنك . ==

بيد أن الموضوعات الإنسانية تكاد تخلو من الكلمات الغريبة ، وتفيض بالألفاظ المأنوسة ، التي تتغشاها السلاسة ، كما في قول المهلهل في رثاء أخيه كليب وائل :

دعوتك يا كليب فلم تجبني   وكيف يجيبني البلد القفار
أجبني يا كليب خلاك ذم   لقد فجعت بفارسها نزار
سقاك الغيث إنك كنت غيثا   ويسرا حين يلتمس اليسار

وقول المنخل اليشكري في الغزل :

ولقد دخلت على الفتا   ة الخدر في اليوم المطير

غلبة استعمال الألفاظ في معانيها الحقيقية : وهذه الخاصية إنما ترجع إلى تلك النشأة التي احتفت بالحرية من كل جانب ، ووضوح حياتهم وقيامها على الصدق والصراحة ، والشعراء لذلك لم يتوجهوا إلى المجاز إلا قليلا .

٢ ـ وأما خصائص الأسلوب :

فأسلوب الشعر الجاهلي يغلب عليه الإيجاز ، وأداء المعنى من أقرب طريق بأقرب لفظ وأوجزه ، وحذف الفضول وجودة السبك ، وشدة الأسر ، واطراد التعبير من طريق الحقيقة ، والتشبيه غالبا ، والبعد

== موجدة القرا : الناقة القوية الظهر . الوخد : ضرب من السير . الموارة : السريعة الحركة . الجنوح : المائلة من شدة السرعة . الدقاق : المتدفقة . العندل : العظيمة الرأس . أفرعت : رفعت . علوب النسع : آثار حزام الرِّجْل . الدأيات : الضلوع . موارد : طرق . خلقاء : الصخرة الملساء . القردد : الأرض الصلبة .. وجميعها كلمات من خصوصية البيئة الصحراوية .

عن الزخارف والمحسنات ، فالشاعر الجاهلي زاهد في زخرفة اللفظ وتجميله وتزويقه ، ولم يقصد إلى جناس أو طباق أو ضرب آخر بديعي قصدا ، وإن وقع في شعره فإنما يكون ذلك اتفاقا ، وإتيانه عفوا ، ولعله لم يفطن إليه .

إنها أساليب فطرية ، تنضرها الطبيعة المشرقة ، وتزينها الصراحة والوضوح ، وكذلك كان يغلب على أساليبهم الطابع البدوي ، من إيراد المعاني في صورة الخطاب لما لا يعقل من طلل أو ناقة أو فرس .

متانة التركيب وبلاغة الأداء : فالتركيب في الشعر الجاهلي يجري على ضوابط اللغة وقواعدها ، ولا يبدو للناظر فيه ضعف أو خلل بوضع لفظة في غير مكانها ، أو حشو لا طائل منه مثلا ، كما يتضح أن تراكيبهم كانت تؤدي المعاني المقصودة منها ، وتبرز الأفكار في قوة ووضوح ، ولا ريب فقد ارتضعوا أفاويق العربية ، وشبوا عليها منذ نعومة أظفارهم .

٣ ـ وأما خصائص الشعر المعنوية : فيلاحظ على معاني هـذا الشعر :

أ ـ الوضوح والبساطة وقرب التناول ، فمعانيه فطرية ، ليس فيها تكلف ولا إغراق ، أو جري وراء النزعات الفلسفية ، وهي معان حسية تصور الواقع وتعتمد على المشاهد المألوفة ، فالشاعر لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء ، بل كان ينقلها إلى لوحاته نقلا أمينا ، والمعاني منتزعة من البيئة ، ونادرا ما تسربت المبالغـة إلى هـذا الشعر ، لقد كان الشاعر يجري على طبعه وسجيته ، فلم يتكلف القول فيما لا يشعر به .

وقد شذت بعض أبيات تجاوز فيها شعراؤها حدود المعقول ، من ذلك قول مهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح أسْمَع أهل حَجْر   صليلُ البيض تُقرعُ بالذكور

وقول أبي الطمحان القيني :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظّم الجزعَ ثاقبُه

ب ـ الحركة : فالشعراء الجاهليون لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر الملل في النفوس ، وإنما أشاعوا فيها الحركة ، فترى الشاعر في مقدمة قصيدته لا يكتفي بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، بل كثيرا ما يصور ظعن حبيبته وصواحبها في القافلة ، وقد خرجت تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع ، وعَيْنُ الشاعر بإزائها تسجل هذه الرحلة تسجيلا بديعا ، لا شك أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات والاستقرار .

ج ـ قلة العناية بترتيب الأفكار ، إذ يلاحظ على معانيهم تواردها على نحو ما تمر على الخواطر والشعور دون تسلسل منطقي ، ومن هنا بدأ مساق الأبيات كأنه مفكك ، ووشائج المعاني تكاد تكون واهية ، فالشاعر في القصيدة الطويلة يخرج من غرض إلى غرض من غير توطئة ولا تمهيد في مفاجأة واقتضاب ، والقصيدة تشتمل على طائفة من الموضوعات والعواطف ، التي لا تبدو بينها صلة ظاهرة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر والمشاعر يجمع بينها الوزن والقافية ، فتراك إذا حذفت بيتا ، أو قدمته ، أو أخرته ، لم يختل المعنى ، وهذا راجع إلى بداوتهم وكثرة ارتحالهم ، فما أشبه القصيدة عندهم

بفضائهم الواسع الذي يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، ومن أجل ذلك عدّ النقاد الوحدة في هذا الشعر وحدة تقوم على البيت الواحد .

لكن هناك وحدة عامة تلوح في منهج القصيدة ، اصطلح عليها كل الشعراء .

أما القصيدة القصيرة أو المقطوعة فتبدو فيهما الوحدة الموضوعية والتجارب الشعورية الكاملة الصادقة ، على ما فيها من سرعة وإيجاز .

د ـ النزعة الوجدانية : فالشعر الجاهلي وجداني في المقام الأول يصف نفس قائله وشعوره .

هـ ـ الخيال : وقد كان محدودا بحدود البيئة ، فالشاعر يستمد تشبيهاته واستعاراته وكناياته مما حوله في بيئته ، وهي ـ لا شك ـ محدودة ، متشابهة المناظر ، ومن ثم كان خيالهم فطريا ساذجا ، لا يحلق إلا بقدر ، ولا يسرف ولا يوغل ، فتراه قريبا من أرض الحقيقة ، وقد كان خيال الجاهلي لا يزال يعتمد على التشابيه والاستعارات والكنايات القريبة ، أكثر من اعتماده على انتزاع الصور البعيدة من الطبيعة ، وأوضح ما يمثل هذه الخصائص أشعار الفحول في الجاهلية من أمثال : امرئ القيس ، والنابغة الذبياني ، وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة بن العبد ، وعنترة بن شداد ، وغيرهم ، في معلقاتهم ، أو في قصائدهم السيارة الأخرى .

* * *

النثر في الجاهلية

الخطابة :

الخطابة تعني : ذلك اللون من الكلام الذي له شأنه من التأثير يلقى على مسامع الجمع من الناس بقصد الإقناع .

والخطابة كانت فنا لا بد منه للعرب في الجاهلية ، فقد كان كل شيء عند الجاهليين يؤهل لوجود الخطابة وازدهارها ، ولا شك أنه كان للعرب خطابة وخطباء ، وقد روى القالي ـ في أماليه ـ ، وابن عبد ربه ـ في عقده الفريد ـ وغيرهما ، مجموعة من خطب العرب في الجاهلية ، وهي تثبت وجودها من جهة ، وازدهارها من جهة أخرى .

ولا ريب .. فإن سنة الانتماء الجماعي ، أو استقرار الجماعات البشرية ، وظهور السيادة أو الرياسة ، تقتضي بالضرورة ـ والضرورة الملحة ـ ظهور الخطابة ، ولعل هذا هو السر في نشأة الخطابة في سائر المجتمعات .

أما دواعي ازدهار الخطابة عند الجاهليين فقد كان كل شيء عندهم يؤهلها لذلك الازدهار ، فالحرية موفورة ومكفولة ، والخصومات والمنازعات مستمرة ، والنداء بالحرب تارة والسلم أخرى ، والمجالس في كل مكان منتديات أدبية ، وميادين لإظهار براعتهم في المقال ، وتفننهم في الكلام ، للتفاخر بهذه الآثار الأدبية ، وشيوع الأمية بينهم ، وتباعدهم في ديارهم ، وواتتهم ملكاتهم البيانية ، وما اتسموا به من حضور بديهة ، وفصاحة بيان ، وخلابة لسان ، وهذا ما يؤكد عليه الجاحظ في قوله : « وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ،

وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر ... من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب » .

وكان من سادات عشائرهم خطباء ، يقومون فيهم مقام المؤدبين من الحكام في الأمم الراسخة النظام والدول القائمة .

ولو أن العرب كانوا يكتبون أو ينقشون لظفرنا من اثار بلاغتهم في المساجلة بالخطب والمحاورات والمنافرات شيئا كثيرا ، ولهذا فإنك لا تزال تذكر كثيرا من خطبهم وساداتهم ، ولا تجد للأكثر منهم شيئا يذكر .

لهذه الدواعي ازدهرت الخطابة في الجاهلية وأينعت ، وتناولت أغراضا متنوعة ، ومواطن متعددة ، فاستخدمت في المنافرات والمحاورات والمفاخرات ، والحض على القتال وشحذ الهمم ، وإلهاب القلوب ، وبعث الموجدة في النفوس ، فكانت تثير الشعور وتوقظ الوجدان ، يقول عامر المحاربي يمدح قومه :

وهم يدعمون القول في كل موطن ... بكل خطيب يترك القوم كظما
يقوم فلا يعيا الكلام خطيبنا ... إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما[1]

كما استخدمت الخطابة في الدعوة إلى السلم ، ونبذ العداوة والحرب وسفك الدماء وإصلاح ذات البين ، وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبي :

ومتى تقم عند اجتماع عشيرة ... خطباؤنا بين العشيرة يفصل

---

(١) كظم : جمع كاظم ، وهو الساكت غيظا . الجبس : اللئيم المنقطع الجبان .

وعند وفادتهم على الأمراء ، كذلك استخدموها في النصح والإرشاد والزواج والمصاهرة .

وخطبهم تتنوع بين القصر أو الإيجاز والإطناب ، على مقتضى الأحوال الداعية والمقامات المختلفة .

وليس تنوع الخطابة وأغراضها المختلفة هو دليل نهضتها فحسب ، وإنما كثرة الخطباء أيضاً ، فنراهم يعدون من أقدم خطبائهم : الجد السابع للنبي ﷺ وهو : كعب بن لؤي ، ولا يعرفون عنه إلا أنه كان يخطب على العرب عامة ، ويحض كنانة خاصة على البر ، وأنه لما مات أكبروا موته ، وأرخوا به إلى عام الفيل ، ويعدون من أشهر خطبائهم : قيس بن خارجة خطيب حرب داحس والغبراء ، وليس له كلام إلا قوله حين سئل عما عنده في حمالات داحس والغبراء : « عندي قرى كل نازل ، وأمان كل خائف ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى عن التقاطع » ، وكذلك : خويلد بن عمر الغطفاني ، خطيب حرب الفجار ، وقس بن ساعدة خطيب عكاظ ، وأكثم بن صيفي حكيم العرب وقاضيها وزعيم خطبائها ، وقد ماج كتاب البيان والتبيين بأسماء الكثيرين ، كنفيل بن عبد العزي جد عمر بن الخطاب ـ وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم ، وحرب بن أمية ـ ، وعتبة ابن ربيعة ، وسهيل بن عمرو الأعلم ، وعامر بن الظرب العدواني ، وهانئ بن قبيصة الشيباني خطيب يوم ذي قار ، وهرم بن قطبة الفزاري ، وضمرة بن ضمرة ، الذي قال للنعمان بن المنذر لما دخل عليه ، فزرى عليه النعمان للذي رأى من دمامته وقصره ، بقوله : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » ، فقال : أبيت اللعن : أن الرجال لا تكال

بالقفزان [١] ولا توزن بالميزان ، وليست بمسوك [٢] يستقى بها ، وإنما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان ، وإن قال قال ببيان » ، ومن خطباء العرب الأفذاذ أيضا : عمرو بن الأهتم المنقري ، ويروى أن الرسول ﷺ سأله عن الزبرقان بن بدر فقال : « مانع لحوزته ، مطاع في أذنيه » ، فقال ابن بدر : « أما أنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي » ، فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر [٣] المروءة ، لئيم الخال ، حديث الغنى » ، فلما رأى أنه قد تناقض في قوليه ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله ، قال : « يا رسول الله ! رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة » ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « إن من البيان لسحرا » ويروى « وإن من الشعر لحكمة » .

ومنهم : قيس بن عاصم ، وقس بن ساعدة ، وغير هؤلاء وهؤلاء .

هذه الكثرة الكاثرة من الخطباء تدل على أنهم كثيرا ما خطبوا في أقوامهم وقبائلهم ، وإلا ما اشتهروا بالبراعة والذيوع في هذا اللون .

لقد كانت الخطابة سجية من سجايا السيادة ، فلا يتألق نجم سيد إلا إذا كان خطيبا مفوها ، فالخطابة قرين السؤدد والشرف والرياسة ، ومن هنا قال أبو عمرو بن العلاء : لما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار

---

(١) القفزان : جمع قفيز ، وهو مكيال عراقي .
(٢) مسوك : جمع مسك وهو الجلد .
(٣) زمر : قليل .

الخطيب عندهم فوق الشاعر .

آداب الخطباء وسننهم :

لا يكمل الخطيب عند الجاهليين ، ولا يسمو إلا إذا توافرت فيه خصال اصطلحوا عليها ، منها : طيب المحتد ، وشرف الأصل وعراقته ، وصدق الحديث ، وجهارة الصوت ، وقلة التلفت ، ونظافة الملبس ، كما تعارف الخطباء على سنن وتقاليد في خطابتهم ، فكانوا يخطبون على رواحلهم ، أو قياما على نشز ـ مكان مرتفع ـ من الأرض ، وقد اعتجرت عمائمهم على رءوسهم ، وفي أثناء خطابتهم يمسكون بالعصى أو المخاصر والقسي ، ولعل الغرض من ذلك كله ، هو استكمال ما يكون الخطيب به أكثر تأثيرا ، وأشد وقعا ، وتكون النفوس لقوله أكثر قبولا .

وكان العرب يمدحون في الخطيب ـ إلى جانب ما ذكرنا ـ ثبات الجنان وحضور البديهة ، وكانوا يعيبون فيه التنحنح والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام ، حتى قال النمر بن تولب :

أعذني رب من حصر وعى ومـن نفس أعالجهـا علاجـا

سماتها الأسلوبية :

يغلب السجع على خطب الجاهليين ـ وهواتحاد القافية ، وتساوي الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ـ ، والجاحظ يجعل السجع كالقاعدة العامة في خطابتهم ، فيقول في البيان والتبيين : « أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزي كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حذار » .

وقد تخرج عن السجع إلى الازدواج ـ وهو بناء الكلام على جمل

متساوية متناسقة ، تكون ذات مقاطع تستقل غالبا بمعناها ، وينتهي الكلام بانتهائها ، من غير التزام قافية ولا اتحاد فاصلة ـ .

كما تخرج إلى النثر المرسل ـ وهو العاري عن التزام القافية وتساوي الجمل ـ ، ومعنى هذا أنهم عرفوا إلى جانب السجع الذي غلب عليهم في خطبهم المزدوج والمرسل ، وأن الخطباء كانوا يبتغون التجويد في كلامهم ، بما يصوغونه فيه من سجع ، وبما يبرزونه فيه من أخيلة واستعارة .

ولقد كانوا يعنون ببهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، عنايتهم بوضوح الحجة وفلج البرهان ، وذلك لأن الخطابة كانت تقوم على إثارة الشعور وإيقاظ الوجدان ، وقد توزعت خطبهم بين الإيجاز والإطناب ، لكل هذا وصف العرب خطباءهم بأنهم مصاقع ولسن ، وأن الخطباء قد افتخروا بذلك ، وهذا قيس بن عاصم المنقري يصف ما يتمتع به وعشيرته من الخطابة والفصاحة قائلا :

إني امرؤ لا يعتري خلقي ... دنس يفنده ولا أفن[١]
من « منقر » في بيت مكرمة ... والأصل ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقوم قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن

وإليك نماذج من خطابة الجاهليين :

خطب هاشم بن عبد مناف في الإصلاح بين القرشيين والخزاعيين فقال : « أيها الناس .. نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب

---

(١) أفن : ضعف الرأي .

والنسب ، ومعدن المجد ، ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم ، يا بني قصي ! أنتم كغصني شجرة أيهما كسر أوحش صاحبه [١] ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامي العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أغضبه اللجاج أخرجه إلى البغي [٢] .

أيها الناس ! الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر عبر ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول [٣] تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم مكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنيئة فإنها تضيع الشرف وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته [٤] ، ورأس العشيرة بحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به » .

وخطب عبد المطلب بن هاشم ـ سفير قومه إلى اليمن ، حينما حررها عاهلها سيف بن ذي يزن من الأحباش ، فهز ذلك الحادث العظيم قلوب العرب ، فذهب وفد من قريش لتهنئة سيف بن ذي يزن ، وكان على رأس الوفد عبد المطلب بن هاشم ـ فقال : « أيها الملك ! إن الله أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا باذخا شامخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته

---

(١) أوحش صاحبه : شعر له بالوحشة والانفراد .
(٢) اللجاج : المبالغة في الخصومة . والبغي : الظلم .
(٣) الفضول : ما لا طائل تحته .
(٤) النهنهة : الزجر والإبعاد .

وعزت جرثومته [١] ، ونبل أصله وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب وربيعها الذي به تخصب ، وملكها الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولسن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من أنت سلفه ، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشفك الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة .

لما قدم وفد إياد على النبي ﷺ قال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسول الله . قال : كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق ، وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ، ما أجدني أحفظه . فقال رجل من القوم أنا أحفظه يا رسول الله ، قال : كيف سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول : أيها الناس ! اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج [٢] ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة [٣] ، وأنهار مجراة !! .

إن في السماء لخبرا ، وإن في الأرض لعبرا ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ .

وإلـه قس ما على وجه الأرض دين أفضل من دين أظلكم زمانه ،

---

(١) أرومته : أصله . عزت جرثومته : قوي وعظم شأنه وأصله .
(٢) داج : مظلم . ساج : دائم . أبراج : جمع برج ، والمقصود بها الحمل والحوت وما بينهما من أبراج .
(٣) مدحاة : مبسوطة .

وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه ، ثم أنشأ يقول :

فـي الذاهبين الأوليـ	ـن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لامحا	لة حيث صار القوم صائر

وفي زواج محمد بن عبد الله رسول الله بخديجة بنت خويلد ، خطب أبو طالب فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس .

ثم إن محمد بن عبد الله ـ ابن أخي ـ من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا ، وإن كان في المال قل ، فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلي .

ولعل فيما سقناه ما يدل الدلالة الواضحة على رسوخ قدم الخطابة عند العرب في الجاهلية وازدهارها ، وعلى قدم هذا اللون من النثر ، وتنوع أغراضه وموضوعاته ، وعلى أن الخطباء كانوا حريصين كل الحرص على أن يقع كلامهم في قلوب مستمعيهم ، ليؤثر في نفوسهم ، فيقتنعوا بما يسوقون إليهم أو يقررون ، ولهذا حشدوا له من ضروب البيان والبلاغة ما حشدوا .

الوصايا والحكم :

الوصايا : لون من الخطب ، غير أن الوصية لا تصدر إلا عن مجرب حكيم لأبناء قومه ، أو عن سيد لعشيرته ، أو عن أب لابنه ، أو أم لابنتها ، وكثيرا ما تكون عند الإحساس بدنو الأجل ، أو الإشراف على الوداع .

وتتسم الوصية بقصر عباراتها وتتابع أفكارها ووضوح معانيها وحسن وقعها في النفوس ، والموصي يصب في وصيته خلاصة تجاربه في معترك الحياة .

من ذلك وصية أكثم بن صيفي التميمي لقومه وبنيه ، تلك التي يقول فيها :

يا بني تميم : لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي [١] ، إن بين حيزومي [٢] وصدري لكلاما ، لا أجد له مواقع إلا أسماعكم ، ولا معار إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ، تحمدوا مغبته [٣] .

الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول [٤] ، ولن يعدم المشاور مرشدا ، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ، ومن سمع سمع به [٥] ، ومصارع الرجال تحت بروق

---

(١) يعني إذا مات .

(٢) الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جهة الصدر .

(٣) المغبة : العاقبة والأثر .

(٤) الحزم : ضبط الأمر . ومعقول : محبوس .

(٥) سمع : شنع وشهر .

الطمع ، ومن سلك الجدد أمن العثار [١] .

يا بني تميم : الصبر على جرع الحلم أعذب من جني ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان [٢] ، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم ، فإذا نجمت فهي أسد محرب [٣] ، أو نار تلهب .

ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز [٤] ، ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب .

ومن وصاياهم أيضا وصية امرأة عوف بن محلم الشيباني ـ وهي أمامة بنت الحارث ـ لابنتهـا أم إياس ، وكان عمرو بن حجـر ملك كندة ـ جد امرئ القيس الشاعر ـ قد خطبها إلى أبيها ، فزوجها منه ، فلما كان بناؤه بها أوصتها أمها وصية لم تدع شيئا من تأديب المرأة وكفايتها إلا وعته فيها ، قالت :

أي بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها .. كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ، أي بنية ! إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت ، وعشك الذي فيه درجت ، إلى وكر [٥] لم تعرفيه ، وقرين

---

(١) الجدد : كالجد ، يعني الطريق المستوي .
(٢) الكلم : الجرح .
(٣) محرب : شديد الغضب .
(٤) لا يجوز : لا يفوت ، أي لا يجب الأخذ به .
(٥) الوكر : عش الطائر .

لم تألفيه ، فكوني له أمة ، يكن لك عبدا ، واحفظي له خصالا عشرا ، يكن لك ذخرا ، أما الأولى والثانية : فالصحبة بالقناعة ، وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، وأما السابعة والثامنة : فالاحتفاظ بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله ، وملاك الأمر في المال حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير ، وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصين له أمرا ، ولا تفشين له سرا ، فإنك إن عصيت أمره أوغرت صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتما ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحا ، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت . والله يخير لك .

والحكم : جمع حكمة ، وهي قول موجز يتضمن حكما مسلما ، ناتجا عن تجربة وخبرة ، حاثا على الفضائل ، كافا عن الرذائل ، وقد كان العرب - على الرغم من بداوتهم - أقدر الناس على إرسال الحكمة ، وذلك لمقدرتهم البيانية ، ومطاوعة الكلام لهم ، ولأنهم تفرغوا لصناعة الكلام والمساجلة بالبيان .

والحكمة حصيلة تجارب عديدة ، والحكيم يجريها على لسانه سحرا يهز القلوب ، وحكما دونه أي حكم ، ومن أقدم حكمائهم لقمان الحكيم ، وإليه ينسب : « رب أخ لك لم تلده أمك » ، « آخر الدواء الكي » .

وقد اشتهر من حكماء العرب في الجاهلية ، أكثم بن صيفي

التميمي ، وذو الأصبع العدواني [١] ، وعامر بن الظرب ، وقس بن ساعدة ، وغيرهم ممن كانت تجري على ألسنتهم الحكمة ، وأحكم الحكماء أكثم وعامر ، وقد ساق السيوطي في مزهره ـ نقلا عن الأمالي ـ طائفة من حكم أكثم ، من بينها : « رب عجلة تهب ريثا [٢] ، ادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل ، المرء يعجز لا محالة ، لا جماعة لمن اختلف ، أسرع العقوبات عقوبة البغي ، ألم الأخلاق أضيقها ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة ، شر الملوك من خافة البريء ، آفة الرأي الهوى ، ليس من العدل سرعة العذل ، ليس بيسير تقويم العسير ، رب قول أنفذ من صول [٣] ، مقتل الرجل بين فكيه ، إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد ، لا تطمع في كل ما تسمع ، لو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم ، حافظ على الصديق ولو في الحريق » .

والحكمة تكون نثرا ـ كما رأينا ـ ، وقد تكون شعرا ، وقد عرف من شعراء الجاهلية بالحكمة : أمية بن أبي الصلت ، وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة بن العبد ، والنمر بن تولب ، وعدي بن زيد ، وغيرهم ، من ذلك قول المرقش الأصغر :

ومن يلق خيرا يحمد الناس أمره   ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

وقول ذي الإصبع العدواني :

---

(١) اسمه : حرثان بن الحارث ، وسمي ذا الإصبع لأن حية نهشت إبهام قدمه فقطعها وعمر طويلا ، ومات قبيل الإسلام .

(٢) الريث : البطء ، أي رب عجلة تفوت على صاحبها حاجته .

(٣) الصول : الاستطالة في الحرب .

كل امرئ راجع يوما لشيمته   وإن تخلق أخلاقا إلى حين

والحكمة تورث العبارة بهاء وتخلع عليها قبولا ، يرتفع به مكانها ، ويعلو جانبها ، فتتلقاها الأسماع ، وتعيها الصدور ، وتسير في الآفاق ، فضلا عما تثيره في النفوس من فضائل ومكارم أخلاق .

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن الحكمة الجاهلية لم تعرف المذاهب التقريرية الفلسفية ، وأن ما جاء منها مشيرا إلى فلسفة ، فإنما هو الشأن في المذهب الفلسفي .

الأمثال :

والأمثال : جمع مثل ، وهو : قول موجز مأثور سائر ، يشبه فيه مضربة بمورده ، أي يقصد به قياس - أو تشبيه - حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله ، فلكل مثل مورد هو الحال التي قيل فيها أصلا ، ومضرب هو الحال التي يقال فيها ، فهو كالحكمة ، غير أن المثل في معظمه يشير إلى قصة ، وكان العرب يحفظون قصصها ، وينطقون بألفاظها في مضربها المشابه لموردها ، وعلى هذا فالقصة تتعلق بمجموع الأمثال لا بجميعها ، وهذا يوحي - بلا ريب - بأن المثل رمزا أو عنوان لقصة وقعت على مسرح الحياة ، أو استمدت من الخيال الملهم ، والتصوير المبدع المفتن .

وهي تصدر من وحي الفطرة السليمة ، والحس الصادق المرهف ، والتجربة الصائبة ، وتدل على حضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وقيمة انتزاع العقول ، والقدرة على الإفحام .

والمثل يهب الكلام رونقا وبهاء ، ويخلع عليه قبولا وحسنا

كالحكمة ، علاوة على أن المثل يعطيك بلاغ الحجة ، وانقطاع الخصم ، والاستغناء به ـ على قلة ألفاظه ـ عن بسط المعنى المتنازع عليه فيما تحكيه صورة المثل ، فهو من مظاهر الإيجاز في اللسان العربي ، والمثل لذلك نهاية البلاغة ، يقول ابن المقفع : « إذا جعل الكلام كله مثلا كان أوضح للمنطق ، وأنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث » .

والأمثال تضم كثيرا من عادات العرب وتقاليدهم وأخلاقهم .

والمثل يكون نثرا وقد يكون شعرا ، وهو في كلتا الحالين يخرج إلى حدود الرمز الأدبي ، ذلك الذي يدوي في السمع ، فيستقر في الذهن ، وتتحرك له العاطفة ويتأثر الشعور .

وقد عني المتقدمون بأمثال العرب ، فسجلوا منها الآلاف المؤلفة ، وهي تمثل ألوان الحياة المختلفة ، وتصور آمال القوم وآلامهم ، وخلجات نفوسهم ، والأمثال بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة لا تتغير صورها الأصلية ، والعرب منذ أواسط القرن الأول للهجرة يدونون الأمثال ويؤلفون فيها ، غير أن أشهر ما وصلنا مما جمع وشرح من ذلك الكتاب : أمثال العرب للمفضل الضبي ، وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ، ومجمع الأمثال للميداني ، إلى جانب أن كتب الأدب قد ضمت كثيرا من أمثال العرب ، وهاك طائفة من الأمثال : « حسبك من شر سماعه » يضرب للغيرة على حسن السمعة ، والبعد عما يسبب الانتقاص ، وقد عبر الشعر عن هذا المعنى ، إذ قال الشاعر :

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك من قول إذا قيلا

« حبك الشيء يعمي ويصم » يضرب للتغاضي عن الهفوات ،

كما تقضي الطبيعة البشرية حين تحب ، « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » أي لا تكون الحرة ظئرا وإن أذاها الجوع ، يضرب لترفع الكريم عن ملابسة الخسيسة ، قائله الحارث بن سليل الأسدي ، « هدنة على دخن » يضرب لفساد الضمائر التي تزمع الغدر من وراء المهادنة ، « عينك عبري والفؤاد في دد [١] » يضرب لمن يظهر لك خلاف ما يبطن ، « يداك أوكتا [٢] وفوك نفخ » يضرب لمن يقع في شر ما يفعله ، « استنوق الجمل » يضرب لمن يظهر أن عنده رأيا ثم يتضح عجزه ، « جزاء سنمار » سنمار : رجل رومي بنى للنعمان بن امرئ القيس اللخمي قصر « الخورنق » ـ الذي بظهر الكوفة ـ ، فلما أتمه قال سنمار : أني أعرف حجراً لو زال لتقوض القصر ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ قال : لا ، فقال : لا جرم لأدعنه وما يعرفه أحد ، ثم أمر به فرمي من أعلى القصر فخر ميتا ، فضرب العرب به المثل لمن يجزي بالإحسان الإساءة ، « إذا عز أخوك فهن » يضرب للتسامح بين الأخوة والأصدقاء ، « زوج من عود خير من قعود » أي أن الخير للفتاة في الزواج ـ هذا المثل لبعض نساء الأعراب ، « البلاء موكل بالمنطق » يضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه ، وقائل هذا المثل أبو بكر الصديق ﷺ ، « المقدرة تذهب الحفيظة » ، « في الجزيرة تشترك العشيرة » ، « الحديث ذو شجون » أي ذو فنون يضرب في الحديث يتذكر به غيره ، وقائله ضبة المضري ، « سبق السيف العذل » يضرب للأمر الذي قد فات .

ومن الأمثال ما هو فرضي ، ذلك الذي أجروه على ألسنة الحيوانات والطيور ، خوفا من عسف حاكم ، أو قصدا إلى الاستطراف في انتزاع

---

(١) الدد : اللهو .

(٢) أوكتا : ربطتا .

الحكمة ووضعها في صورة اللهو والتسلية ، من هذه الأمثال « الفرضية » قولهم : « في بيته يوتي الحكم » يزعمون في أصل هذا المثل ، أن أرنبا التقطت ثمرة فاختلسها الثعلب ، وانطلقا يختصمان إلى الضب ، فقالت الأرنب : يا أبا الحسل ، قال : سميعا دعوت ، قالت : أتيناك لنحتكم إليك ، قال : عادلا حكمتما ، قالت : فاخرج إلينا ، قال : في بيته يؤتى الحكم ، قالت : إني وجدت ثمرة ، قال : حلوة فكليها ، قالت : فاختلسها الثعلب فأكلها ، قال : لنفسه بغى الخير ، قالت : فلطمته لطمة ، قال : بحقك أخذت ، قالت : فلطمني أخرى ، قال : حر انتصر ، قالت : فاقض بيننا ، قال : قد قضيت ، فذهبت أقواله كلها أمثالا .

واضح إذن أن الحادثة التي تعتبر موردا للمثل تكون حقيقة واقعة ، وقد تكون قصة متخيلة .

والأمثال سجل حافل بألوان من حياة العرب ونظراتهم ومظاهر بيئتهم ، وأنها فطرية لا صنعة فيها ولا تكلف ، لأنها تنبع من مختلف الأوساط ، فهي لغة الخاصة والعامة ، ولهذا فإن أكثر أمثالهم لا يعرف قائلوها ، لأنها تنبعث غالبا من أناس مجهولين ، ممن لا يحفل بهم الناس ، ولا يهتمون هم بنسبة فضل إلى أنفسهم ، وانبعاث الأمثال من الخاصة والعامة يوحي بأن المقدرة البيانية عند العرب الجاهليين قد أصبحت سليقة من سلائقهم .

المنافرة :

مما أثر عن الجاهليين من النثر المأثور ، لون أدبي رفيع ، عرف باسم « المنافرة » ، وهي تعني : التحاكم إلى شريف من الأشراف ـ من حكام العرب الموثوق بهم ـ ، أو كاهن من الكهان المعروفين ، في نزاع حول

الشرف والمكانة ، بين اثنين ، ليفصل بينها ، ويقضي الحكم لأحدهما - بالعلو والتفوق - أو يسوي بين المتنافرين .

وقد ألهبت الحمية الجاهلية التنافر ، وأججته الطبيعة العربية ، ومن ثم فقد كانت الحروب الطاحنة تنشب إثر هذه المنافرات العنيفة .

ولهذا كان الحكام حكماء ذوي بصر ثاقب ، خوفا من إراقة الدماء وسعيا في إطفاء نار الفتن ، من ذلك ما وقع بين علقمة بن علاثة وعامر ابن الطفيل العامريين ، فقد ذكروا : أنهما تنازعا الرياسة والشرف والزعامة ، وتفاقم بينهما الأمر ، واستطار بينهما الشر ، فأخذ طريقهما إلى المنافرة ، قال عامر : والله إني لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منك قصبا [١] ، فقال علقمة : أنا خير منك أثرا ، وأعز منك نفرا ، وأشرف منك ذكرا ، فقال عامر : أنا فرك ، وإني - والله - لأركب منك في الحماة ، وأقتل منك للكماة ، وخير منك للمولى والمولاة [٢] ، فقال علقمة : أنافرك ، وإني - والله - لبر وإنك لفاجر ، وإني لولود وإنك لعاقر ، وإني لوفي وإنك لغادر ، ففيم تفاخرني يا عامر ؟! فقال عامر : أنافرك ، وأنا أنشر منك أمة ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة ، وأبعد منك همة .

وطال بينهما الكلام ، وتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما ، وكان مع علقمة بنو خالد ، ومع عامر بنو مالك ، وجعلا يطوفان أحياء العرب ، والناس يأبون الحكم بينهما ، خوفا من وقوع الشر بين الحيين ،

---

(١) قصبا : المراد هنا المنبت والأصل .

(٢) الحماة : جمع حام ، البطل المانع لحياضه . الكماة : جمع كمي ، وهو لابس السلاح .

إلى أن دفعا إلى هرم بن قطبة الغزاري ، فقال : لعمري لأحكمن بينكما ، ثم لأفصلن ، فأعطياني موثقا أطمئن إليه « أن ترضيا بما أقول ، وتسلما بما قضيت » ، وأمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس خوف الفتنة ، ثم جعل يطاولهما ، فأمهلهما - أسبوعا - حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، فشرع يخوف كل واحد منهما من صاحبه ، فقد استدعى عامرا سرا ، لا يعلم به علقمة ، فقال له : قد كنت أرى لك رأيا ، وأن فيك خيرا ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك أتنافر رجلا لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه ، فما الذي أنت بـه خير منه ؟! وكذلك فعل مـع علقمة ، حتى غدا كل واحد منهما ولا هم له إلا أن يسوي في حكمه بينهما ، ثم دعاهما بعد ذلك والناس مجتمعون ، فقال : « قد تحاكمتما إلي ، وأنتما عندي كركبتي البعير الأدرم [(١)] ، تقعان إلى الأرض معا ، وتقومان معا ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه » ، فرضيا بحكمه وانصرفا إلى حييهما ، وهرم بحكمته وكياسته لم يفضل واحدا منهما على صاحبه لئلا يجلب العداوة بين أبناء العمومة ، أو يوقع بين الحيين شرا ، وقد عمر هرم إلى أيام عمر بن الخطاب ﷺ ، فسأله عمر : أيهما كنت منفرا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : لو قلتهـا الآن لعادت جذعـة (يعني الحرب أو الفتنة) ، فقال له عمر : إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

ومن المنافرات منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ، فقد تنافرا إلى النجاشي ملك الحبشة ، فأبى أن يفصل بينهما ، فانطلقا إلى نفيل ابن عبد العزي ، فقال لحرب : يا أبا عمرو ! أتنافر رجلا هو أطول منك

---

(١) الأدرم : المكتنز الذي داري لحمه كعبه أو عظمه .

قامة ، وأعظم منك هامة ، وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل صفدا ، وأطول منك مذودا ؟!! .

وإني لأقول هذا ، وإنك لبعيد الغضب ، رفيع الصوت في العرب ، جلد المريرة ، جليل العشيرة ، ولكنك نافرت منفرا [1] .

سجع الكهان :

شاعت الكهانة في الجاهلية ، وخاصة قبيل مبعث الرسول ﷺ ، وقد كان الناس يلجأون إلى الكهان في كل شئونهم ، ويصدرون عن آرائهم ، كأن يستبهم عليهم آمر ، أو تحدث لامرأة ريبة ، أو تضل ضالة ، وكانوا يتحاكمون إليهم في منافراتهم وخصوماتهم ، كانت منزلة الكاهن في الجاهلية إذن منزلة عالية ، حتى أن نفوذه قد تجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها ، إذ كانت لهذه الطائفة منزلة دينية ، لأن الكهان غالبا ما كانوا يخدمون بيوت الأوثان .

وكان من الكهان من يزعم أن له رئيا ـ أو تابعا ـ من الجن ، يسترق له السمع ويلقيه إليه فيخبر به الناس ، ومنهم من كان يعتمد في استنتاج أقواله على مقدمات تظهر له ، تسنده في ذلك فراسته وقوة نفسه وحضور خاطره ، ولا غرو ! فالنفس البشرية بطبيعتها فيها استعداد للانسلاخ عن عالمها ، والتحليق في عالم آخر هو عالم الأرواح ، وليس هذا بغريب أو بدع ، فإنه إنما يقع للكثيرين في حال النوم واليقظة ، وقد يصدق بعضه ويكذب بعضه ، على أن تسمع الجن واستراقها للسمع ،

---

(١) الصفد : العطاء . المذود : اللسان . بعيد الغضب : صعبه شديده . رفيع الصوت : عالي الصوت مسموع الكلمة . المريرة : الحبل الطويل الدقيق ، وهو يعني عزة النفس والعزيمة .

واصطفاءها لأناس معينين ، من الأشياء التي لا يجوز إنكارها بعد الذي أنبأ به القرآن الكريم ، قال تعالى في سورة الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾ .

وهنا كلمة مفادها : أن تعرف الحوادث ، والأخبار عن الحقائق في الماضي أو الحاضر ممكن ، أما الإخبار عما يأتي به الغيب فغير ممكن ، وصدق بعضه محمول على المصادفة أو الفراسة ، أو على أنه حديث خرافة .

وكان الكهان ـ رغبة في التأثير في السامعين ، وقصدا إلى إلهائهم عن التتبع لما يلقون إليهم من أخبار ـ يعمدون إلى السجع المتكلف ، وإلى ألفاظ غامضة مبهمة ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤول كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه ، ولهذا دخل الرمز في كثير من كلامهم ، لأنهم يؤمنون ولا يصرحون ، إذ أن تنبأهم يقوم على الوهم والإبهام ، واختيار الألفاظ التي تخدع السامع .

ومن هنا فإن عدم وضوح الدلالة ، وكثرة الاختلاف والتأويل فيها ، من أهم ما يميز سجعهم ، إلى جانب أنه يلاحظ عليه كثرة الأقسام بالظواهر الطبيعية ، من نجوم ورياح وسحاب وبحار وما إليها .

وقد التبس الأمر على بعض القرشيين حين بدأ نزول القرآن الكريم ، فقرنوه بسجع الكهان ، فرد الله عليهم زعمهم بمثل قوله تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿ إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴿٤١﴾ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾ ، ويدل على سجع الكهان ما حدث به

أبو هريرة ﷺ من أنه « اقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ ، فقضى رسول الله أن دية جنينها عزة (عبد أو وليدة) ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها [١] ، فقال حمل الهذلي : يا رسول الله : كيف أعزم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل [٢] .

فقال رسول الله ﷺ : « إنما هذا من اخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع » [٣] ، ويقول أبو عثمان الجاحظ : « كان حازي (كاهن) جهينه وشق وسطيح وعزى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع » ، ومن أشهر كهانهم : شق بن الصعب أو شق أنمار ، وقالوا : أنه كان شطر إنسان ، وسطيح بن ربيعة الذئبي ، وكان يدرج كما يدرج الثوب ، فلم يكن فيه عظم إلا الجمجمة ، وأن وجهه كان في صدره ، وهذان قد اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمي - أحد ملوك العرب - فقد أخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن ، بسجع متكلف يدعو إلى الريبة والتهمة ، إذ قال : أحلف بما بين الحرثين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملكن ما بين أبين إلى جرش ، وقال شق : أحلف بما بين الحرتين من إنسان ، ليهبطن أرضكم السودان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران [٤] .

ومن كهانهم سواد بن قارب الدوسي ، والمأمور الحارثي : وأكهنهم عزي سلمة ، يقول الجاحظ : « أكهن العرب وأسجعهم عزي ابن أبي

---

(١) عاقلة المرأة : عصبتها الذين يتضامنون معها في دفع الدية .
(٢) استهل : صاح . يطل : أي يهدر دمه .
(٣) الحديث في صحيح مسلم . وموطأ مالك .
(٤) أبين وجرش : مخلافان باليمن .

حية ، وهو الذي يقال لـه عزي سلمة » ، ومن قولـه : « والأرض والسماء ، والعقاب والصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العشراء للمجد والسناء » (١) .

وقد ظهر إلى جانب هؤلاء الكهان جماعة من الكواهن ـ النساء ـ من أشهرهن : طريفة الكاهنة ، وكانت باليمن ، وفاطمة الخثعمية ، وكانت بمكة ، وزبراء كاهنة بني رئام ، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم ، فقالت : « واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدو ختلا ، ويحـرق أنيابا عصلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا » (٢) .

ومن أقوالهم وأفتائهم قـول الكاهن وإفتاؤه في قضية هند بنت عتبة ، فقد قالوا : إنها كانت في الجاهلية زوجا للفاكه بن المغيـرة المخزومي ، وكانت دار الفاكه مثابة يغشاها الناس ، فاطلع عليها زوجها يوما وهي نائمة ، وقد خرج من عندها رجل ، فاتهمها به واستلحقها بأبيها ، وفشا في الحديث الخبر عنها ، فخرج بها أبوها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معها نسوة من قومها ، وأقبل معهم الفاكه ابن المغيرة في رجال من قومه .

فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته انكسارا وتغيّرا ، فقال لها أبوها : يا بنية ! لا تكتميني من أمرك شيئا ، فإن كان ما بك لريبة نرجع

---

(١) الصقعاء : الشمس . بقعاء : ماء أو موضع . نفر : حكك بالغلبة . بنو العشراء : عشيرة من فزارة . السناء : الرفعة .

(٢) اللوح ـ هنا ـ : الريح . الوادق : الممطر . يأدو : يختل . يحرق أنيابا عصلا : كناية عن الغضب والشر . عصلا : معوجة . الطود : الجبل . المعل : الملجأ .

ولا بأس عليك ، فقالت هند ـ وكانت عاقلة منجبة ـ : لا والله يا أبت ! ما ذاك لريبة ولا فاحشة ، ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب ، وأخشى أن يسمني بسمة ، تبقى علي وصمة عار آخر الدهر ، قال : سأبلوه لك ، ثم خبأ خبيئا ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن ، فسأله عما خبأ له ، فقال الكاهن : ثمرة في كمرة ، فقال : أفصح ، فقال : حبة بر في إحليل مهر ، قال : صدقت ، ثم استنظروه في أمر النسوة ، فجعل يتصفحهن واحدة واحدة حتى أقبل على هند ، فقال : انهضي غير رسحاء ولا زانية ، وستلدين ملكا يقال له معاوية .

ويزعمون أن عبد المسيح بن بقيلة الغساني أرسله كسرى إلى سطيح ، لما حصلت الآيات بمولد النبي ﷺ ، فوافاه ـ وقد أشرف على الموت ـ فلما كلمه رفع رأسه إليه ثم قال : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى ! بلا صعابا ، تقود خيلا عرابا ، قد اقتحمت في الواد ، وانتشرت في البلاد ! عبد المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادي السماوة ، وظهر صاحب الهراوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكل ما هو آت آت .

فرجع عبد المسيح إلى كسرى ، فأخبره فغمه ذلك الخبر ، ثم تعزى فقال : إلى أن يملك بنا أربعة عشر ملكا يدور الزمان !! قالوا : فهلكوا جميعا في أربعين سنة ، والله أعلى وأعلم .

على أننا لا نطمئن كل الاطمئنان إلى صحة هذه النصوص ، وذلك لبعد المسافة الزمنية بين عصور التدوين والعصر الجاهلي ، إذ أنه من

الصعب أن تروى بنصها ، وقد مضى عليها ما يقرب من قرنين ، وإن كان ذلك لا ينفي أن بعض هذه الحوادث - إن لم يكن كلها - صحيح ، بيد أن هذا السجع ، إلى جانب ما في الخطابة من سجع ، يدل دلالة قاطعة على أن العرب في الجاهلية قد عنوا بنثرهم عنايتهم بشعرهم .

وبالله التوفيق ..

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة



للكمبيوتر . الطباعة . التصوير
ت : ٥٢٣٧٢٤٩ / ٣٨٠٣٥٥٦ / ٥٩٠٩٠٥٠ القاهرة